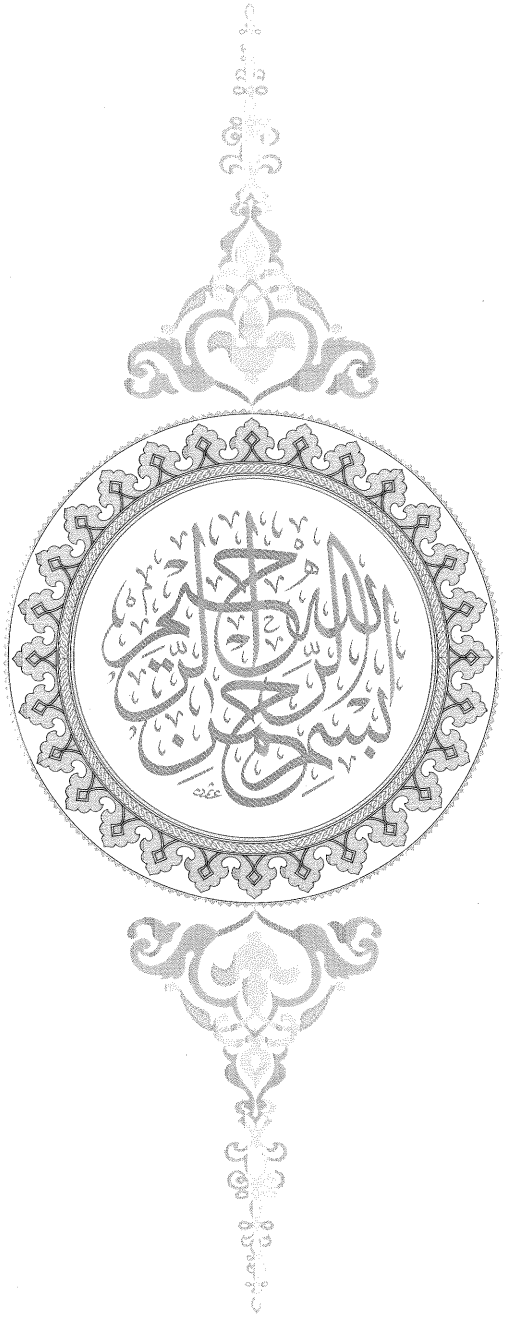
بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين
زين الدين، أبي حامد
محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي
الطوسي الطابراني الشافعي
رضي الله عنه
(٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) - (١٠٥٨ - ١١١١ م)

ربع العبادات / القسم الأول

كتاب

العلم - قواعد العقائد
أسرار الطهارة ومهماتها - أسرار الصلاة ومهماتها

المجلد الأول

دار المنهاج

الطّبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المنهاج للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - جدة
حي الكندرة - شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 - فاكس 6320392
ص. ب 22943 - جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ

خُطْبَةُ المؤلِّف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينُ

رب يسر وأعن وتمم بخير يا كريم

قال الشيخ الإمام الأوحد زين الدين شرف الأئمة حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي رحمة الله عليه :

أحمدُ اللهَ تعالىٰ أوَّلاً ، حمداً كثيراً متوالياً وإنْ كانَ يتضاءلُ دونَ حقِّ جلالِهِ حمدُ الحامدينَ .

وأصلِّي وأسلِّمُ علىٰ رسولِهِ ثانياً، صلاةً تستغرقُ مع سيِّدِ البشرِ سائرَ المرسلينَ .

وأستخيرُهُ سبحانَهُ وتعالىٰ ثالثاً ، فيما انبعثَ لهُ عزمي مِنْ تحريرِ كتابٍ في إحياءِ علومِ الدينِ .

وأنتدبُ لقطْعِ تعجُّبِكَ رابعاً ، أيُّها العاذلُ الغالي في العذلِ مِنْ بينِ زمرةِ الجاحدينَ[1] ، المسرفُ في التقريعِ والإنكارِ مِنْ طبقاتِ المنكرينَ الغافلينَ .

---

(١) أنتدب : أسارع ، والغالي : المجاوز الحد في كل أمر .

فلقدْ حلَّ عَنْ لساني عقدةَ الصمتِ ، وطوَّقني عهدةَ الكلامِ وقلادةَ النطقِ ما أنتَ مثابرٌ عليهِ من العمىٰ عَنْ جليَّةِ الحقِّ ، مع اللَّجاجِ في نصرةِ الباطلِ وتحسينِ الجهلِ ، والتشغيبِ علىٰ مَنْ آثرَ النزوعَ قليلاً عَنْ مراسمِ الخلقِ ، ومالَ ميلاً يسيراً عن ملازمةِ الرسمِ إلى العملِ بمقتضى العلمِ ؛ طمعاً في نيلِ ما تعبَّدَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ من تزكيةِ النفسِ وإصلاحِ القلبِ ، وتداركاً لبعضِ ما فَرَطَ منْ إضاعةِ العمر يأساً عَنْ تمامِ التلافي والجبْرِ ، وانحيازاً عَنْ غِمارِ مَنْ قالَ فيهم صاحبُ الشرعِ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم : « أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لمْ ينفعْهُ اللهُ سبحانَهُ بعلمِهِ »[1] .

ولعمري ؛ لا سببَ لإصرارِكَ على النكيرِ إلا الداءُ الذي عمَّ الجمَّ الغفيرَ ، بلْ شمِلَ الجماهيرَ ؛ من القصورِ عنْ ملاحظةِ ذُروةِ هـٰذا الأمرِ ، والجهلِ بأنَّ الأمرَ إدٌّ والخطبَ جدٌّ[2] ، والآخرةَ مقبلةٌ والدنيا مدبرةٌ ، والأجلَ قريبٌ والسفرَ بعيدٌ ، والزادَ طفيفٌ والخطرَ عظيمٌ ، والطريقَ سَدٌّ ، وما سوى الخالصِ لوجْهِ اللهِ تعالىٰ من العلمِ والعملِ عندَ الناقدِ البصيرِ ردٌّ ، وسلوكَ طريقِ الآخرةِ مع كثرةِ الغوائلِ مِنْ غيرِ دليلٍ ولا رفيقٍ متعبٌ مكدٌّ .

فأدلَّةُ الطريقِ هم العلماءُ الذينَ همْ ورثةُ الأنبياءِ ، وقد شَغَرَ عنهمُ الزمانُ ، ولمْ يبقَ إلا المترسِّمونَ ، وقد استحوذَ علىٰ أكثرِهِمُ الشيطانُ ،

---

(١) رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ١٨٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) .

(٢) **الإدُّ** : الداهية والأمر الفظيع .

واستغواهمُ الطغيانُ ؛ فأصبحَ كلُّ واحدٍ بعاجلِ حظِّهِ مشغوفاً ، فصارَ يرى المعروفَ منكراً والمنكرَ معروفاً ، حتىٰ ظلَّ علَمُ الدينِ مندرساً ، ومنارُ الهدىٰ في أقطارِ الأرضِ منطمساً .

ولقد خيَّلُوا إلى الخلقِ أنْ لا علمَ إلا فتوىٰ حكومةٍ تستعينُ بها القضاةُ علىٰ فصلِ الخصامِ عندَ تهارشِ الطَّغامِ[1] ، أو جدلٌ يتدرَّعُ بهِ طالبُ المباهاةِ إلى الغلبةِ والإفحامِ ، أو سجعٌ مزخرفٌ يتوسَّلُ بهِ الواعظُ إلى استدراجِ العوامِّ ؛ إذْ لمْ يرَوا ما سوىٰ هـٰذهِ الثلاثةِ مصيدةً للحرامِ وشبكةً للحُطامِ .

فأمَّا علمُ طريقِ الآخرةِ وما درجَ عليهِ السلفُ الصالحُ ؛ ممَّا سمَّاهُ اللهُ سبحانَهُ في كتابِهِ فقهاً وحكمةً وعلماً ، وضياءً ونوراً ، وهدايةً ورشداً . . فقدْ أصبحَ مِنْ بينِ الخلقِ مطويّاً ، وصارَ نسياً منسيّاً .

ولمَّا كانَ هـٰذا ثَلْماً في الدينِ ملِمّاً ، وخطباً مدلهمّاً . . رأيتُ الاشتغالَ بتحريرِ هـٰذا الكتابِ مهمّاً ؛ إحياءً لعلومِ الدينِ ، وكشفاً عَنْ مناهجِ الأئمَّةِ المتقدمينَ ، وإيضاحاً لما هي العلومُ النافعةُ عندَ النبيِّين والسلفِ الصالحينَ ، سلامُ اللهِ عليهمْ أجمعينَ .

ولقدْ أسَّسْتُهُ علىٰ أربعةِ أرباعٍ : ربعِ العباداتِ ، وربعِ العاداتِ ، وربعِ المهلكاتِ ، وربعِ المنجياتِ .

---

(١) قوله : (**إلا فتوىٰ حكومة**) : هو ما يكتب في أجوبة المسائل في الواقعات والنوازل من الحلال والحرام والإباحة والمنع ، **والطغام** : أراذل الناس وأوغادهم . « إتحاف » (١/٥٨) .

وصدَّرتُ الجملةَ بكتابِ العلمِ ؛ لأنَّه غايةُ المهمِّ ، لِأكشفَ أولاً عَنِ العلمِ الذي تعبَّدَ اللهُ عزَّ وجلَّ الأعيانَ بطلبِهِ علىٰ لسانِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ »[1] ، وأميزَ فيهِ العلمَ النافعَ مِنَ الضارِّ ؛ إذْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعوذُ باللهِ مِنْ عِلْمٍ لا ينفعُ »[2] ، وأحقِّقَ ميلَ أهلِ العصرِ عَنْ شاكلةِ الصوابِ ، وانخداعَهُمْ بلامعِ السرابِ ، واقتناعَهُمْ مِنَ العلومِ بالقِشْرِ عَنِ اللبابِ .

❀ ❀ ❀

ويشتملُ ربعُ العباداتِ علىٰ عشرةِ كتبٍ :

كتابِ العلمِ ، وكتابِ قواعدِ العقائدِ ، وكتابِ أسرارِ الطهارةِ ، وكتابِ أسرارِ الصلاةِ ، وكتابِ أسرارِ الزكاةِ ، وكتابِ أسرارِ الصيامِ ، وكتابِ أسرارِ الحجِّ ، وكتابِ آدابِ تلاوةِ القرآنِ ، وكتابِ الأذكارِ والدعواتِ ، وكتابِ ترتيبِ الأورادِ في الأوقاتِ .

وأمَّا ربعُ العاداتِ . . فيشتملُ علىٰ عشرةِ كتبٍ :

كتابِ آدابِ الأكلِ ، وكتابِ آدابِ النكاحِ ، وكتابِ أحكامِ الكسْبِ ، وكتابِ الحلالِ والحرامِ ، وكتابِ آدابِ الصحبةِ والمعاشرةِ مع أصنافِ الخلقِ ، وكتابِ العزلةِ ، وكتابِ آدابِ السفرِ ، وكتابِ السماعِ والوجْدِ ، وكتابِ الأمرِ

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤) .

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢) .

بالمعروفِ والنهيِ عَنِ المنكرِ ، وكتابِ آدابِ المعيشةِ وأخلاقِ النبوَّةِ .

وأمَّا ربعُ المهلكاتِ . . فيشتملُ علىٰ عشرةِ كتبٍ :

كتابِ شرحِ عجائبِ القلبِ ، وكتابِ رياضةِ النفْسِ ، وكتابِ آفاتِ الشهوتينِ : شهوةِ البطنِ وشهوةِ الفرجِ ، وكتابِ آفاتِ اللسانِ ، وكتابِ آفاتِ الغضبِ والحقدِ والحسدِ ، وكتابِ ذمِّ الدنيا ، وكتابِ ذمِّ المالِ والبخلِ ، وكتابِ ذمِّ الجاهِ والرياءِ ، وكتابِ ذمِّ الكبْرِ والعُجبِ ، وكتابِ ذمِّ الغرورِ .

وأمَّا ربعُ المنجياتِ . . فيشتملُ علىٰ عشرةِ كتبٍ :

كتابِ التوبةِ ، وكتابِ الصبرِ والشكرِ ، وكتابِ الخوفِ والرجاءِ ، وكتابِ الفقرِ والزهدِ ، وكتابِ التوحيدِ والتوكلِ ، وكتابِ المحبَّةِ والشوقِ والأنسِ والرضا ، وكتابِ النيَّةِ والصدْقِ والإخلاصِ ، وكتابِ المراقبةِ والمحاسبةِ ، وكتابِ التفكُّرِ ، وكتابِ ذكرِ الموْتِ[1] .

❀ ❀ ❀

فأمَّا ربعُ العباداتِ : فأذكرُ فيهِ مِنْ خفايا آدابِها ، ودقائقِ سُنَنِها ، وأسرارِ معانيها ، ما يضطرُّ العالمُ العاملُ إليهِ ، بلْ لا يكونُ مِنْ علماءِ الآخرةِ مَنْ لمْ يطلعْ عليهِ ، وأكثرُ ذلكَ ممَّا أُهملَ في فنِّ الفقهياتِ .

وأمَّا ربعُ العاداتِ : فأذكرُ فيهِ أسرارَ المعاملاتِ الجاريةِ بينَ الخلقِ ،

---

(١) وقد التمس الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١/ ٦٠) ترابطاً منطقياً لهٰذه الكتب الأربعين .

وأغوارَها ، ودقائقَ سنَنِها ، وخفايا الورعِ في مجاريها ، وهيَ ممَّا لا يستغني متديِّنٌ عنها .

وأمَّا ربعُ المهلكاتِ : فأذكرُ فيهِ كلَّ خُلُقٍ مذمومٍ وردَ القرآنُ بإماطتِهِ وتزكيةِ النفسِ عنهُ ، وتطهيرِ القلبِ منهُ ، وأذكرُ مِنْ كلِّ واحدٍ مِنْ تلكَ الأخلاقِ حدَّهُ وحقيقتَهُ ، ثمَّ سببَهُ الذي منهُ يتولَّدُ ، ثمَّ الآفاتِ التي عليها تترتَّبُ ، ثمَّ العلاماتِ التي بها تتعرَّفُ ، ثم طرقَ المعالجةِ التي بها منها يُتخلَّصُ .

كلُّ ذلكَ مقروناً بشواهدِ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ .

وأمَّا ربعُ المنجياتِ : فأذكرُ فيهِ كلَّ خُلُقٍ محمودٍ ، وخَصْلةٍ مرغوبٍ فيها مِنْ خصالِ المقرَّبينَ والصدِّيقينَ ، التي بها يتقرَّبُ العبدُ مِنْ ربِّ العالمينَ ، وأذكرُ في كلِّ خَصلةٍ حدَّها وحقيقتَها ، وسببَها الذي بهِ تُجتلَبُ ، وثمرتَها التي منها تُستفادُ ، وعلامتَها التي بها تتعرَّفُ ، وفضيلتَها التي لأجلِها فيها يُرغبُ ، مع ما وردَ فيها مِنْ شواهدِ الشرعِ والعقلِ .

ولقدْ صُنِّفَ في بعضِ هـٰذهِ المعاني كتبٌ[1] ، ولكنْ يتميَّزُ هـٰذا الكتابُ عنها بخمسةِ أمورٍ :

---

(١) كـ « قوت القلوب » و« الرعاية » و« منازل السائرين » و« الرسالة » و« التعرُّف » وغيرها . « إتحاف » (١/ ٦٢) .

الأوَّلُ : حلُّ ما عقدُوهُ ، وكشفُ ما أجملُوهُ .

الثاني : ترتيبُ ما بدَّدُوهُ ، ونظمُ ما فرَّقُوهُ .

الثالثُ : إيجازُ ما طوَّلوهُ ، وضبطُ ما قرَّروهُ .

الرابعُ : حذفُ ما كرَّروهُ ، وإثباتُ ما حرَّروهُ .

الخامسُ : تحقيقُ أمورٍ غامضةٍ اعتاصتْ على الأفهامِ لمْ يُتعرَّضْ لها في الكتبِ أصلاً ؛ إذِ الكلُّ وإنْ تواردوا علىٰ منهجٍ واحدٍ فلا مستنْكَرَ أنْ ينفرِدَ كلُّ واحدٍ مِنَ السالكينَ بالتنبُّهِ لأمرٍ يخصُّهُ ويغفُلُ عنهُ رفقاؤُهُ ، أوْ لا يغفُلُ عن التنبُّهِ لهُ ولكنْ يسهو عَنْ إيرادِهِ في الكتبِ ، أوْ لا يسهو ولكنْ يصرفُهُ عَنْ كشفِ الغطاءِ عنهُ صارفٌ .

فهـٰذهِ خواصُّ هـٰذا الكتابِ ، مع كونِهِ حاوياً لمجامعِ هـٰذهِ العلومِ .

وإنَّما حملَني علىٰ تأسيسِ الكتابِ علىٰ أربعةِ أرباعٍ أمرانِ :

ـ أحدُهما وهو الباعثُ الأصليُّ : أنَّ هـٰذا الترتيبَ في التحقيقِ والتفهيمِ كالضروريِّ ؛ لأنَّ العلمَ الذي يُتوجَّهُ بهِ إلى الآخرةِ ينقسمُ إلىٰ علمِ المعاملةِ وعلمِ المكاشفةِ .

وأعني بعلمِ المكاشفةِ : ما يُطلبُ منهُ كشفُ المعلومِ فقطْ .

وأعني بعلمِ المعاملةِ : ما يُطلبُ منهُ معَ الكشْفِ العملُ بهِ .

والمقصودُ من هـٰذا الكتابِ : علمُ المعاملةِ فقطْ دونَ علمِ المكاشفةِ التي لا رخصةَ في إيداعِها الكتبَ ، وإنْ كانتْ هيَ غايةَ مقصدِ الطالبينَ ، ومطمحَ نظرِ الصدِّيقينَ[1] ، وعلمُ المعاملةِ طريقٌ إليهِ ، ولكنْ لمْ يتكلَّمِ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عليهِمْ معَ الخلقِ إلا في علمِ الطريقِ والإرشادِ إليهِ ، وأمَّا علمُ المكاشفةِ . . فلمْ يتكلَّموا فيهِ إلا بالرمزِ والإيماءِ علىٰ سبيلِ التمثيلِ والإجمالِ[2] ؛ علماً منهمْ بقصورِ أفهامِ الخلْقِ عنِ الاحتمالِ ، والعلماءُ ورثةُ الأنبياءِ ، فما لهُمْ سبيلٌ إلى العدولِ عن نهجِ التأسِّي والاقتداءِ .

ثمَّ إنَّ علمَ المعاملةِ ينقسمُ إلىٰ **علمٍ ظاهرٍ** ؛ أعني العلمَ بأعمالِ الجوارحِ ، وإلىٰ **علمٍ باطنٍ** ؛ أعني العلمَ بأعمالِ القلوبِ .

والجاري على الجوارحِ : إمَّا **عبادةٌ** أوْ **عادةٌ** .

والواردُ على القلوبِ التي هيَ بحكمِ الاحتجابِ عنِ الحواسِّ مِنْ عالمِ الملكوتِ : إمَّا **محمودٌ** ، وإمَّا **مذمومٌ** .

فبالواجبِ انقسمَ هـٰذا العلمُ إلىٰ شطرينِ : ظاهرٍ وباطنٍ ، والشطرُ الظاهرُ المتعلِّقُ بالجوارحِ انقسمَ إلىٰ عبادةٍ وعادةٍ ، والشطرُ الباطنُ المتعلِّقُ بأحوالِ القلبِ وأخلاقِ النفسِ انقسمَ إلىٰ مذمومٍ ومحمودٍ ؛ فكانَ المجموعُ

---

(١) كما قرر المؤلف رحمه الله تعالىٰ ذلك في « المنقذ من الضلال » ؛ إذ ألَّفه لتحقيق ذلك .

(٢) لأنه من الأمور الوجدانية ، فإن العاقل يكفيه الإشارة ، والغافل لا يفيده صريح العبارة . « إتحاف » (١/ ٦٣) .

أربعةَ أقسامٍ ، ولا يشُذُّ نظرٌ في علمِ المعاملةِ عنْ هـٰذهِ الأقسامِ .

ـ **الباعثُ الثاني** : أنِّي رأيتُ الرغبةَ مِنْ طلبةِ العلمِ صادقةً في الفقهِ الذي صلَحَ عندَ مَنْ لا يخافُ اللهَ تعالىٰ للتدرُّعِ بهِ إلى المباهاةِ والاستظهارِ بجاهِهِ ومنزلتِهِ في المنافساتِ ، وهو مرتَّبٌ علىٰ أربعةِ أرباعٍ ، والمتزيي بزيِّ المحبوبِ محبوبٌ ، فلمْ أُبعدْ أنْ يكونَ تصويرُ الكتابِ بصورةِ الفقهِ ؛ تلطُّفاً في استدراجِ القلوبِ ، ولهـٰذا تلطَّفَ بعضُ مَنْ رامَ استمالةَ قلوبِ الرؤساءِ إلى الطبِّ ، فوضَعَهُ علىٰ هيئةِ تقويمِ النجومِ ، موضوعاً في الجداولِ والرقومِ ، وسمّاهُ « تقويمَ الصحَّةِ »[1] ؛ ليكونَ أُنسُهُمْ بذلكَ الجنسِ جاذباً لهمْ إلى المطالعةِ ، والتلطُّفُ في اجتذابِ القلوبِ إلى العلمِ الذي يفيدُ حياةَ الأبدِ أهمُّ مِنَ التلطُّفِ في اجتذابِها إلى الطبِّ الذي لا يفيدُ إلا صحَّةَ الجسدِ .

فثمرةُ هـٰذا العلمِ طبُّ القلوبِ والأرواحِ ، للتوصُّلِ بهِ إلىٰ حياةٍ تدومُ أبدَ الآبادِ ، فأينَ منهُ الطبُّ الذي تعالجُ بهِ الأجسادُ وهي معرَّضَةٌ بالضرورةِ للفسادِ في أقربِ الآمادِ ؟!

فنسأل الله سبحانه التوفيق للرشاد والسداد
إنه هو الكريم الجواد

---

(١) وكأنه عنىٰ به كتاب المختار بن الحسن بن عبدون المتطبب ؛ فإنه سمَّاه كذلك ، وعلىٰ نهجه بنى ابن جزلة وابن البيطار كتابيهما . « إتحاف » (١/ ٦٤) .

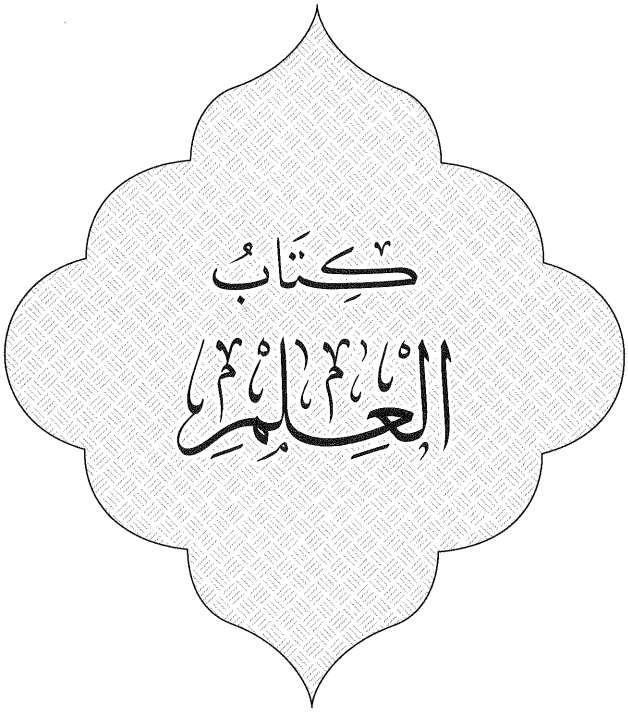

كِتَابُ
الْعِلْمِ

وهو الكتاب الأوّل من ربع العبادات
من كتب إحياء علوم الدّين

كتاب العلم

وفيه سبعة أبواب

البابُ الأوَّلُ : في فضْلِ العلْمِ والتعليمِ والتعلُّمِ .

البابُ الثاني : في بيانِ فرْضِ العيْنِ وفرضِ الكفايةِ مِنَ العلومِ ، وبيانِ حدِّ الفقْهِ والكلامِ منْ علْمِ الدينِ ، وبيانِ علْمِ الآخرةِ وعلْمِ الدنيا .

البابُ الثالثُ : فيما تعدُّهُ العامَّةُ منْ علومِ الدينِ وليسَ منها ، وفيهِ بيانُ جنْسِ العلْمِ المذمومِ وقدرِهِ .

البابُ الرابعُ : في آفاتِ المناظرةِ وسببِ اشتغالِ الناسِ بالخلافِ والجدلِ .

البابُ الخامسُ : في آدابِ المعلِّمِ والمتعلِّمِ .

البابُ السادسُ : في آفاتِ العلمِ والعلماءِ ، والعلاماتِ الفارقةِ بينَ علماءِ الدنيا والآخرةِ .

البابُ السابعُ : في العقلِ وفضيلتِهِ وأقسامِهِ وما جاءَ فيهِ مِنَ الأخبارِ .

البَابُ الأَوَّلُ
في فضل العلم والتّعليم والتّعلّم وشواهده من النّقل والعقل

فضيلة العلم

شواهدُها من القرآن :

قولُهُ تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ ، فانظرْ كيفَ بدأَ سبحانهُ وتعالىٰ بنفسِهِ ، وثنَّىٰ بملائكتِهِ ، وثلّثَ بأهْلِ العلمِ ، وناهيكَ بهـٰذا شرفاً وفضْلاً ، وجلالاً ونبلاً .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ ، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (للعلماءِ درجاتٌ فوقَ المؤمنينَ بسبعِ مئةِ درجةٍ ، ما بينَ الدرجتينِ مسيرةُ خمسِ مئةِ عامٍ)[1] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٩) .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ ﴾ ؛ تنبيهاً علىٰ أنَّهُ اقتدرَ عليهِ بقوَّةِ العلمِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ ، بيَّنَ أنَّ عِظَمَ قدْرِ الآخرةِ يُعلمُ بالعلمِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ ، ردَّ حكمَهُ في الوقائعِ إلى استنباطِهِمْ ، وألحقَ رتبتَهُمْ برتبةِ الأنبياءِ في كشْفِ حُكْمِ اللهِ .

وقيلَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾ يعني العلمَ ، ﴿ وَرِيشًا ﴾ يعني اليقينَ ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ يعني الحياءَ[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ ، وإنَّما ذكرَ ذلكَ في معرضِ الامتنانِ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٨) .

وأمَّا الأخبارُ :

فقالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيراً . . يُفَقِّهْهُ في الدينِ ، ويُلْهِمْهُ رُشدَهُ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العلماءُ ورثةُ الأنبياءِ »[٢] ، ومعلومٌ أنَّهُ لا رتبةَ فوقَ النبوَّةِ ، ولا شرفَ فوقَ شرفِ الوراثةِ لتلكَ الرتبةِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: «يستغفرُ للعالِمِ ما في السماواتِ والأرضِ»[٣]، وأيُّ منصبٍ يزيدُ علىٰ منصبِ مَنْ تشتغلُ ملائكةُ السماواتِ والأرضِ بالاستغفارِ لهُ ؟! فهوَ مشغولٌ بنفسِهِ ، وهمْ مشغولونَ بالاستغفارِ لهُ[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الحكمةَ تَزِيدُ الشريفَ شرفاً ، وترفعُ المَمْلُوكَ حتَّىٰ يجلسَ مجالسَ الملوكِ »[٥] .

وقدْ نبَّهَ بهـٰذا علىٰ ثمرتِهِ في الدنيا ، ومعلومٌ أنَّ الآخرةَ خيرٌ وأبقىٰ .

---

(١) رواه البخاري (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) ، وزيادة : « ويلهمه رشده » عند الطبراني في « الكبير » (١٩/ ٣٤٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٠٧) .

(٢) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

(٣) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

(٤) إن العالم لما كان سبباً في حصول العلم الذي به نجاة النفوس من أنواع المهلكات ، وكان سعيه مقصوراً علىٰ هـٰذا ، وكانت نجاة العباد علىٰ يديه . . جوزي من جنس عمله ، وجعل من في السماوات والأرض ساعياً في نجاته من أسباب الهلاك باستغفارهم . « إتحاف » (١/ ٧١) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٧٣) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٩٧٩) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خَصلتانِ لا تكونانِ في منافقٍ : حُسنُ سمْتٍ ، ولا فقهٌ في الدينِ »[١] .

ولا تَشُكَّنَّ في الحديثِ لنفاقِ بعضِ فقهاءِ الزمانِ ؛ فإنَّهُ ما أرادَ بهِ الفقهَ الذي ظننتَهُ ، وسيأتي بيانُ معنى الفقهِ ، وأدنىٰ درجاتِ الفقيهِ أنْ يعلمَ أنَّ الآخرةَ خيرٌ من الدنيا ، وهـٰذهِ المعرفةُ إذا صدقَتْ وغلبَتْ . . برَّأتْهُ مِنَ النفاقِ والرياءِ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أفضلُ الناسِ المؤمنُ العالمُ الذي إنِ ٱحتيجَ إليهِ . . نفعَ ، وإنِ استغنيَ عنهُ . . أغنَىٰ نفسَهُ »[٢] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الإيمانُ عُريانٌ ، ولباسُهُ التقوىٰ ، وزينتُهُ الحياءُ ، وثمرتُهُ العلمُ »[٣] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أقربُ الناسِ منْ درجةِ النبوَّةِ أهلُ العلمِ والجهادِ ؛ أمَّا أهلُ العلمِ . . فدَلُّوا الناسَ علىٰ ما جاءَتْ بهِ الرسلُ ، وأمَّا أهلُ الجهادِ . . فجاهدُوا بأسيافِهِمْ علىٰ ما جاءتْ بهِ الرسلُ »[٤] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٤) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١٥٩١) عن أبي الدرداء موقوفاً عليه .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٦٣٨٣) من كلام وهب بن منبه ، وكذا ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٣/ ٣٨٩) ، وقال أبو طالب في « القوت » (١/ ١٣٨) : (وقد أسنده حمزة الخراساني عن الثوري ، فرفعه إلىٰ عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم) ، وكذا هو عند الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٢٩ ، ١٣٠) مرفوعاً وموقوفاً .

(٤) قال في « القوت » (١/ ١٣٩) : (وقد روينا عن عبد الرحمـٰن بن غنم ، عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره ، وهو في « الفقيه والمتفقه » (١٣٢) من كلام إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لَموتُ قبيلَةٍ أيسَرُ منْ موتِ عالمٍ »[١] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « الناسُ معادنُ كمعادنِ الذهبِ والفضةِ ، فخِيارُهُمْ في الجاهليَّةِ خِيارُهُمْ في الإسلامِ إذا فَقُهُوا »[٢] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: «يُوزنُ يومَ القيامةِ مِدَادُ العلماءِ ودمُ الشهداءِ»[٣].

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ حَفِظَ علىٰ أُمَّتي أربعينَ حديثاً مِنَ السنَّةِ حتَّىٰ يُؤَدِّيَها إليهِمْ . . كنتُ لهُ شفِيعاً وشهيداً يومَ القيامةِ »[٤] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ حملَ مِنْ أمتي أربعينَ حديثاً . . لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ فَقِيهاً عالِماً »[٥] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ تَفَقَّهَ في دِينِ ٱللهِ عزَّ وجلَّ . . كفاهُ ٱللهُ تعالىٰ همَّهُ ، ورزقَهُ مِنْ حيثُ لا يحتسبُ »[٦] .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٥٧٦) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٧٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨/٣١٨) .

(٢) رواه البخاري (٣٣٥٣) ، ومسلم (٢٦٣٨) .

(٣) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/١٧٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو وأبي الدرداء رضي الله عنهما ، وانظر « الإتحاف » (١/٧٤) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/١٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (١٥٩٧) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٠٥) .

(٥) رواه تمام في « فوائده » (١٠١)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٠٤) .

(٦) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢١٦) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣/٢٤٢) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أوحَى اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ إبراهيمَ عليهِ السلامُ : يا إبراهيمُ ؛ إنِّي عليمٌ ، أُحِبُّ كُلَّ عليمٍ »[١] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « العالِمُ أمينُ اللهِ سبحانَهُ في الأرضِ »[٢] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « صنفانِ مِنْ أمَّتي إذا صَلَحُوا . . صَلَحَ الناسُ ، وإذا فسدوا . . فسدَ الناسُ : الأمراءُ والفقهاءُ »[٣] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا أتَىٰ عليَّ يومٌ لا أزدادُ فيهِ علماً يُقرِّبُني إلى اللهِ عزَّ وجلَّ . . فلا بُورِكَ لي في طلوعِ شمسِ ذلكَ اليومِ »[٤] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في تفضيلِ العلمِ على العبادةِ والشهادةِ : « فَضْلُ العالِمِ على العابدِ كفضْلِي علىٰ أدنىٰ رجلٍ من أصحابي »[٥] ، فانظرْ كيفَ جعلَ العلمَ مقارناً لدرجةِ النبوَّةِ ، وكيفَ حطَّ رتبةَ العملِ المجرَّدِ عن العلمِ وإنْ كانَ العابدُ لا يخلو عن علمٍ بالعبادةِ التي يواظبُ عليها ، ولولاهُ . . لمْ تكنْ عبادةٌ .

---

(١) ذكره ابن عبد البر تعليقاً في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٣٦) .

(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٥١) ، ومن شواهده ما رواه القضاعي في « مسنده » (١١٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤/٢٦٧) : « العلماء أمناء الله علىٰ خلقه » .

(٣) رواه تمام في « فوائده » (٩٠١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/٩٦) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٠٨) واللفظ له .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/١٨٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٣١٨) .

(٥) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « فَضْلُ العالِمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليْلةَ البدرِ علىٰ سائرِ الكواكبِ »[١] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يشفعُ يومَ القيامةِ ثلاثةٌ : الأنبياءُ ، ثمَّ العلماءُ ، ثمَّ الشهداءُ »[٢] ، فأعظمْ برتبةٍ هيَ تِلْوُ النبوَّةِ وفوقَ الشهادةِ ، مع ما وردَ في فضلِ الشهادةِ .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ما عُبِدَ اللهُ تعالىٰ بشيءٍ أفضلَ من فقهٍ في الدينِ ، ولَفقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطانِ مِنْ ألفِ عابدٍ ، ولكلِّ شيءٍ عمادٌ ، وعمادُ هـٰذا الدينِ الفقهُ »[٣] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « خيرُ دينِكُمْ أيسرُهُ ، وخيرُ العبادةِ الفقهُ »[٤] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « فضلُ المؤمنِ العالِمِ على المؤمنِ العابدِ سبعونَ درجةً »[٥] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّكُمْ أصبحتُمْ في زمانٍ كثيرٌ فقهاؤُهُ ،

---

(١) رواه أبو داوود (٣٦٤١) ، والترمذي (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٣١٣) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦١٦٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٩٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٥٨٣) .

(٤) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٩١) بلفظه ، والشطر الأول منه في « مسند أحمد » (٣/ ٤٧٩) .

(٥) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٩٥) ، وهو عند أبي يعلىٰ في « مسنده » (٨٥٦) بزيادة .

قليلٌ خطباؤُهُ ، قليلٌ سائلُوهُ ، كثيرٌ معطُوهُ ، العملُ فيهِ خيرٌ مِنَ العلمِ ، وسيأتي على الناسِ زمانٌ قليلٌ فقهاؤُهُ ، كثيرٌ خطباؤُهُ ، قليلٌ معطوهُ ، كثيرٌ سائلوهُ ، العلمُ فيهِ خيرٌ مِنَ العملِ »[١] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « بينَ العالِمِ والعابدِ مئةُ درجةٍ ، بينَ كلِّ درجتينِ حُضْرُ الجوادِ المضمَّرِ سبعينَ سنةً »[٢] .

وقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ فقالَ : « العلمُ باللهِ عزَّ وجلَّ »، فقيلَ : الأعمالَ نريدُ ، فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العلمُ باللهِ سبحانَهُ » ، فقيلَ : نسألُ عَنِ العملِ وتجيبُ عَنِ العلمِ ؟ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّ قليلَ العملِ ينفعُ معَ العلمِ ، وإنَّ كثيرَ العملِ لا ينفعُ معَ الجهلِ »[٣] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يبعثُ اللهُ عزَّ وجلَّ العبادَ يومَ القيامةِ ، ثمَّ يبعثُ العلماءَ، ثمَّ يقولُ : يا معشرَ العلماءِ ؛ إنِّي لمْ أضعْ علمي فيكمْ إلا لعلمي بكُمْ ، ولمْ أضعْ علمي فيكُمْ لأُعذِّبَكُمْ ، اذهبُوا فقدْ غفرْتُ لكُمْ »[٤] .

نسألُ اللهَ حُسْنَ الخاتمةِ .

---

(١) رواه الطبراني في « مسند الشاميين » (١٢٢٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٠٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢/ ٣٠٣) .

(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٩) ، **وحُضْرُ الجواد المضمّر** : مقدار عدْوِ الجواد المهيَّأِ للركض ، **والحضْرُ** : ارتفاع الفرس في عدوه .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢١٤) .

(٤) رواه البيهقي في « المدخل » (٥٦٧) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٣٢) .

وأمَّا الآثارُ :

فقد قالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ لكُمَيلٍ : (يا كُميلُ ؛ العلمُ خيرٌ مِنَ المالِ ، العلمُ يحرُسُكَ وأنتَ تحرسُ المالَ ، والعلمُ حاكمٌ والمالُ محكومٌ عليهِ ، والمالُ تَنقُصُهُ النفقةُ والعلمُ يزكو على الإنفاقِ)[1] .

وقالَ أيضاً : (العالمُ أفضلُ مِنَ الصائمِ القائمِ المجاهدِ ، وإذا ماتَ العالمُ . . ثُلِمَ في الإسلامِ ثُلْمَةٌ لا يسدُّها إلا خَلَفٌ منهُ)[2] .

وقالَ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ نظماً[3] : [من البسيط]

ما ٱلْفَخْرُ إلاَّ لأَهْلِ ٱلْعِلْمِ إنَّهُمُ عَلَى ٱلْهُدَىٰ لِمَنِ ٱسْتَهْدَىٰ أَدِلاَّءُ
وَقَدْرُ كُلِّ ٱمْرِىءٍ ما كانَ يُحْسِنُهُ وَٱلْجاهِلُونَ لأَهْلِ ٱلْعِلْمِ أَعْدَاءُ
فَفُزْ بِعِلْمٍ تَعِشْ حَيّاً بِهِ أَبَداً اَلنَّاسُ مَوْتَىٰ وَأَهْلُ ٱلْعِلْمِ أَحْياءُ

وقالَ أبو الأسودِ : (ليسَ شيءٌ أعزَّ مِنَ العلمِ ؛ الملوكُ حكَّامٌ

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/ ٣٧٦) ، وبنحوه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٩) ، وهو في « قوت القلوب » (١/ ١٣٤) . وقوله : (والمال تنقصه النفقة) لا ينافي قوله صلى الله عليه وسلم : « ما نقصت صدقة من مال » ؛ فإن المال إذا تصدقت منه وأنفقت . . ذهب ذلك القدر وخلفه غيره ، وأما العلم . . فكالمقتبس من النار ، لو اقتبس منها العالم . . لم يذهب منها شيء ، بل يزيد . « إتحاف » (١/ ٨٦) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤٣) ، ورواه الخطيب البغدادي في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٣٥٠) .

(٣) ديوان سيدنا علي، الموسوم بـ « أنوار العقول لوصي الرسول صلى الله عليه وسلم » (ص٣٠) .

على الناسِ ، والعلماءُ حكامٌ على الملوكِ)[1] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (خُيِّرَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهما السلامُ بينَ العلْمِ والمالِ والمُلكِ ، فاختارَ العلْمَ ، فأُعْطِيَ المالَ والملكَ معهُ)[2] .

وسئِلَ ابنُ المباركِ : مَنِ الناسُ ؟ فقالَ : العلماءُ ، قيلَ : فمَنِ الملوكُ ؟ قالَ : الزهَّادُ ، قيلَ : فمَنِ السَّفِلَةُ ؟ قالَ : الذي يأكلُ بدينِهِ[3] .

ولمْ يجعلْ غيرَ العالمِ مِنَ الناسِ ؛ لأنَّ الخاصيةَ التي بها يتميَّزُ الناسُ عنْ سائرِ البهائمِ هيَ العلمُ ، والإنسانُ إنسانٌ بما هوَ شريفٌ لأجلِهِ ، وليسَ ذلكَ بقوَّةِ شخصِهِ ؛ فإنَّ الجملَ أقوىٰ منهُ ، ولا بِعظَمِهِ ؛ فإنَّ الفيلَ أعظمُ منهُ ، ولا بشجاعتِهِ ؛ فإنَّ السَّبُعَ أشجعُ منهُ ، ولا ليأكلَ ؛ فإنَّ الثورَ أوسعُ بطناً منهُ ، ولا ليجامعَ ؛ فإنَّ أخسَّ العصافيرِ أقوىٰ على السِّفادِ منهُ ، بلْ لمْ يُخلقْ إلا للعلمِ[4] .

---

(١) ذكره ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٢/ ١٢١) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٣١١) تعليقاً .

(٢) تاريخ دمشق (٢٢/ ٢٧٥) ، وهو عن عبد الله بن المبارك في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٦٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ١٦٧) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٧/ ٢٠١) ، وهو عند صاحب « قوت القلوب » (١/ ١٥٣) .

(٤) قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ، فهؤلاء هم الجهال الذين لم تحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يتميز بها صاحبها عن سائر الحيوان . « إتحاف » (١/ ٨٩) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (ليتَ شعري ؛ أيَّ شيءٍ أدركَ مَنْ فاتَهُ العلمُ ، وأيَّ شيءٍ فاتَهُ مَنْ أدركَ العلمَ ؟!)[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ أُوتيَ القرآنَ فرأىٰ أنَّ أحداً أُوتيَ خيراً منهُ . . فقدْ حقَّرَ ما عظَّمَ اللهُ تعالىٰ »[2] .

وقالَ فتْحٌ المَوْصِليُّ رحمهُ اللهُ : (أليسَ المريضُ إذا مُنِعَ الطعامَ والشرابَ والدواءَ يموتُ ؟ قالوا : بلىٰ ، قالَ : كذلكَ القلبُ إذا مُنِعَ عنهُ الحكمةُ والعلمُ ثلاثةَ أيامٍ . . يموتُ)[3] .

ولقدْ صدقَ ؛ فإنَّ غذاءَ القلبِ العلمُ والحكمةُ ، وبهما حياتُهُ ، كما أنَّ غذاءَ الجسدِ الطعامُ ، ومَنْ فقدَ العلمَ . . فقلبُهُ مريضٌ ، وموتُهُ لازمٌ ، ولكنَّهُ لا يشعرُ بهِ ؛ إذْ حبُّ الدنيا وشغلُهُ بها أبطلَ إحساسَهُ ، كما أنَّ غلبةَ الخوفِ قدْ تُبطِلُ إحساسَ ألمِ الجراحِ في الحالِ وإنْ كانَ واقعاً ، فإذا حطَّ الموتُ عنهُ أعباءَ الدنيا . . أحسَّ بهلاكِهِ ، وتحسَّرَ تحسراً عظيماً ثمَّ لا ينفعُهُ ، وذلكَ كإحساسِ الآمنِ مِنْ خوفِهِ والمفيقِ عنْ سكرِهِ بما أصابَهُ منَ الجراحاتِ في حالةِ السكْرِ أوِ الخوفِ ، فنعوذُ باللهِ مِنْ يومِ كشفِ الغطاءِ ؛ فإنَّ الناسَ نيامٌ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا .

---

(١) انظر « مفتاح دار السعادة » (١/ ١٧٥) .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٢٣٥٢)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ٣٩٦).

(٣) انظر « مفتاح دار السعادة » (١/ ١٧٥) ، وأورد بعضها الشعراني في « طبقاته » (١/ ٨٠).

وقالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ : (يوزنُ مدادُ العلماءِ بدمِ الشهداءِ ، فيرجحُ مدادُ العلماءِ بدمِ الشهداءِ)[١] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (عليكُمْ بالعلمِ قبلَ أنْ يُرفعَ ، ورفعُهُ أنْ تهلِكَ رواتُهُ ، فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لَيودَّنَّ رجالٌ قُتلوا في سبيلِ اللهِ شهداءَ أنْ يبعَثَهُمُ اللهُ علماءَ لما يرونَ مِنْ كرامتِهِمْ ، وإنَّ أحداً لم يُولدْ عالماً ، وإنما العلمُ بالتعلُّمِ)[٢] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (تذاكُرُ العلمِ بعضَ ليلةٍ أحبُّ إليَّ مِنْ إحيائِها)[٣] ، وكذا رُويَ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ[٤] ، وأحمدَ ابنِ حنبلٍ رحمهُ اللهُ[٥] .

وقالَ الحسنُ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ : (إنَّ الحسنةَ في الدنيا هي العلمُ والعبادةُ، وفي الآخرةِ هي الجنَّةُ)[٦] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ١٧٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو وأبي الدرداء رضي الله عنهما مرفوعاً ، وأخرجه الشيرازي في « الألقاب » من حديث أنس مرفوعاً ، فلعل الحسن سمعه من أنس . « إتحاف » (١/ ٩٠) .

(٢) روي مفرقاً إلا قوله : (فوالذي نفسي بيده . . . كرامتهم) في « الزهد » (٨٩٩) لأحمد ، « سنن الدارمي » (١٤٤) ، « جامع بيان العلم وفضله » (١٠١٧) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٢٥٣) .

(٤) حلية الأولياء (٢/ ١٩٢) .

(٥) انظر « جامع بيان العلم وفضله » (١٠٨) ، و« مفتاح دار السعادة » (١/ ١٧٤) .

(٦) الترمذي (٣٤٨٨) .

وقيلَ لبعضِ الحكماءِ : أيُّ الأشياءِ تُقتنَىٰ ؟ قالَ : الأشياءُ التي إذا غرقتْ سفينتُكَ . . سَبَحَتْ معك ؛ يعني العلمَ ، وقيلَ : أرادَ بغرقِ السفينةِ هلاكَ بدنِهِ بالموتِ[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (مَنِ اتخذَ الحكمةَ لجاماً . . اتخذَهُ الناسُ إماماً ، ومن عُرفَ بالحكمةِ . . لاحظتْهُ العيونُ بالوقارِ)[2] .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مِنْ شرفِ العلمِ أنَّ كلَّ مَنْ نُسِبَ إليهِ ولوْ في شيءٍ حقيرٍ . . فرحَ ، ومن دُفِعَ عنهُ . . حَزِنَ)[3] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (أيُّها الناسُ ؛ عليكُمْ بالعلمِ ، فإنَّ للهِ سبحانَهُ رداءَ محبَّةٍ ؛ فمَنْ طلبَ باباً مِنَ العلمِ . . ردَّاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بردائِهِ ، فإنْ أذنبَ ذنباً . . استعتبَهُ ، فإنْ أذنبَ ذنباً . . استعتبَهُ ، فإنْ أذنبَ ذنباً . . استعتبَهُ ؛ لئلا يسلُبَهُ رداءَهُ ذلكَ وإنْ تطاولَ بهِ ذلكَ الذنبُ حتَّىٰ يموتَ)[4] .

وقال الأحنفُ رحمهُ اللهُ : (كادَ العلماءُ أنْ يكونوا أرباباً ، وكلُّ عزٍّ لمْ يؤكَّدْ بعلمٍ فإلىٰ ذلٍّ مصيرُهُ)[5] .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢٨٠) .
(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢٨١) .
(٣) ذكر الحافظ الزبيدي بأنه روي عنه بإسناد حسن . « إتحاف » (١/ ٩٢) ، وهو في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٩٥) بغير نسبة .
(٤) جامع بيان العلم وفضله (٣٠٠) ، ومعنى (استعتبه) : طلب رجوعه إليه واستقالته . « إتحاف » (١/ ٩٢) .
(٥) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٣٢٤) .

وقالَ سالمُ بنُ أبي الجعدِ : (اشتراني مولايَ بثلاثِ مئةِ درهمٍ وأعتقني ، فقلتُ : بأيِّ حرفةٍ أحترفُ ؟ فاحترفتُ بالعلمِ ، فما تمَّتْ لي سنةٌ حتَّىٰ أتاني أميرُ المدينةِ زائراً ، فلمْ آذنْ لهُ) .

وقالَ الزبيرُ بنُ أبي بكرٍ : (كتبَ إليَّ أبي بالعراقِ : عليكَ بالعلمِ ؛ فإنَّكَ إنِ افتقرتَ . . كانَ لكَ مالاً ، وإنِ استغنيتَ . . كانَ لكَ جمالاً)[1] .

وحُكِيَ ذلكَ في وصايا لقمانَ لابنِهِ ، وقالَ : (يا بُنيَّ ؛ جالسِ العلماءَ وزاحمْهُمْ بركبتيكَ ؛ فإنَّ اللهَ سبحانَهُ يحيي القلوبَ بنورِ الحكمةِ كما يحيي الأرضَ بوابلِ السماءِ)[2] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إذا ماتَ العالمُ . . بكاهُ الحوتُ في الماءِ ، والطيرُ في الهواءِ ، ويُفقدُ وجهُهُ ولا يُنسىٰ ذكرُهُ)[3] .

وقالَ الزهريُّ رحمهُ اللهُ : (العلمُ ذَكَرٌ ، ولا يحبُّهُ إلا ذُكورُ الرجالِ)[4] .

* * *

(١) المدخل إلى السنن الكبرىٰ (٣٩٩) .
(٢) الموطأ (٢/ ١٠٠٢) بلاغاً ، وعند البيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرىٰ » (٤٤٥) عن عبيد الله بن عمر رضي الله عنهما .
(٣) انظر « الإتحاف » (١/ ٩٣) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٦٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٩٦).

فضيلة التعلم

أمَّا الآياتُ :

فقولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾ .

وقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وأمَّا الأخبارُ :

فقولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سلكَ طَريقاً يطلبُ فيهِ علماً . . سلكَ اللهُ بهِ طريقاً إلى الجنَّةِ »(١) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الملائكةَ لَتضعُ أجْنحتَها لطالبِ العلمِ رِضاً بما يصنَعُ »(٢) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأَنْ تغدوَ فتتعلَّمَ باباً من العلمِ . . خيرٌ مِنْ أنْ تصلِّيَ مئةَ ركعةٍ »(٣) .

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩) .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٢٣٩) ، وهو بتمامه عند الترمذي (٢٦٨٢) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٤) ، وبنحوه عند ابن ماجه (٢١٩) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بابٌ مِنَ العلمِ يتعلَّمُهُ الرجلُ . . خيرٌ لهُ مِنَ الدنيا وما فيها »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اطلبُوا العلمَ ولوْ بالصِّينِ »[٣] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « العلمُ خزائنُ مفاتِحُها ٱلسُّؤالُ ؛ فاسْألوا ، فإنَّهُ يُؤجَرُ فيهِ أربعةٌ : السائلُ ، والعالمُ ، والمستمِعُ ، والمحبُّ لهم »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا ينبغي للجاهلِ أنْ يسكتَ علىٰ جهلِهِ ، ولا للعالمِ أنْ يسكتَ عَلىٰ علمِهِ »[٥] .

وفي حديثِ أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : « حضورُ مجلسِ عِلْمٍ أفضلُ منْ صلاةِ ألفِ ركعةٍ ، وعيادةِ ألفِ مريضٍ ، وشهودِ ألفِ جنازةٍ » ، فقيلَ :

---

(١) هو من قول الحسن البصري كما في « روضة العقلاء » (ص ٤٠) ، و« جامع بيان العلم وفضله » (٢٥٥) .

(٢) رواه ابن ماجه (٢٢٤) .

(٣) رواه البيهقي في « المدخل » (٣٢٤) ، و« الشعب » (١٥٤٣) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٠) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٩٢) .

(٥) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٣٦١) .

يا رسولَ اللهِ ؛ ومِنْ قراءةِ القرآنِ ؟ فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وهلْ ينفعُ القرآنُ إلا بالعلمِ ؟! »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ جَاءَهُ الموتُ وهوَ يطلبُ العلمَ ليحييَ بهِ الإسْلامَ . . فبينَهُ وبينَ الأنبياءِ في الجنَّةِ درجةٌ واحدةٌ »[٢] .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الآثارُ :

فقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (ذَلَلْتُ طالباً ؛ فعززتُ مطلوباً)[٣] .

وكذلكَ قالَ ابنُ أبي مُليكةَ رحمهُ اللهُ : (ما رأيتُ مثلَ ابنِ عباسٍ ؛ إذا رأيتَهُ . . رأيتَ أحسنَ الناسِ وجهاً ، وإذا تكلَّمَ . . فأعربُ الناسِ لساناً ، وإذا أفتىٰ . . فأكثرُ الناسِ علماً)[٤] .

وقالَ ابنُ المباركِ رحمهُ اللهُ : (عجبتُ لمنْ لمْ يطلبِ العلمَ كيفَ تدعوهُ نفسُهُ إلىٰ مكرمةٍ !)[٥] .

---

(١) تقييد المصنف بروايته عن أبي ذر فيه إشارة إلى الحديث المتقدم : « يا أبا ذر ؛ لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم . . . » ، ولفظه عند صاحب « القوت » (١/ ٦٧) حيث قال : (وروينا من حديث أبي ذر . . .) وذكره ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٩٩) .

(٢) رواه الدارمي في « سننه » (٣٦٦) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢١٩) عن الحسن مرسلاً .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٨٤) .

(٤) أورده ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٤/ ٨) .

(٥) جامع بيان العلم وفضله (٢٨٦) وسير أعلام النبلاء (٨/ ٣٩٨) .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إنِّي لا أرحمُ رجالاً كرحمتي لأحدِ رجلينِ : رجلٍ يطلبُ العلمَ ولا يفهمُ ، ورجلٍ يفهمُ ولا يطلبُهُ)[١] .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (لأَنْ أتعلَّمَ مسألةً أحبُّ إليَّ مِنْ قيامِ ليلةٍ)[٢] .

وقالَ أيضاً : (العالمُ والمتعلِّمُ شريكانِ في الخيرِ ، وسائرُ الناسِ هَمَجٌ لا خيرَ فيهِمْ)[٣] .

وقالَ أيضاً : (كنْ عالماً ، أو متعلِّماً ، أو مستمعاً ، ولا تكنِ الرابعَ فتهلِكَ)[٤] .

وقالَ عطاءٌ : (مجلسُ ذكرٍ يكفِّرُ سبعينَ مجلساً مِنْ مجالسِ اللهوِ)[٥] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (موتُ ألفِ عابدٍ قائمِ الليلِ صائمِ النهارِ أهونُ مِنْ موتِ عاقلٍ بصيرٍ بحلالِ اللهِ وحرامِهِ)[٦] .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (طلبُ العلمِ أفضلُ مِنَ النافلةِ)[٧] .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٦٤٢) ونسبه للفرّاء .
(٢) الفقيه والمتفقه (٥٥) .
(٣) جامع بيان العلم وفضله (١٣٤) ، وروي مرفوعاً كما هو عند ابن ماجه (٢٢٨) .
(٤) جامع بيان العلم وفضله (١٤٢ـ ١٤٤) .
(٥) قوت القلوب (١/ ١٤٩) .
(٦) زوائد مسند الحارث (٢/ ٨١٣) .
(٧) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١١٩)، والبيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/ ١٣٨).

وقالَ ابنُ عبدِ الحكمِ رحمهُ اللهُ : (كنتُ عندَ مالكٍ أقرأُ عليهِ العلمَ ، فدخلَ الظهرُ ، فجمعتُ الكتبَ لأصلِّي ؛ فقالَ : يا هـٰذا ؛ ما الذي قمتَ إليهِ بأفضلَ ممَّا كنتَ فيهِ إذا صحَّتِ النيَّةُ)[1] .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ رأىٰ أنَّ الغُدوَّ إلى العلمِ ليسَ بجهادٍ . . فقدْ نقصَ في رأيِهِ وعقلِهِ)[2] .

(١) شرف أصحاب الحديث (ص١٢٧) بنحوه . وانظر « الإتحاف » (١/ ١٠٣) .
(٢) جامع بيان العلم وفضله (١٥٩) .

فضيلة التعليم

أمَّا الآياتُ :

فقولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ ، والمرادُ هوَ التعليمُ والإرشادُ .

وقولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ ، وهو إيجابٌ للتعليمِ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وهوَ تحريمٌ للكتمانِ ؛ كما قالَ تعالىٰ في الشهادةِ : ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما آتَى اللهُ عالماً علماً إلا أخذَ عليهِ مِنَ الميثاقِ ما أخذَ على النَّبيِّينَ أنْ يبيِّنُوهُ للنَّاسِ ولا يكتموهُ »[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ .

---

(١) رواه ابن عدي في « الكامل » (٢/٢٨٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٥/٣٦٦) .

وأمَّا الأخبارُ :

فقالَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا بعثَ معاذاً رضيَ اللهُ عنهُ إلى اليمنِ : « لأنْ يهديَ اللهُ بكَ رجلاً واحداً خيرٌ لكَ مِنَ الدنيا وما فيها »(١) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تعلَّمَ باباً من العلمِ ليُعَلِّمَ النَّاسَ . . أعطِيَ ثَوَابَ سبعينَ صِدِّيقاً »(٢) .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مَنْ علِمَ وعمِلَ وعَلَّمَ . . فذلكَ يُدْعَىٰ عظيماً في ملكُوتِ السماواتِ)(٣) .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا كانَ يومُ القيامةِ . . يقولُ اللهُ تعالىٰ للعابدينَ والمجاهدينَ : ادخلُوا الجنَّةَ ، فيقولُ العلماءُ : بفضلِ علمِنا تَعَبَّدُوا وجاهدُوا ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : أنتمْ عندي كبعضِ ملائكتي ، اشفَعُوا . . تُشَفَّعُوا ، فيشفعونَ ، ثمَّ يدخلونَ الجنَّةَ »(٤) ، وهـٰذا إنَّما يكونُ بالعلمِ المتعدِّي بالتعليمِ ، لا العلمِ اللازمِ الذي لا يتعدَّىٰ .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٧٥) بلفظه ، وأصله في « البخاري » (٣٧٠١) ، و« مسلم » (٢٤٠٦) ، قاله لعلي رضي الله عنه .

(٢) نسبه الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (١/١٢٦) للديلمي في « مسند الفردوس » ، وانظر « إتحاف السادة المتقين » (١/١٠٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٩٣) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٧٩١ ، ١٢١٦) .

(٤) قال العراقي : (رواه المرهبي في « العلم » عن رواية محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس) ، وبحث فيه الزبيدي . انظر « الإتحاف » (١/١٠٧) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ لا يَنْتَزِعُ العلمَ انتزاعاً مِنَ النَّاسِ بعدَ أَنْ يُؤْتِيَهُمْ إيَّاهُ ، ولَكنْ يذهبُ بذهابِ العلماءِ ، فكلَّما ذَهَبَ عالمٌ . . ذهبَ بما معهُ من العِلْمِ ، حتَّىٰ إذا لمْ يَبْقَ عالمٌ . . اتخذَ الناسُ رؤوساً جُهَّالاً ، إنْ سُئِلُوا . . أفتَوا بغيرِ علمٍ ؛ فَيَضِلُّونَ ويُضِلُّونَ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عَلِمَ علماً فكتمَهُ . . أُلجِمَ يومَ القيامةِ بلجامٍ مِنْ نارٍ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نِعْمَ العطيَّةُ ونِعْمَ الهديَّةُ كلمةُ حكمةٍ تسمَعُهَا ، فتَطْوِي عليها ، ثم تحملُها إلىٰ أخٍ لكَ مسلمٍ تُعَلِّمُهُ إيَّاها ، تَعْدِلُ عبادةَ سنةٍ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدنيا ملعونةٌ ، ملعونٌ ما فيها ، إلا ذكرَ اللهِ سبحانَهُ وما والاهُ ، أو مُعَلِّماً ، أو مُتَعلِّماً »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ وملائكتَهُ وأهلَ السماواتِ والأرضِ ، حتَّى النَّملةَ في جُحْرِها ، وحتَّى الحوتَ في البحرِ . . لَيُصَلُّونَ علىٰ مُعَلِّمِ الناسِ الخيرَ »[٥] .

---

(١) رواه البخاري (١٠٠) ، ومسلم (٢٦٧٣) .
(٢) رواه أبو داوود (٣٦٥٨) ، والترمذي (٢٦٤٩) ، وابن ماجه (٢٦١) .
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٢/ ٤٣) .
(٤) رواه الترمذي (٢٣٢٢) ، وابن ماجه (٤١١٢) .
(٥) رواه الترمذي (٢٦٨٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أفادَ المسلمُ أخاهُ فائدةً أفضلَ من حديثٍ حسنٍ بَلَغَهُ فَبَلَّغَهُ »[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلمةٌ مِنَ الخيرِ يسمعُها المؤمنُ فيعملُ بها ، ويعلِّمُها . . خيرٌ لهُ مِنْ عبادةِ سنةٍ »[٢] .

وخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ يومٍ ، فرأىٰ مجلسينِ ؛ أحدُهُما : يدعُون اللهَ عزَّ وجلَّ ويرغبونَ إليهِ ، والثاني : يعلِّمونَ الناسَ ، فقالَ : « أمَّا هؤلاءِ : فيسأَلُونَ اللهَ ؛ فإنْ شاءَ . . أعطاهُمْ ، وإنْ شاءَ . . منعهُمْ ، وأمَّا هؤلاءِ : فيُعَلِّمُونَ الناسَ ، وإنَّما بُعِثْتُ مُعَلِّماً » ، ثمَّ عَدَلَ إليهِمْ وجلسَ معهُمْ[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ ما بَعَثَنِي اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ منَ الهدىٰ والعلمِ كمثَلِ الغيثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً ، فكانتْ منها نَقِيَّةٌ[٤] قبلَتِ الماءَ ، فأَنْبَتَتِ الكلأَ والعشبَ الكثيرَ ، وكانتْ منها أجادبُ أمسكَتِ الماءَ ، فنفعَ اللهُ بهَا النَّاسَ ، فشَرِبُوا وسَقَوا وَزَرَعُوا ، وكَانَتْ منها طائفَةٌ قيعانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً ولا تُنْبِتُ كلأً »[٥] .

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٠٢) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٣٨٦) ، وتقدم بنحوه عند الطبراني .
(٣) رواه ابن ماجه (٢٢٩) .
(٤) أي : طيبة طاهرة .
(٥) رواه البخاري (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) .

فالأوَّلُ ذكرَهُ مثلاً للمنتفعِ بعلمِهِ ، والثاني ذكرَهُ مثلاً للنافعِ ، والثالثُ للمحرومِ منهما[١] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ماتَ ابنُ آدمَ . . انقطعَ عملُهُ إلا مِنْ ثلاثٍ : عِلْمٍ يُنتفَعُ بهِ . . . » الحديثَ[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الدَّالُّ على الخيرِ كفاعلِهِ »[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا حَسَدَ إلا في اثنتينِ : رجلٌ آتاهُ اللهُ حكمةً ، فهو يَقْضِي بها ويُعَلِّمُها النَّاسَ ، ورَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مالاً ، فهوَ ينفقُ منهُ سرّاً وجهراً »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علىٰ خلفائي رحمةُ اللهِ » قيلَ : ومَنْ خلفاؤُكَ ؟ قالَ : « الذينَ يُحيُونَ سُنتي ويعلِّمونَها عبادَ اللهِ »[٥] .

❀ ❀ ❀

---

(١) أي : حين قال في تتمة الحديث : « فذلك مَثَلُ من فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلَّم ، ومَثَلُ من لم يَرْفَعْ بذلك رأساً ، ولم يقبل هُدَى الله الذي أرسلت به » . « البخاري » (٧٩) .

(٢) رواه مسلم (١٦٣١) .

(٣) رواه الترمذي (٢٦٧٠) بلفظه ، وأصله عند مسلم (١٨٩٣) .

(٤) رواه البخاري (٧٣) ، ومسلم (٨١٦) ، ولفظه : « . . . مالاً ، فسلَّطه علىٰ هلكته في الحقِّ » .

(٥) رواه الرامهرمزي في « المحدث الفاصل » (١) ، وأبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ١١١) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٢٠) واللفظ له .

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ حدَّثَ بحديثٍ ، فعُمِلَ به . . فلهُ مثلُ أجرِ مَنْ عملَ ذلكَ العملِ)[1] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (مُعلِّمُ الناسِ الخيرَ يستغفرُ لهُ كلُّ شيءٍ حتَّى الحوتُ في البحرِ)[2] .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (العالمُ يدخلُ فيما بينَ اللهِ وبينَ خلقِهِ ، فلينظرْ كيفَ يدخلُ)[3] .

ورُوِي أنَّ سفيانَ الثوريَّ رحمهُ اللهُ قدِمَ عَسْقَلانَ ، فمكثَ ولا يسألُهُ إنسانٌ ، فقالَ : (اكتروا لي لأخرجَ مِنْ هـذا البلدِ ، هـذا بلدٌ يموتُ فيهِ العلمُ)[4] ، وإنما قالَ ذلكَ حرصاً علىٰ فضيلةِ التعليمِ ، واستبقاءِ العلمِ بهِ .

وقالَ عطاءٌ رضيَ اللهُ عنهُ : (دخلتُ علىٰ سعيدِ بنِ المسيَّبِ وهو يبكي ، فقلتُ : ما يبكيكَ ؟ فقال : ليسَ أحدٌ يسألني عَنْ شيءٍ !)[5] .

---

(١) رواه الحاكم في « المدخل إلى الصحيح » (ص٨٧) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٥٦) عنه مرفوعاً .

(٢) رواه الدارمي في « سننه » (٣٥٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٨٠) .

(٣) سنن الدارمي (١٣٩) ، وحلية الأولياء (٣/ ١٥٣) عن محمد بن المنكدر .

(٤) جامع بيان العلم وفضله (١٠٤٦) .

(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٩٤٣) عن عطاء عن سعيد بن جبير .

وقالَ بعضُهُمْ : (العلماءُ سُرجُ الأزمنةِ ، كلُّ واحدٍ مصباحُ زمانِهِ ، يستضيءُ بهِ أهلُ عصرِهِ)[1] .

وقالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ : (لولا العلماءُ . . لصارَ الناسُ مثلَ البهائمِ) أيْ : أنَّهمْ بالتعليمِ يُخرجونَ الناسَ مِنْ حدِّ البهيميَّةِ إلىٰ حدِّ الإنسانيَّةِ .

وقالَ عِكْرِمَةُ : (إنَّ لهـٰذا العلمِ ثَمناً ، قيلَ : وما هو ؟ قالَ : أنْ تضعَهُ فيمَنْ يُحسنُ حملَهُ ولا يضيِّعُهُ)[2] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (العلماءُ أرحمُ بأمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ آبائِهِمْ وأمهاتِهِمْ ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : لأنَّ آباءَهُمْ وأمهاتِهِمْ يحفظونَهُمْ مِنْ نارِ الدنيا ، وهمْ يحفظونَهُمْ من نارِ الآخرةِ)[3] .

وقيلَ : (أوَّلُ العلْمِ الصمتُ ، ثمَّ الاستماعُ ، ثمَّ الحفْظُ ، ثمَّ العمَلُ ، ثمَّ نشرُهُ)[4] .

وقيلَ : (علِّمْ علمَكَ مَنْ يجهلُ ، وتعلَّم ممَّنْ يعلَمُ ؛ فإنَّكَ إذا فعلتَ ذلكَ . . علمتَ ما جهلتَ ، وحفظتَ ما علمتَ)[5] .

---

(١) رواه ابن بطة في « الإبانة » (٤١) .
(٢) المحدث الفاصل (ص٥٧٥) .
(٣) ذكره السخاوي في « المنهل العذب الروي » (ص ٨٥) ، والشعراني في « طبقاته » (١/ ٨٠) .
(٤) حلية الأولياء (٦/ ٣٦٢) ، وبنحوه من قول محمد الحارثي (٨/ ٢١٨) .
(٥) جامع بيان العلم وفضله (٦٤٧) ، ورواه عن الأحنف ابنُ عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤/ ٣٤٤) .

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ في التعليمِ والتعلُّمِ ورأيتُهُ أيضاً مرفوعاً : (تعلَّموا العلمَ ؛ فإنَّ تعلُّمَهُ للهِ خشيةٌ ، وطلبَهُ عبادةٌ ، ومدارستَهُ تسبيحٌ ، والبحثَ عنهُ جهادٌ ، وتعليمَهُ لمنْ لا يعلمُهُ صدقةٌ ، وبذلَهُ لأهلِهِ قربةٌ ، وهوَ الأنيسُ في الوحدةِ ، والصاحبُ في الخلوةِ ، والدليلُ على الدِّين ، والمصبِّرُ على السّراءِ والضرّاءِ ، والوزيرُ عندَ الأخلاّءِ ، والقريبُ عندَ الغرباءِ ، ومنارُ سبيلِ الجنَّةِ ، يرفعُ اللهُ بهِ أقواماً ، فيجعلُهُمْ في الخيرِ قادةً سادةً هُداةً يُقتدَىٰ بهِمْ ، أدلةً في الخيرِ ، تُقتَصُّ آثارُهُمْ وتُرمقُ أفعالُهم ، وترْغَبُ الملائكةُ في خُلَّتِهِمْ وبأجنحتِها تمسحُهُمْ ، وكلُّ رطْبٍ ويابسٍ يستغفرُ لهُمْ ، حتَّىٰ حيتانُ البحْرِ وهوامُّهُ ، وسباعُ البرِّ وأنعامُهُ ، والسماءُ ونجومُها ؛ لأنَّ العلمَ حياةُ القلوبِ مِنَ العمىٰ ، ونورُ الأبصارِ مِنَ الظُّلَمِ ، وقوةُ الأبدانِ مِنَ الضعفِ ، يبلغُ بهِ العبدُ منازلَ الأبرارِ والدرجاتِ العُلىٰ ، التفكُّرُ فيهِ يعدلُ بالصيامِ ، ومدارستُهُ بالقيامِ ، بهِ يُطاعُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وبهِ يُعبدُ ، وبهِ يُوحَّدُ ، وبهِ يُمجَّدُ ، وبهِ يُتورَّعُ ، وبهِ تُوصَلُ الأرحامُ ، وبهِ يعرفُ الحلالُ والحرامُ ، وهوَ إمامٌ والعملُ تابعُهُ ، يُلْهَمُهُ السعداءُ ، ويُحْرَمُهُ الأشقياءُ)[1] . نسألُ اللهَ تعالىٰ حسْنَ التوفيقِ .

في الشواهدِ العقليّةِ :

اعلمْ : أنَّ المطلوبَ مِنْ هـٰذا البابِ معرفةُ فضيلةِ العلمِ ونفاستِهِ ، وما لمْ

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٣٨) موقوفاً ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٦٨) مرفوعاً .

تُفهَمِ الفضيلةُ في نفسِها ولمْ يُتَحقَّقِ المرادُ منها . . لمْ يمكنْ أنْ يُعلمَ وجودُها صفةً للعلمِ أوْ لغيرِهِ مِنَ الخصالِ ؛ فلقدْ ضلَّ عَنِ الطريقِ مَنْ طمعَ أنْ يعرفَ أنَّ زيداً حكيمٌ أم لا وهو بعدُ لمْ يفهمْ معنى الحكمةِ وحقيقتَها .

والفضيلةُ مأخوذةٌ مِنَ الفضْلِ ، وهوَ الزيادةُ ، فإذا تشاركَ شيئانِ في أمرٍ واختصَّ أحدُهُما بمزيدٍ . . يقالُ : فَضَلَهُ ، ولهُ الفضْلُ عليه ، مهما كانتْ زيادتُهُ فيما هوَ كمالُ ذلكَ الشيءِ ، كما يقالُ : الفرسُ أفضلُ مِنَ الحمارِ ؛ بمعنىٰ أنَّهُ يشاركُهُ في قوَّةِ الحملِ ويزيدُ عليهِ بقوَّةِ الكرِّ والفرِّ وشدَّةِ العدْوِ وحسْنِ الصورةِ ، فلوْ فُرِضَ حمارٌ اختُصَّ بسلعةٍ زائدةٍ . . لمْ يُقَلْ : إنَّهُ أفضلُ ؛ لأنَّ تلكَ زيادةٌ في الجسمِ ونقصانٌ في المعنىٰ ، وليستْ مِنَ الكمالِ في شيءٍ ، والحيوانُ مطلوبٌ لمعناهُ وصفاتِهِ لا لجسمِهِ .

فإذا فهمتَ هـٰذا . . لمْ يخْفَ عليكَ أنَّ العلمَ فضيلةٌ إنْ أخذتَهُ بالإضافةِ إلىٰ سائرِ الأوصافِ ؛ كما أنَّ للفرسِ فضيلةً إنْ أخذتَهُ بالإضافةِ إلىٰ سائرِ الحيواناتِ ، بل شدَّةُ العَدْوِ فضيلةٌ في الفرسِ وليسَ فضيلةً على الإطلاقِ ، والعلمُ فضيلةٌ في ذاتِهِ وعلى الإطلاقِ مِنْ غيرِ إضافةٍ ؛ فإنَّهُ وصفُ كمالِ اللهِ سبحانَهُ ، وبهِ شرَّفَ الملائكةَ والأنبياءَ ، بلِ الكيِّسُ مِنَ الخيلِ خيرٌ من البليدِ ، فهيَ فضيلةٌ على الإطلاقِ مِنْ غيرِ إضافةٍ .

واعلمْ : أنَّ الشيءَ النفيسَ المرغوبَ فيهِ ينقسمُ إلىٰ ما يُطلبُ لغيرِهِ ، وإلىٰ ما يُطلبُ لذاتِهِ ، وإلىٰ ما يُطلبُ لغيرِهِ ولذاتِهِ جميعاً ، فما يُطلبُ لذاتِهِ أشرفُ وأفضلُ ممَّا يُطلبُ لغيرِهِ .

والمطلوبُ لغيرِهِ الدراهمُ والدنانيرُ ؛ فإنَّهما حجرانِ لا منفعةَ فيهما ، ولولا أنَّ اللهَ تعالىٰ يسَّرَ قضاءَ الحاجاتِ بهما . . لكانا والحصباءُ بمثابةٍ واحدةٍ .

وأمَّا الذي يُطلبُ لذاتِهِ . . فالسعادةُ في الآخرةِ ، ولذَّةُ النظرِ إلىٰ وجْهِ اللهِ تعالىٰ[1] .

وأمَّا الذي يُطلبُ لذاتِهِ ولغيرِهِ . . فكسلامةِ البدنِ ؛ فإنَّ سلامةَ الرِّجْلِ مثلاً مطلوبةٌ مِنْ حيثُ إنَّها سلامةٌ للبدنِ عَنِ الألمِ ، ومطلوبةٌ للمشيِ بها والتوصُّلِ إلى المآربِ والحاجاتِ .

وبهـٰذا الاعتبارِ إذا نظرتَ إلى العلمِ . . رأيتَهُ لذيذاً في نفسِهِ ، فيكونُ مطلوباً لذاتِهِ ، ووجدتَهُ وسيلةً إلىٰ دارِ الآخرةِ وسعادتِها ، وذريعةً إلى القربِ من اللهِ تعالىٰ ، ولا يُتوصَّلُ إليهِ إلا بهِ .

وأعظمُ الأشياءِ رتبةً في حقِّ الآدميِّ السعادةُ الأبديَّةُ ، وأفضلُ الأشياءِ ما هوَ وسيلةٌ إليها ، ولنْ يُتوصَّلَ إليها إلا بالعلمِ والعملِ ، ولا يُتوصَّلُ إلى العملِ أيضاً إلا بالعلْمِ بكيفيَّةِ العملِ ، فأصلُ السعادةِ في الدنيا والآخرةِ هوَ العلمُ ، فهوَ إذاً أفضلُ الأعمالِ .

---

(١) وهو أعلىٰ أنواع نعم الله الموهوبة والمكتسبة وأشرفُها ، وإياها قصد بقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ الآية ، وذلك هو الخير المحض والفضيلة الصرف ، وهو أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وقدرة بلا عجز ، وعلم بلا جهل ، وغناء بلا فقر . « إتحاف » (١/ ١٢٥) .

وكيفَ لا وقدْ تُعرفُ فضيلةُ الشيءِ أيضاً بشرفِ ثمرتِهِ ، وقدْ عرفتَ أنَّ ثمرةَ العلمِ القربُ مِنْ ربِّ العالمينَ ، والالتحاقُ بأُفُقِ الملائكةِ ، ومقارنةُ الملإِ الأعلىٰ . هـٰذا في الآخرةِ .

وأمَّا في الدنيا . . فالعزُّ والوقارُ ، ونفوذُ الحكْمِ على الملوكِ ، ولزومُ الاحترامِ في الطباعِ ، حتَّىٰ إنَّ أغبياءَ التُرْكِ وأجلافَ العربِ يصادفونَ طباعَهُمْ مجبولةً على التوقيرِ لشيوخِهِمْ ؛ لاختصاصِهِمْ بمزيدِ عِلْمٍ مستفادٍ مِنَ التجرِبَةِ ، بلِ البهيمةُ بطبعِها توقِّرُ الإنسانَ ؛ لشعورِها بتميُّزِ الإنسانِ بكمالٍ مجاوزٍ لدرجتِها .

هـٰذهِ فضيلةُ العلمِ مطلقاً ، ثم تختلفُ العلومُ كما سيأتي بيانُهُ وتتفاوتُ ـ لا محالةَ ـ فضائِلُها بتفاوتِها .

وأمَّا فضيلةُ التعليمِ والتعلُّمِ . . فظاهرةٌ ممَّا ذكرناهُ ؛ فإنَّ العلمَ إذا كانَ أفضلَ الأمورِ . . كانَ تعلُّمُهُ طلباً للأفضلِ ، وكانَ تعليمُهُ إفادةً للأفضلِ .

وبيانه : أنَّ مقاصدَ الخلقِ مجموعةٌ في الدينِ والدنيا ، ولا نظامَ للدينِ إلا بنظامِ الدنيا ؛ فإنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، وهي الآلةُ الموصلَةُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ لمنِ اتخذَها آلةً ومنزلاً ، ولم يتخذْها مستقرّاً ووطناً ، وليسَ ينتظمُ أمرُ الدنيا إلا بأعمالِ الآدميِّينَ ، وأعمالُهم وحرفُهُمْ وصناعاتُهُمْ تنحصرُ في ثلاثةِ أقسامٍ :

أحدُها : أصولٌ لا قِوامَ للعالَمِ دونَها ، وهيَ أربعةٌ : **الزراعةُ** وهيَ

لِلمَطْعَمِ ، **والحياكةُ** وهيَ للملبَسِ ، **والبناءُ** وهوَ للمسكَنِ ، **والسياسةُ** وهيَ للتأليفِ والاجتماعِ ، والتعاونِ علىٰ أسبابِ المعيشةِ وضبطِها .

الثاني : ما هيَ مهيِّئَةٌ لكلِّ واحدةٍ مِنْ هـٰذهِ الصناعاتِ وخادمةٌ لها ؛ كالحدادَةِ ، فإنَّها تخدُم الزراعةَ ، وجملةً مِنَ الصناعاتِ بإعدادِ آلاتِها ، وكالحلاجةِ والغزلِ ، فإنَّها تخدُم الحياكةَ بإعدادِ محلِّها .

الثالثُ : ما هيَ متمِّمَةٌ للأصولِ ومزينةٌ ؛ كالطَّحْنِ والخَبْزِ للزراعةِ ، وكالقصارةِ والخياطةِ للحياكةِ .

وذلكَ بالإضافةِ إلىٰ قِوامِ أمرِ العالَمِ الأرضيِّ مثلُ أجزاءِ الشخصِ بالإضافةِ إلىٰ جملتِهِ ؛ فإنَّها ثلاثةُ أضربٍ أيضاً :

إمَّا أصولٌ ؛ كالقلبِ والكبدِ والدماغِ ، وإمَّا **خادمةٌ لها** ؛ كالمعدةِ والعروقِ والشراييـنِ والأعصابِ والأوردَةِ ، وإمَّا **مكمِّلَةٌ لها ومزيِّنَةٌ** ؛ كالأظفارِ والأصابعِ والحاجبينِ .

وأشرفُ هـٰذهِ الصناعاتِ أصولُها ، وأشرفُ أصولِها السياسةُ بالتأليفِ والاستصلاحِ ، ولذلكَ تستدعي هـٰذهِ الصناعةُ مِنَ الكمالِ ممَّنْ تكفَّلَ بها ما لا يستدعيهِ سائرُ الصناعاتِ ، ولذلكَ يستخدمُ ـ لا محالةَ ـ صاحبُ هـٰذهِ الصناعةِ سائرَ الصُّنَّاعِ .

والسياسةُ في استصلاحِ الخلْقِ وإرشادِهِمْ إلى الطريقِ المستقيمِ المنجي في الدنيا والآخرةِ . . علىٰ أربعِ مراتبَ :

الأولىٰ وهي العليا : سياسةُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ، وحكمُهُمْ على الخاصَّةِ والعامَّةِ جميعاً في ظاهرِهِمْ وباطنِهِمْ .

والثانيةُ : الخلفاءُ والملوكُ والسلاطينُ ، وحكمُهُمْ على الخاصَّةِ والعامَّةِ جميعاً ، ولكنْ علىٰ ظاهرِهِمْ لا علىٰ باطنِهِمْ .

والثالثةُ : العلماءُ باللهِ عزَّ وجلَّ وبدينِهِ ، الذين همْ ورثةُ الأنبياءِ ، وحكمُهُمْ علىٰ باطنِ الخاصَّةِ فقطْ ، ولا يرتفعُ فهْمُ العامَّةِ إلى الاستفادةِ منهُمْ ، ولا تنتهي قوتُهُمْ إلى التصرُّفِ في ظواهرِهِمْ بالإلزامِ والمنعِ .

والرابعةُ : الوعاظُ ، وحكمُهُمْ علىٰ بواطنِ العوامِّ فقطْ .

وأشرفُ هـٰذهِ السياساتِ الأربعِ بعدَ النبوَّةِ إفادةُ العلمِ ، وتهذيبُ نفوسِ الناسِ عنِ الأخلاقِ المذمومةِ المهلِكةِ ، وإرشادُهُمْ إلى الأخلاقِ المحمودةِ المسعِدَةِ ، وهو المرادُ بالتعليمِ[1] .

وإنما قلنا : إنَّ هـٰذا أفضلُ من سائرِ الحرَفِ والصناعاتِ ؛ لأنَّ شرفَ الصناعةِ يعرفُ بثلاثةِ أمورٍ :

إمَّا بالالتفاتِ إلى الغريزةِ التي بها يُتوصَّلُ إلىٰ معرفتِها ؛ كفضْلِ العلومِ

---

(١) وهو مقام شريف ، لا يعلوه إلا النبوة والرسالة والصديقية ، وأصحاب هـٰذا المقام هم الجامعون بين علمي الشريعة والحقيقة ؛ فإن إفادة العلم ترجع إلى العلوم الظاهرة ، وتهذيب النفوس والإرشاد بعلماء الحقيقة المتصرفين في بواطن مريدهم . « إتحاف » (١٢٧/١) .

العقليةِ على اللغويَّةِ ؛ إذْ تُدرَكُ الحكمةُ بالعقلِ ، واللغةُ بالسمعِ ، والعقلُ أشرفُ من السمعِ .

وإمَّا بالنظرِ إلىٰ عمومِ النفْعِ ؛ كفضْلِ الزراعةِ على الصياغةِ .

وإمَّا بملاحظةِ المحلِّ الذي فيهِ التصرُّفُ ؛ كفضْلِ الصياغةِ على الدباغةِ ؛ إذْ محلُّ أحدِهما الذهبُ ، ومحلُّ الآخرِ جلْدُ الميتةِ .

وليسَ يخفىٰ أنَّ العلومَ الدينيةَ ـ وهي فقهُ طريقِ الآخرةِ ـ إنما تدركُ بكمالِ العقلِ وصفاءِ الذكاءِ ، والعقلُ أشرفُ صفاتِ الإنسانِ كما سيأتي بيانُهُ ؛ إذْ بهِ قَبِلَ أمانةَ اللهِ تعالىٰ ، وبهِ يصلُ إلىٰ جوارِ اللهِ سبحانَهُ .

وأمَّا عمومُ النفْعِ . . فلا يستريبُ فيهِ أحدٌ ؛ فإنَّ نفعَهُ وثمرتَهُ سعادةُ الآخرةِ .

وأمَّا شرفُ المحلِّ . . فكيفَ يخفىٰ والمعلِّمُ متصرِّفٌ في قلوبِ البشرِ ونفوسِهِمْ ، وأشرفُ موجودٍ على الأرضِ جنسُ الإنسِ ، وأشرفُ جزْءٍ من جواهرِ الإنسانِ قلبُهُ ، والمعلِّمُ مشتغِلٌ بتكميلِهِ وتحليتِهِ[1] وتطهيرِهِ وسياقتِهِ إلى القرْبِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟!

فتعليمُ العلْمِ مِنْ وجهٍ عبادةٌ للهِ تعالىٰ ، ومِنْ وجهٍ خلافةٌ للهِ تعالىٰ ، وهو أجلُّ خلافةٍ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ فتحَ علىٰ قلْبِ العالمِ العلمَ الذي هوَ أخصُّ

---

(١) وفي (أ) : (وتجليته) ، وهي التصفية ، وفي نسخة عند الزبيدي : (وتخليته) ، وهو مناسب للتطهير . « إتحاف » (١/ ١٢٨) .

صفاتِهِ ، فهوَ كالخازنِ لأنْفَسِ خزائِنِهِ ، ثمَّ هوَ مأذونٌ لهُ في الإنفاقِ منهُ علىٰ كلِّ محتاجٍ إليهِ .

فأيَّةُ رتبةٍ أجلُّ مِنْ كونِ العبدِ واسطةً بينَ ربِّهِ سبحانَهُ وبينَ خلقِهِ في تقريبِهِمْ إلى اللهِ زلفىٰ ، وسياقتِهِمْ إلىٰ جنَّةِ المأوىٰ ؟!

جعلَنا اللهُ منهُمْ بكرمِهِ ، وصلَّى اللهُ علىٰ كلِّ عبدٍ مصطفىً .

البَابُ الثَّاني
في العِلمِ المحمود ، والمذموم ، وأقسامِهما وأحكامِهما
وفيه بيانُ ماهو فرضُ عين ، وماهو فرضُ كفاية
وبيانُ أنّ موقعَ الكلامِ والفقهِ من علمِ الدّينِ إلىٰ أيّ حدٍّ هو ، وتفضيلُ علمِ الآخرة

بيانُ العلمِ الّذي هو فرضُ عين

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طَلَبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ »[1] .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اطْلُبُوا العلمَ ولوْ بالصِّينِ »[2] .

واختلفَ الناسُ في العلمِ الذي هو فرْضٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ ، وتحزَّبوا فيهِ أكثرَ مِنْ عشرينَ فِرقةً ، ولا نطوِّلُ بنقْلِ التفصيلِ ، ولكنْ حاصلُهُ : أنَّ كلَّ فريقٍ نزَّلَ الوجوبَ على العلمِ الذي هوَ بصددِهِ :

فقالَ المتكلمونَ : هوَ علمُ الكلامِ ؛ إذْ بهِ يُدركُ التوحيدُ ، وتُعلمُ ذاتُ اللهِ سبحانَهُ وصفاتُهُ .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٩٢) .

وقالَ الفُقهاءُ : هوَ علمُ الفقهِ ؛ إذْ بهِ تُعرفُ العباداتُ ، والحلالُ والحرامُ ، وما يحرُمُ مِنَ المعاملاتِ وما يحلُّ ، وعَنَوا بهِ ما يحتاجُ إليهِ الآحادُ دونَ الوقائعِ النادرةِ .

وقالَ المفسرونَ والمحدِّثونَ : هوَ علْمُ الكتابِ والسنَّةِ ؛ إذْ بهما يُتوصَّلُ إلى العلومِ كلِّها[1] .

وقالَ المتصوفةُ : المرادُ بهِ هـٰذا العلمُ[2] ؛ فقالَ بعضُهُمْ[3] : (هوَ علمُ العبدِ بحالِهِ ومقامِهِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ) .

وقالَ بعضُهُمْ : (هوَ العلمُ بالإخلاصِ وآفاتِ النفوسِ ، وتمييزِ لَمَّةِ المَلكِ من لَمَّةِ الشيطانِ)[4] .

وقالَ بعضُهُمْ : (هوَ علمُ الباطنِ ، وذلكَ يجبُ علىٰ أقوامٍ مخصوصينَ همْ أهلُ ذلكَ)[5] ، وصرفوا اللفظَ عنْ عمومِهِ .

---

(١) هما قولان ؛ فالمفسرون قالوا : هو علم كتاب الله ، وقال المحدثون : هو علم السنة .

(٢) أي : علم التصوف ، ثم فصَّل أقوالهم .

(٣) نسبه صاحبُ « القوت » (١/ ١٢٩) إلىٰ سهل التستري رحمه الله تعالىٰ ، وذكر كلَّ الأقوال التي أوردها الإمام هنا ، ونسب بعضها لقائل معين .

(٤) وبين خاطر الروح ووسوسة النفس ، وبين علم اليقين وقوادح العقل ؛ ليميز بذلك الأحكام ، وهـٰذا عند هـٰؤلاء فريضة ، وهو مذهب مالك بن دينار وفرقد السبخي وعبد الواحد بن زيد وأتباعهم من النساك ، وقد كان أستاذهم الحسن البصري يتكلم في ذلك ، وعنه حملوا علوم القلوب . « قوت القلوب » (١/ ١٢٩) .

(٥) أي : أهل ذلك العلم ، ولأنه جاء في لفظ الحديث : « تعلموا اليقين » [« حلية الأولياء » (٦/ ٩٥)] ، وعلم اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين . « إتحاف » (١/ ١٣٠) .

وقالَ أبو طالبٍ المكيُّ : (هوَ العلمُ بما يتضمَّنُهُ الحديثُ الذي فيهِ مباني الإسلامِ) ؛ وهوَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ الإسلامُ علىٰ خمسٍ . . . » الحديثَ[1] ؛ لأنَّ الواجبَ هٰذهِ الخمسُ ، فيجبُ العلْمُ بكيفيَّةِ العملِ فيها ، وبكيفيَّةِ الوجوبِ .

والذي ينبغي أنْ يَقطعَ بهِ المحصِّلُ ولا يستريبَ فيهِ ما نذكرُهُ ؛ وهو أنَّ العلمَ ـ كما قدَّمناهُ في خطبةِ الكتابِ ـ ينقسمُ إلىٰ علمِ معاملةٍ وعلمِ مكاشفةٍ ، وليسَ المرادُ بهٰذا العلمِ إلا علمَ المعاملةِ[2] .

والمعاملةُ التي كُلِّفَ العبدُ العاقلُ البالغُ بها ثلاثةُ أقسامٍ : **اعتقادٌ ، وفعلٌ ، وتركٌ** .

فإذا بلغَ الرجلُ العاقلُ بالاحتلامِ أو السنِّ ضحوةَ نهارٍ مثلاً ، فأوَّلُ واجبٍ عليهِ تعلُّمُ كلمتي الشهادةِ وفهْمُ معناهما ، وهو قولُ : (لا إلٰهَ إلا اللهُ محمَّدٌ رسولُ اللهِ) ، وليس يجبُ عليه أنْ يحصِّلَ كشْفَ ذلكَ لنفسِهِ بالنَّظَرِ والبحثِ وتحريرِ الأدلَّةِ ، بل يكفيهِ أنْ يصدِّقَ بهِ ويعتقدَهُ جزماً من غيرِ اختلاجِ ريبٍ واضطرابِ نفْسٍ ، وذلكَ قدْ يحصُلُ بمجرَّدِ التقليدِ والسماعِ مِنْ غيرِ بحثٍ ولا برهانٍ ؛ إذِ اكتفىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ من أجلافِ

---

(١) رواه البخاري (٨) ، ومسلم (١٦) .

(٢) أي : علم المعاملة القلبية والقالبية ، **فالقلبية** : إصلاح الباطن ، **والقالبية** : العبادات البدنية ونحوها . « إتحاف » (١/ ١٣٥) .

العربِ بالتصديقِ والإقرارِ من غيرِ تعلُّمِ دليلٍ[1] .

فإذا فعلَ ذلكَ . . فقدْ أدَّىٰ واجبَ الوقتِ ، وكانَ العلمُ الذي هوَ فرضٌ عليهِ في الوقتِ تعلُّمَ الكلمتينِ وفهمَهما ، وليسَ يلزمُهُ أمرٌ وراءَ هٰذا في الوقتِ ؛ بدليلِ أنَّه لو ماتَ عَقيبَ ذلكَ . . ماتَ مطيعاً للهِ عزَّ وجلَّ غيرَ عاصٍ .

وإنما يجبُ غيرُ ذلكَ بعوارضَ تعرِضُ ، وليسَ ذلكَ ضرورياً في حقِّ كلِّ شخصٍ ، بلْ يتصوَّرُ الانفكاكُ عنها .

وتلكَ العوارضُ إمَّا أنْ تكونَ في الفعلِ ، وإمَّا في التركِ ، وإمَّا في الاعتقادِ :

أمَّا الفعلُ : فبأنْ يعيشَ مِنْ ضحوةِ النهارِ إلىٰ وقتِ الظهرِ ، فيتجدَّدُ عليهِ بدخولِ وقتِ الظهرِ تعلُّمُ الطهارةِ والصلاةِ ، فإنْ كانَ صحيحاً ، وكان بحيثُ لو صبرَ إلىٰ زوالِ الشمسِ لمْ يتمكَّنْ منْ تمامِ التعلُّمِ والعملِ في الوقتِ ، بلْ يخرجُ الوقتُ لو اشتغلَ بالتعلُّمِ . . فلا يبعُدُ أنْ نقولَ : الظاهرُ بقاؤُهُ ، فيجبُ عليهِ تقديمُ التعلُّمِ على الوقتِ ، ويحتملُ أنْ يقالَ : وجوبُ العلمِ الذي هوَ شرطُ العملِ بعدَ وجوبِ العملِ ، فلا يجبُ قبلَ الزوالِ ، وهٰكذا في بقيَّةِ الصلواتِ .

فإنْ عاشَ إلىٰ رمضانَ . . تجدَّدَ بسببِهِ وجوبُ تعلُّمِ الصومِ ، وهوَ أنْ يعلمَ

---

(١) كحديث إيمان ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه في « البخاري » (٦٣) ، وغيره كثير ، وانظر « الاقتصاد » (ص٢٨٣) .

أنَّ وقتَهُ مِنَ الصبْحِ إلىٰ غروبِ الشمْسِ ، وأنَّ الواجبَ فيهِ النيَّةُ والإمساكُ عَنِ الأكلِ والشربِ والوقاعِ ، وأنَّ ذلكَ يتمادىٰ إلىٰ رؤيةِ الهلالِ .

فإنْ تجدَّدَ لهُ مالٌ أو كانَ لهُ مالٌ عندَ بلوغِهِ . . لزمَهُ تعلُّمُ ما يجبُ عليهِ من الزكاةِ ، ولكنْ لا يلزمُهُ في الحالِ ، إنما يلزمُهُ عندَ تمامِ الحولِ مِنْ وقْتِ الإسلامِ ، فإنْ لمْ يملكْ إلا الإبلَ . . لمْ يلزمْهُ تعلُّمُ زكاةِ الغنمِ ، وكذلكَ في سائرِ الأصنافِ .

فإذا دخلَتْ أشهرُ الحجِّ . . فلا يلزمُهُ المبادرةُ إلىٰ علْمِ الحجِّ مع أنَّ فعلَهُ على التراخي ، فلا يكونُ علمُهُ على الفورِ ، ولكنْ ينبغي لعلماءِ الإسلامِ أنْ ينبِّهوهُ علىٰ أنَّ الحجَّ فرضٌ على التراخي علىٰ كلِّ مَنْ ملكَ الزادَ والراحلةَ إذا كانَ هوَ مالكاً[1] ، حتَّىٰ ربَّما يرى الحزمَ لنفسِهِ في المبادرةِ ، فعندَ ذلكَ إذا عزمَ عليهِ . . لزمَهُ تعلُّمُ كيفيَّةِ الحجِّ ، ولمْ يلزمْهُ إلا تعلُّمُ أركانِهِ وواجباتِهِ دونَ نوافلِهِ ؛ فإنَّ فعلَ ذلكَ نفلٌ ، فعلمُهُ أيضاً نفلٌ ، فلا يكونُ فرضَ عينٍ .

وفي تحريمِ السكوتِ عَنِ التنبيهِ علىٰ وجوبِ أصْلِ الحجِّ في الحالِ نظرٌ يليقُ بالفقهِ .

وهكذا التدريجُ في علمِ سائرِ الأفعالِ التي هيَ فرضُ عينٍ .

وأمَّا التُّروكُ : فيجبُ علْمُ ذلكَ بحسَبِ ما يتجدَّدُ مِنَ الحالِ ، وذلكَ

---

(١) وذلك مما فَضَلَ عن مسكنه وعما لا بدَّ له منه ، وعلىٰ نفقة مدة ذهابه وإيابه ونفقة عياله . « إتحاف » (١/ ١٤٠) .

يختلفُ بحالِ الشخصِ ؛ إذْ لا يجبُ على الأبكَمِ تعلُّمُ ما يحرمُ من الكلامِ ، ولا على الأعمىٰ تعلُّمُ ما يحرمُ مِنَ النظرِ ، ولا على البدويِّ تعلُّمُ ما يحرمُ[1] الجلوسُ فيهِ مِنَ المساكنِ ، فذلكَ أيضاً واجبٌ بحسَبِ ما يقتضيهِ الحالُ ، فما يعلمُ أنَّهُ ينفكُّ عنهُ لا يجبُ تعلُّمُهُ .

وما هوَ ملابسٌ له يجبُ تنبيهُهُ عليهِ ؛ كما لوْ كانَ عندَ الإسلامِ لابساً للحريرِ ، أو جالساً في الغصْبِ ، أو ناظراً إلىٰ غيرِ مَحْرَمٍ ، فيجبُ تعريفُهُ ذلكَ ، وما ليسَ ملابساً لهُ ولكنَّهُ بصدَدِ التعرُّضِ لهُ على القرْبِ ؛ كالأكْلِ والشربِ . . فيجبُ تعليمُهُ ، حتَّىٰ إذا كانَ في بلدٍ يُتعاطَىٰ فيه شربُ الخمرِ وأكلُ لحمِ الخنزيرِ . . فيجبُ تعليمُهُ ذلكَ وتنبيهُهُ عليهِ ، وما وجبَ تعليمُهُ . . وجبَ عليهِ تعلُّمُهُ .

وأمَّا الاعتقاداتُ وأعمالُ القلوبِ : فيجبُ علمُها بحسَبِ الخواطرِ ؛ فإنْ خطرَ لهُ شكٌّ في المعاني التي تدلُّ عليها كلمتا الشهادةِ . . فيجبُ عليهِ تعلُّمُ ما يتوصَّلُ بهِ إلىٰ إزالةِ الشكِّ ، فإنْ لمْ يخطرْ لهُ ذلكَ وماتَ قبلَ أنْ يعتقدَ أنَّ كلامَ اللهِ سبحانَهُ قديمٌ ، وأنَّهُ مرئيٌّ ، وأنَّهُ تعالىٰ ليسَ محلاً للحوادِثِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مما يُذْكَرُ في المعتقداتِ . . فقدْ ماتَ على الإسلامِ إجماعاً .

ولكنْ هـٰذهِ الخواطرُ الموجبةُ للاعتقاداتِ بعضُها يخطرُ بالطبعِ ، وبعضُها يخطرُ بالسماعِ مِنْ أهلِ البلدِ .

---

(١) في غير (ج) : (ما يحلُّ) .

فإنْ كانَ في بلدٍ شاعَ فيهِ الكلامُ وتناطقَ الناسُ بالبدعِ . . فينبغي أنْ يصانَ في أوَّلِ بلوغِهِ عنها بتلقينِ الحقِّ ؛ فإنَّهُ لو أُلقيَ إليه الباطلُ . . لوجبَ إزالتُهُ مِنْ قلبِهِ ، وربَّما عَسُرَ ذلكَ ، كما أنَّهُ لوْ كانَ هـٰذا المسلمُ تاجراً وقدْ شاعَ في البلدِ معاملةُ الربا . . وجبَ عليه تعلُّمُ الحذرِ مِنَ الربا .

فهـٰذا هوَ الحقُّ في العلمِ الذي هوَ فرضُ عينٍ ، ومعناهُ : العلمُ بكيفيةِ العملِ الواجبِ ، فمن عَلِمَ العملَ الواجبَ ووقتَ وجوبِهِ . . علمَ العلمَ الذي هو فرضُ عينٍ .

وما ذكرَهُ الصوفيَّةُ من فهْمِ خاطرِ العدوِّ ولَمَّةِ الملَكِ حقٌّ أيضاً ، ولكنْ في حقِّ مَنْ يتصدَّىٰ لهُ .

وإذا كانَ الغالبُ أنَّ الإنسانَ لا ينفكُّ عن دواعي الشرِّ والرياءِ والحسدِ . . فيلزمُهُ أنْ يتعلَّمَ من علْمِ ربعِ المهلكاتِ ما يرىٰ نفسَهُ محتاجاً إليهِ ؛ وكيفَ لا يجبُ وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مُهلِكاتٌ : شُحٌّ مُطاعٌ ، وهوىً مُتَّبَعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِهِ » الحديثَ ؟![1] .

ولا ينفكُّ عنها بشَرٌ ، وبقيَّةُ ما سنذكرُهُ مِنْ مذمومات أحوالِ القلْبِ كالكبْرِ والعجْبِ وأخواتِهما تتْبَعُ هـٰذهِ الثلاثَ المهلكاتِ ، وإزالتُها فرضُ عينٍ ، ولا يمكنُ إلا بمعرفةِ حدودِها ، ومعرفةِ أسبابِها ، ومعرفةِ علاماتِها ،

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٤٣/٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٣١) .

ومعرفةِ علاجها ؛ فإنَّ منْ لا يعرفُ الشرَّ يقعُ فيه ، والعلاجُ هو مقابلةُ السببِ بضدِّهِ ، فكيفَ يمكنُ دونَ معرفةِ السببِ والمسبَّبِ ؟!

وأكثرُ ما ذكرناهُ في ربعِ المهلكاتِ من فروضِ الأعيانِ ، وقد تركَهُ الناسُ كافةً ؛ اشتغالاً بما لا يغني .

وممَّا ينبغي أنْ يُبادرَ في إلقائِهِ إليهِ إذا لم يكنْ قدِ انتقلَ عَنْ ملَّةٍ أخرىٰ : الإيمانُ بالجنَّةِ والنارِ ، والحشْرِ والنشْرِ ؛ حتَّىٰ يؤمنَ بهِ ويصدِّقَ ، وهوَ من تتمَّةِ كلمتي الشهادةِ ؛ فإنَّهُ بعدَ التصديقِ بكونِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رسولاً ينبغي أنْ يفهمَ الرسالةَ التي هوَ مبلِّغُها ، وهوَ أنَّ منْ أطاعَ اللهَ ورسولَهُ . . فلهُ الجنَّةُ ، ومَنْ عصاهُ . . فلهُ النارُ .

فإذا تنبَّهْتَ لهـٰذا التدريجِ . . علمتَ أنَّ المذهبَ الحقَّ هوَ هـٰذا ، وتحققتَ أنَّ كلَّ عبدٍ فهوَ في مجاري أحوالِهِ في يومِهِ وليلتِهِ لا يخلو عنْ وقائعَ في عباداتِهِ ومعاملاتِهِ تجدِّدُ عليه لوازمَ ، فيلزمُهُ السؤالُ عنْ كلِّ ما يقعُ لهُ من النوادرِ ، وتلزمُهُ المبادرةُ إلىٰ تعلُّمِ ما يتوقَّعُ وقوعَهُ على القربِ غالباً .

فإذاً ؛ تبيَّنَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إنَّما أرادَ بالعلمِ المعرَّفِ بالألفِ واللامِ في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ »[1] **علْمَ العملِ الذي هو مشهورُ الوجوبِ على المسلمينَ لا غيرَ** ، وقدِ اتضحَ وجهُ التدريجِ في وقتِ وجوبِهِ ، واللهُ أعلمُ .

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤) .

بيان العلم الذي هو فرض كفاية

اعلمْ : أنَّ الفرضَ لا يتميَّزُ عنْ غيرِهِ إلا بذكْرِ أقسامِ العلومِ ، والعلومُ بالإضافةِ إلى الفرضِ الذي نحنُ بصددِهِ تنقسمُ إلىٰ **شرعيَّةٍ وغيرِ شرعيَّةٍ** .

وأعني بالشرعيَّةِ : ما يستفادُ مِنَ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِمْ أجمعينَ ، ولا يرشدُ **العقلُ** إليهِ مثلُ الحسابِ ، ولا **التجربةُ** مثلُ الطبِّ ، ولا **السماعُ** مثلُ اللغةِ .

فالعلومُ التي ليستْ شرعيةً : تنقسمُ إلىٰ ما هوَ **محمودٌ** ، وإلىٰ ما هوَ **مذمومٌ** ، وإلىٰ ما هوَ **مباحٌ** .

فالمحمودُ : ما ترتبطُ بهِ مصالحُ الدنيا ؛ كالطِّبِّ والحسابِ ، وذلكَ ينقسمُ إلىٰ ما هوَ فرضُ كفايةٍ ، وإلىٰ ما هوَ فضيلةٌ وليسَ بفريضةٍ .

أمَّا فرضُ الكفايةِ : فهوَ كلُّ علْمٍ لا يُستغنىٰ عنهُ في قِوامِ أمورِ الدنيا ؛ كالطِّبِّ ، إذْ هوَ ضروريٌّ في حاجةِ بقاءِ الأبدانِ ، وكالحسابِ ؛ فإنَّهُ ضروريٌّ في المعاملاتِ وقسمةِ الوصايا والمواريثِ وغيرِها ، وهٰذهِ هيَ العلومُ التي لو خلا البلدُ عمَّنْ يقومُ بها . . حَرِجَ أهلُ البلدِ ، وإذا قامَ بها واحدٌ . . كفىٰ وسقطَ الفرضُ عنِ الآخرينَ .

فلا يُتعجَّبْ مِنْ قولِنا : إنَّ الطبَّ والحسابَ مِنْ فروضِ الكفاياتِ ؛ فإنَّ أصولَ الصناعاتِ أيضاً مِنْ فروضِ الكفاياتِ ؛ كالفلاحةِ والحياكةِ والسياسةِ

بلِ الحجامةِ ؛ فإنَّهُ لو خلا البلدُ عنِ الحجَّامِ . . تسارعَ الهلاكُ إليهِمْ ، وحَرِجوا بتعريضِهِمْ أنفسَهُمْ للهلاكِ ؛ فإنَّ الذي أنزلَ الداءَ أنزلَ الدواءَ وأرشدَ إلى استعمالِهِ ، وأعدَّ الأسبابَ لتعاطيهِ ، فلا يجوزُ التعرُّضُ للهلاكِ بإهمالِهِ .

وأمَّا ما يعدُّ فضيلةً لا فريضةً : فالتعمُّقُ في دقائقِ الحسابِ وحقائقِ الطبِّ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا يُستغنىٰ عنهُ ، ولكنَّهُ يفيدُ زيادةَ قوَّةٍ في القَدْرِ المحتاجِ إليهِ .

وأمَّا المذمومُ منهُ : فعلْمُ السحْرِ والطِّلَّسْماتِ[1] ، وعلمُ الشعبذةِ والتلبيساتِ .

وأمَّا المباحُ منهُ : فالعلمُ بالأشعارِ التي لا سخْفَ فيها ، وتواريخِ الأخبارِ وما يجري مَجراهُ .

وأمَّا العلومُ الشرعيةُ ـ وهيَ المقصودةُ بالبيانِ ـ : فهيَ محمودةٌ كلُّها ، ولكنْ قدْ يلتبسُ بها ما يُظنُّ أنَّها شرعيَّةٌ وتكونُ مذمومةً ؛ فلتقسمْ إلى المحمودةِ والمذمومةِ :

أمَّا المحمودةُ : فلها أصولٌ ، وفروعٌ ، ومقدماتٌ ، ومتمِّماتٌ ، فهيَ أربعةُ أضْربٍ :

---

(١) **الطلسمات** : مفردها الطِّلَّسْم بتخفيف اللام وتشديدها ، وهو اسم للسرِّ المكتوم ، وعلم تأليف القوى السماوية بقوىٰ بعض الأجرام الأرضية ليتألف من ذلك قوة ، ومنه ما يوافق الشرع ومنه ما يخالفه ، ويطلب ذلك في مواطنه .

الضربُ الأول : الأصولُ : وهيَ أربعةٌ : كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وسنَّةُ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وإجماعُ الأمَّةِ ، وآثارُ الصحابةِ .

والإجماعُ أصلٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ يدلُّ على السنَّةِ ، فهوَ أصلٌ في الدرجةِ الثانيةِ ، وكذلكَ الأثرُ ؛ فإنَّهُ يدلُّ أيضاً على السنَّةِ ؛ **لأنَّ الصحابةَ رضوانُ اللهِ عليهِمْ قدْ شاهدوا الوحيَ والتنزيلَ ، وأدركوا بقرائنِ الأحوالِ ما غابَ عنْ غيرِهِمْ عيانُهُ ، وربَّما لا تحيطُ العباراتُ بما أُدركَ بالقرائنِ** ، فمِنْ هـٰذا الوجهِ رأى العلماءُ الاقتداءَ بهِمْ والتمسُّكَ بآثارِهِمْ ، وذلكَ بشرْطٍ مخصوصٍ وعلىٰ وجْهٍ مخصوصٍ عندَ مَنْ رآهُ ، ولا يليقُ بيانهُ بهـٰذا الفنِّ .

الضربُ الثاني : الفروعُ : وهوَ ما فُهِمَ مِنْ هـٰذهِ الأصولِ لا بموجَبِ ألفاظِها ، بلْ بمعانٍ تنبَّهتْ لها العقولُ ، فاتَّسعَ بسببِها الفهمُ ، حتىٰ فُهِمَ مِنَ اللفظِ الملفوظِ بهِ غيرُهُ ، كما فُهِمَ مِنْ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يَقضِي القاضي وهوَ غضبانُ »[1] أنَّهُ لا يقضي إذا كانَ حاقناً أو جائعاً أو متألِّماً بمرضٍ .

وهـٰذا علىٰ ضربينِ :

أحدُهما : يتعلَّقُ بمصالحِ الدنيا ، ويحويهِ فنُّ الفقْهِ ، والمتكفِّلُ بهِ الفقهاءُ ، وهمْ مِنْ علماءِ الدنيا[2] .

---

(١) رواه البخاري (٧١٥٨) ، ومسلم (١٧١٧) .

(٢) مع بيانه رضي الله عنه كما سيأتي في (ص٧٤) أنه ـ أي : الفقه ـ لا يستغني عنه أحد من سالكي طريق الآخرة ألبتة ، فتنبه .

والثاني : ما يتعلَّقُ بمصالحِ الآخرةِ ، وهوَ علْمُ أحوالِ القلبِ وأخلاقِهِ المحمودةِ والمذمومةِ ، وما هوَ مرضيٌّ عندَ اللهِ تعالىٰ وما هوَ مكروهٌ ، وهوَ الذي يحويهِ الشطْرُ الأخيرُ مِنْ هـٰذا الكتابِ ؛ أعني : جملةَ كتابِ « إحياء علوم الدين » ، ومنهُ العلمُ بما يترشَّحُ مِنَ القلبِ على الجوارحِ في عباداتِها وعاداتِها ، وهوَ الذي يحويهِ الشطرُ الأوَّلُ مِنْ هـٰذا الكتابِ .

والضربُ الثالثُ : المقدماتُ : وهوَ الذي يجري منها مَجرى الآلاتِ ؛ كعلمِ اللغةِ والنحوِ ، فإنَّهما آلةٌ لعلمِ كتابِ اللهِ سبحانَهُ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وليسَ اللغةُ والنحوُ مِنَ العلومِ الشرعيَّةِ في أنفسِهما ، ولكنْ لزومُ الخوضِ فيهما بسببِ الشرعِ ؛ إذْ جاءتْ هـٰذهِ الشريعةُ بلغةِ العربِ ، وكلُّ شريعةٍ لا تظهرُ إلا بلغةٍ ، فيصيرُ تعلُّمُ تلكَ اللغةِ آلةً .

ومِنَ الآلاتِ علمُ كتابةِ الخطِّ ، إلا أنَّ ذلكَ ليسَ ضرورياً ؛ إذْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمِّيّاً ، ولو تُصوِّرَ استقلالُ الحفظِ بجميعِ ما يسمعُ . . لاستغنىٰ عَنِ الكتابةِ ، ولكنَّهُ صارَ بحكمِ العجْزِ في الغالبِ ضرورياً .

الضربُ الرابعُ : المتمِّماتُ : وذلكَ في علمِ القرآنِ ، فإنَّه ينقسمُ إلىٰ ما يتعلَّقُ **باللفظِ** ؛ كعلمِ القراءاتِ ومخارجِ الحروفِ ، وإلىٰ ما يتعلَّقُ **بالمعنىٰ** ؛ كالتفسيرِ ، فإنَّ اعتمادَهُ أيضاً على النقلِ ؛ إذِ اللغةُ بمجرَّدِها لا تستقلُّ بهِ ، وإلىٰ ما يتعلَّقُ **بأحكامِهِ** ؛ كمعرفةِ الناسخِ والمنسوخِ ، والعامِّ

والخاصِّ ، والنصِّ والظاهرِ ، وكيفيةِ استعمالِ البعضِ منهُ معَ البعضِ ، وهو العلمُ الذي يسمَّىٰ : أصولَ الفقهِ ، ويتناولُ السنَّةَ أيضاً .

وأمَّا المتمِّماتُ في الآثارِ والأخبارِ . . فالعلمُ بالرجالِ وأساميهِمْ وبأسامي الصحابةِ وصفاتِهِمْ ، والعلمُ بالعدالةِ في الرواةِ ، والعلمُ بأحوالِهِمْ ليتميَّزَ الضعيفُ عَنِ القويِّ ، والعلمُ بأعمارِهِمْ ليتميَّزَ المرسِلُ عنِ المسنِدِ ، وكذلكَ ما يتعلَّقُ بهِ .

فهـٰذهِ هيَ العلومُ الشرعيَّةُ ، وكلُّها محمودةٌ ، بلْ كلُّها مِنْ فروضُ الكفاياتِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فلمَ ألحقتَ الفقهَ بعلمِ الدنيا ، وألحقتَ الفقهاءَ بعلماءِ الدنيا ؟

فاعلمْ : أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أخرجَ آدمَ عليهِ السلامُ مِنَ الترابِ ، وأخرجَ ذريَّتَهُ مِنْ سلالةٍ مِنْ طينٍ ومِنْ ماءٍ دافقٍ ، فأخرجَهُمْ مِنَ الأصلابِ إلى الأرحامِ ، ومنها إلى الدنيا ، ثمَّ إلى القَبْرِ ، ثمَّ إلى العَرْضِ ، ثمَّ إلى الجنَّةِ أو إلى النارِ ، فهـٰذا مبدؤُهُمْ ، وهـٰذهِ غايتُهُمْ ، وهـٰذهِ منازلُهُمْ .

وخلقَ الدنيا زاداً للمعادِ ؛ ليتناولَ منها ما يصلُحُ للتزوُّدِ ، فلوْ تناولوها بالعدلِ . . انقطعَتِ الخصوماتُ وتعطَّلَ الفقهاءُ ، ولكنَّهُمْ تناولوها بالشهواتِ ؛ فتولَّدَتْ منها الخصوماتُ ، فمسَّتِ الحاجةُ إلىٰ سلطانٍ

يسوسُهُمْ ، واحتاجَ السلطانُ إلىٰ قانونٍ يسوسُهُمْ بهِ .

فالفقيهُ : هوَ العالمُ بقانونِ السياسةِ وطريقِ التوسُّطِ بينَ الخلقِ إذا تنازعوا بحكْمِ الشهواتِ ، فكانَ الفقيهُ معلِّمَ السلطانِ ومرشدَهُ إلىٰ طريقِ سياسةِ الخلقِ وضبطِهِمْ ؛ لينتظمَ باستقامتِهِمْ أمورُهُمْ في الدنيا .

ولعمري ؛ إنَّهُ متعلِّقٌ أيضاً بالدينِ ، ولكنْ لا بنفسِهِ ، بلْ بواسطةِ الدنيا ؛ فإنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرةِ ، ولا يتمُّ الدينُ إلا بالدنيا ، والمُلكُ والدينُ توءمانِ ، والدينُ أصلٌ والسلطانُ حارسٌ ، وما لا أصلَ لهُ . . فمهدومٌ ، وما لا حارسَ لهُ . . فضائعٌ ، ولا يتمُّ المُلكُ والضبطُ إلا بالسلطانِ[1] ، وطريقُ الضبْطِ في فصْلِ الخصوماتِ بالفقهِ .

وكما أنَّ سياسةَ الخلْقِ بالسلطنةِ ليسَ مِنْ علمِ الدينِ في الدرجةِ الأولىٰ ، بلْ هوَ معينٌ علىٰ ما لا يتمُّ الدينُ إلا بهِ . . فكذلكَ معرفةُ طريقِ السياسةِ ؛ فمعلومٌ أنَّ الحجَّ لا يتمُّ إلا ببَذْرَقَةٍ[2] تحرسُ من العربِ في الطريقِ ، ولكنَّ الحجَّ شيءٌ وسلوكَ الطريقِ إلى الحجِّ شيءٌ ثانٍ ، والقيامَ بالحراسةِ التي لا يتمُّ الحجُّ إلا بها شيءٌ ثالثٌ ، ومعرفةَ طُرُقِ الحراسةِ وحيلِها وقوانينِها شيءٌ رابعٌ .

---

(١) ويرحم الله الإمام عبد الله بن المبارك إذ يقول في « ديوانه » (ص ٦٦) :

الله يرفع بالسلطان معضلة ... عن ديننا رحمة منه ورضوانا

لولا الأئمة لم تأمن لنا سبلٌ ... وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

(٢) **البذرقة** : الخفارة والحرس ، وهي كلمة فارسية معربة .

وحاصلُ فنِّ الفقهِ : معرفةُ طرقِ السياسةِ والحراسةِ .

ويدلُّ علىٰ ذلكَ ما رُويَ مسنداً : « لا يُفتي الناسَ إلا ثلاثةٌ : أميرٌ أو مأمورٌ أو مُتكَلِّفٌ »[1] .

فالأميرُ هوَ الإمامُ وقدْ كانوا همُ المفتينَ ، والمأمورُ نائبُهُ ، والمتكلِّفُ غيرُهُما ، وهوَ الذي يتقلَّدُ تلكَ العهدةَ مِنْ غيرِ حاجةٍ .

وقدْ كانَ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ يحترزونَ عَنِ الفتوىٰ ، حتَّىٰ كانَ يحيلُ كلُّ واحدٍ منهُمْ علىٰ صاحبِهِ ، وكانوا لا يحترزونَ إذا سُئِلوا عنْ علْمِ القرآنِ وطريقِ الآخرةِ .

وفي بعضِ الرواياتِ بدلَ (المتكلِّفِ) : المرائي[2] ؛ فإنَّ مَنْ تقلَّدَ خطرَ الفتوىٰ وهوَ غيرُ متعيِّنٍ للحاجةِ . . فلا يقصدُ بهِ إلا طلبَ الجاهِ والمالِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : هـٰذا إنِ استقامَ لكَ في أحكامِ الحدودِ والجراحاتِ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ١٣١) حيث قال : (وقد روينا مسنداً) وذكره ، وقد رواه بنحوه أحمد في « المسند » (٦/ ٢٢) ، والطبراني في « الكبير » (١٨/ ٧٦) ، وأوله : « لا يقصُّ إلا أمير . . . » ، وله روايات أخرىٰ .

(٢) رواه ابن ماجه (٣٧٥٣) بهـٰذا اللفظ ، ولكن أوله كما تقدَّم عند أحمد والطبراني ، ونحوه عند أبي داوود (٣٦٦٥) .

والغراماتِ وفصلِ الخصوماتِ . . فلا يستقيمُ فيما يشتملُ عليهِ ربعُ العباداتِ من الصيامِ والصلاةِ ، ولا فيما يشتملُ عليهِ ربعُ العاداتِ مِنَ المعاملاتِ مِنْ بيانِ الحلالِ والحرامِ .

فاعلمْ : أنَّ أقربَ ما يتكلَّمُ الفقيهُ فيهِ من الأعمالِ التي هي أعمالُ الآخرةِ ثلاثةٌ : **الإسلامُ ، والصلاةُ ، والحلالُ والحرامُ** .

فإذا تأمَّلْتَ منتهىٰ نظرِ الفقيهِ . . علمتَ أنَّهُ لا يجاوزُ حدودَ الدنيا إلى الآخرةِ ، وإذا عرفتَ هـٰذا في هـٰذهِ الثلاثةِ . . فهوَ في غيرِها أظهرُ :

أمَّا الإسلامُ : فيتكلَّمُ الفقيهُ فيما يصحُّ منهُ وما يفسدُ ، وفي شروطِهِ ، وليسَ يلتفتُ فيهِ إلا إلى اللسانِ ، وأمَّا القلبُ . . فخارجٌ عَنْ ولايةِ الفقيهِ بعزلِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أربابَ السيوفِ والسلطنةِ عنهُ ؛ حيثُ قالَ : « هلاَّ شَقَقْتَ عنْ قلبِهِ »[1] في الذي قَتَلَ مَنْ تكلَّمَ بكلمةِ الإسلامِ معتذراً بأنَّهُ قالَ ذلكَ مِنْ خوفِ السيفِ ، بلْ يحكُمُ الفقيهُ بصحَّةِ الإسلامِ تحتَ ظلالِ السيوفِ ، مع أنَّهُ يعلمُ أنَّ السيفَ لمْ يكشِفْ لهُ عنْ شبهةٍ ، ولم يرفعْ عن قلبِهِ غشاوةَ الجهلِ والحيرةِ ، ولكنَّهُ مشيرٌ علىٰ صاحبِ السيفِ ؛ فإنَّ السيفَ ممتدٌّ إلىٰ رقبتِهِ ، واليدَ ممتدَّةٌ إلىٰ مالِهِ ، وهـٰذهِ الكلمةُ باللسانِ تعصمُ رقبتَهُ ومالَهُ ما دامتْ لهُ رقبةٌ ومالٌ ، وذلكَ في الدنيا ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أُمرتُ أنْ أقاتلَ الناسَ حتَّىٰ يقولوا : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، فإذا

---

(١) رواه البخاري (٤٢٦٩) ، ومسلم (٩٦) ، قاله لأسامة بن زيد رضي الله عنهما .

قالوها . . فقد عصمُوا منِّي دماءَهُمْ وأموالَهُمْ »[1] ، جعلَ أثرَ ذلكَ في الدمِ والمالِ .

وأمَّا الآخرةُ . . فلا تنفعُ فيها الأقوالُ ، بلْ أنوارُ القلوبِ وأسرارُها وإخلاصُها ، وليسَ ذلكَ مِنْ فنِّ الفقهِ ، وإنْ خاضَ الفقيهُ فيهِ . . كانَ كما لو خاضَ في الكلامِ أو الطبِّ ، وكانَ خارجاً عَنْ فنِّهِ .

وأمَّا الصلاةُ : فالفقيهُ يفتي بالصحَّةِ إذا أتىٰ بصورةِ الأعمالِ مع ظاهرِ الشروطِ ، وإنْ كانَ غافلاً في جميعِ صلاتِهِ مِنْ أوَّلِها إلىٰ آخرِها ، مشغولاً بالتفكُّرِ في حسابِ معاملاتِهِ في السوقِ إلا عندَ التكبيرِ ، وهـٰذهِ الصلاةُ لا تنفعُ في الآخرةِ ؛ كما أنَّ القولَ باللسانِ في الإسلامِ لا ينفعُ ، ولكنَّ الفقيهَ يفتي بالصحَّةِ ؛ أي : إنَّ ما فعلَهُ حصلَ بهِ امتثالُ صيغةِ الأمرِ ، وانقطعَ بهِ عنهُ القتلُ أوِ التعزيرُ ، فأمَّا الخشوعُ وإحضارُ القلبِ الذي هوَ عملُ الآخرةِ ، وبهِ ينفعُ العملُ الظاهرُ . . لا يتعرَّضُ لهُ الفقيهُ ، ولو تعرَّضَ لهُ . . لكانَ خارجاً عنْ فنِّهِ .

وأمَّا الزكاةُ[2] : فالفقيهُ ينظرُ إلىٰ ما يقطعُ مطالبةَ السلطانِ ، حتَّىٰ إنَّهُ إذا امتنعَ عن أدائِها ، فأخذَها السلطانُ قهراً . . حَكَمَ بأنَّهُ برئتْ ذمَّتُهُ[3] .

---

(١) رواه البخاري (٢٥) ، ومسلم (٢١) واللفظ له .

(٢) وهي قرينة الصلاة ، فهي من القسم الثاني الذي أشار إليه المصنف رحمه الله تعالىٰ .

(٣) بأخذه لها منه ، وهـٰذا إذا أخذ السلطان منه مما يجب عليه من الزكاة . « إتحاف » (١٥٧/١) .

وحُكِيَ أنَّ أبا يوسفَ القاضيَ كان يهبُ مالَهُ لزوجتِهِ في آخرِ الحوْلِ ، ويستوهبُ مالَها لإسقاطِ الزكاةِ ، فحُكِيَ ذلكَ لأبي حنيفةَ رحمهُ اللهُ فقالَ : (ذلكَ مِنْ فقهِهِ) ، وصدقَ ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ فِقْهِ الدنيا ، ولكنَّ مضرَّتَهُ في الآخرةِ أعظمُ مِنْ كلِّ جنايةٍ ، ومثلُ هـٰذا العلمِ هوَ الضارُّ .

وأمَّا الحلالُ والحرامُ : فالورعُ عنِ الحرامِ مِنَ الدينِ ، ولكنَّ الورعَ لهُ أربعُ مراتبَ :

الأولىٰ : الورعُ الذي يُشترَطُ في عدالةِ الشهادةِ ؛ وهوَ الذي يخرجُ بعدمِهِ الإنسانُ عنْ أهليَّةِ الشهادةِ والقضاءِ والولايةِ ، وهوَ الاحترازُ عن الحرامِ الظاهرِ .

الثانيةُ : ورعُ الصالحينَ ؛ وهوَ التوقِّي مِنَ الشبهاتِ التي تتقابلُ فيها الاحتمالاتُ[1] ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « دَعْ ما يَرِيبُكَ إلىٰ ما لا يَرِيبُكَ »[2] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الإثمُ حَوازُّ القلوبِ »[3] .

---

(١) أي : هل هو حرام أم حلال . « إتحاف » (١/ ١٥٧) .

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٨) ، والنسائي في « السنن الكبرىٰ » (٥٢٠١) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٤٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٨٩٢) ، وهو موقوف علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، **وحوازُّ القلوب** ـ بتشديد الزاي ـ : جمع حازَّة ، وهي الأمور التي تحزُّ فيها ؛ أي : تؤثر كما يؤثر الحزُّ في الشيء ، وهو ما يخطر فيها من أن تكون معاصي ؛ لفقد الطمأنينة إليها . ورواه شمر : « الإثم حوَّاز القلوب » بتشديد الواو ؛ أي : يحوزها ويتملكها ويغلب عليها ، ويروى : « الإثم حزَّاز القلوب » بزايين ، الأولىٰ مشددة وهي فعّال من الحزّ ، وفي (أ) : (حزَّاز) .

الثالثةُ : ورعُ المتقينَ ؛ وهو تركُ الحلالِ المحضِ الذي يخافُ منهُ أنْ يؤديَ إلى الحرامِ ؛ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يكونُ الرجلُ مِنَ المتقينَ حتَّىٰ يَدَعَ ما لا بأْسَ بهِ مخافةً ممَّا بِهِ بأْسٌ »[1] ، وذلكَ مثلُ التورُّعِ عَنِ التحدُّثِ بأحوالِ الناسِ ؛ خيفةً مِنَ الانجرارِ إلى الغيبةِ ، والتورُّعِ عنْ أكلِ الشهواتِ ؛ خيفةً من هيجانِ النشاطِ والبطرِ المؤدِّي إلىٰ مقارفةِ المحظوراتِ[2] .

الرابعةُ : ورعُ الصدِّيقينَ ؛ وهوَ الإعراضُ عمَّا سوى اللهِ سبحانَهُ ؛ خوفاً مِنْ صرْفِ ساعةٍ من العمرِ إلىٰ ما لا يفيدُ زيادةَ قربٍ عندَ اللهِ تعالىٰ ؛ وإنْ كانَ يعلمُ ويتحقَّقُ أنَّه لا يفضي إلىٰ حرامٍ .

فهٰذهِ الدرجاتُ كلُّها خارجةٌ عَنْ نظرِ الفقيهِ ، إلا الدرجةَ الأولىٰ ، وهوَ ورعُ الشهودِ والقضاةِ وما يقدحُ في العدالةِ ، والقيامُ بذلكَ لا ينفي الإثمَ في الآخرةِ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لوابِصَةَ : « استفْتِ قلبَكَ وإنْ أَفْتَوكَ وَأَفْتَوكَ وَأفْتَوكَ »[3] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥١) ، وابن ماجه (٤٢١٥) .

(٢) والبطر أخف من النشاط ؛ لأنه دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وعدم القيام بحقِّها وصرفها عن وجهها . « إتحاف » (١/ ١٥٩) .

(٣) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٢٢٨) .

والفقيهُ لا يتكلَّمُ في حزازاتِ القلوبِ وكيفيةِ العملِ بها ، بلْ فيما يقدحُ في العدالةِ فقطْ .

فإذاً ؛ جميعُ نظرِ الفقيهِ مرتبطٌ بالدنيا التي بها صلاحُ طريقِ الآخرةِ ، فإنْ تكلَّمَ في الإثمِ وصفاتِ القلبِ وأحكامِ الآخرةِ . . فذلكَ يدخلُ في كلامِهِ علىٰ سبيلِ التطفُّلِ ، كما قدْ يدخلُ في كلامِهِ شيءٌ من الطبِّ والحسابِ والنجومِ وعلمِ الكلامِ ، وكما تدخلُ الحكمةُ في النحوِ والشعرِ .

وقدْ كانَ سفيانُ الثوريُّ وهوَ إمامٌ في علْمِ الظاهرِ يقولُ : (إنَّ طلبَ هـٰذا ليسَ مِنْ زادِ الآخرةِ)[1] ، كيفَ وقدِ اتفقوا علىٰ أنَّ الشرفَ في العلمِ ليُعملَ بهِ ، فكيفَ يُظنُّ أنَّهُ علْمُ اللعانِ والظهارِ ، والسلَمِ والإجارةِ والصرْفِ ؟!

ومنْ تعلَّمَ هـٰذهِ الأمورَ ليتقرَّبَ بتعاطيها إلى اللهِ تعالىٰ . . فهوَ مجنونٌ ، وإنما العملُ بالقلبِ والجوارحِ في الطاعاتِ ، والشرفُ هو علْمُ تلكَ الأعمالِ[2] .

---

(١) ذكره في « قوت القلوب » (١/ ١٣٥) ، وروى ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٩٥٦) عن سفيان الثوري نحوه .

(٢) هـٰذا موطن من المواطن التي أنكر المغاربةُ فيها على المصنف رحمه الله كتابَهُ « الإحياء » حين وصل إليهم ، فقاموا بإحراقه ، وكان ذلك في حياته وبعد مماته ؛ إذ قالوا : كيف يسمي العالمَ بالأحكام الشرعية مجنوناً ؟! « إتحاف » (١/ ١٦١) .
ويجب ألا ننسىٰ أن الذي يقرر ذلك هو واحد من العلماء الفقهاء ، صاحب « البسيط » و« الوسيط » و« الوجيز » و« الخلاصة » وغيرها ، فلا بدَّ من فهم مرادات المؤلف في مثل هـٰذه المواطن ، وذلك لا يخفىٰ عند أدنىٰ تأمّل . =

فإنْ قلتَ : لِمَ سوَّيتَ بينَ الفقهِ والطبِّ ؛ إذِ الطبُّ أيضاً يتعلَّقُ بالدنيا وهوَ صحَّةُ الجسدِ ، وذلكَ يتعلَّقُ بهِ أيضاً صلاحُ الدينِ ، وهـٰذهِ التسويةُ تخالفُ إجماعَ المسلمينَ ؟

فاعلمْ : أنَّ التسويةَ غيرُ لازمةٍ ، بلْ بينَهما فرقٌ ؛ فإنَّ الفقهَ أشرفُ منهُ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : أنَّهُ علْمٌ شرعيٌّ ؛ إذْ هوَ مستفادٌ مِنَ النبوَّةِ ، بخلافِ الطبِّ ؛ فإنَّهُ ليسَ مِنْ علمِ الشرعِ .

والثاني : أنَّهُ لا يستغني عنهُ أحدٌ مِنْ سالكي طريقِ الآخرةِ ألبتةَ ، لا الصحيحُ ولا المريضُ[1] ؛ وأمَّا الطبُّ . . فلا يحتاجُ إليهِ إلا المرضىٰ وهمُ الأقلُّونَ .

والثالثُ : أنَّ علْمَ الفقهِ مجاورٌ لعلمِ طريقِ الآخرةِ ؛ لأنَّهُ نظرٌ في أعمالِ

= وكذلك يجب عند التأمُّل والتبصُّر في كلام الإمام الغزالي . . استكمال الفكرة أو الموضوع الذي يتكلم فيه ، فالاجتزاء والانتقاء وعدم الاستيعاب . . سبب لعدم الفهم المؤدي للإنكار ؛ كما قال المتنبي في « ديوانه » (٤/ ١٢٠) :

وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم

فالإمام الغزالي ترابطت أفكاره ومعانيه ومفاهيمه في ثنايا هـٰذا الكتاب ، من أوله إلىٰ آخره ، **والحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره** .

فالاطلاع الكامل للكتاب بميزان العلم والمنطق الصحيح . . **يدرِكُ معهُ الموفَّقُ أنَّ الاسمَ وافقَ المسمىٰ ، وأنه : (إحياء علوم الدين)** .

(١) انظر « الاقتصاد » (ص ٧٩) .

الجوارحِ ، ومصدرُ الأعمالِ ومنشؤُها صفاتُ القلوبِ ، فالمحمودُ مِنَ الأعمالِ يصدرُ عَنِ الأخلاقِ المحمودةِ المنجيةِ في الآخرةِ ، والمذمومُ يصدُرُ منَ المذمومِ ، وليسَ يخفى اتصالُ الجوارحِ بالقلبِ[1] .

وأمَّا الصحَّةُ والمرضُ . . فمنشؤُهُما صفاتٌ في المزاجِ والأخلاطِ ، وذلكَ مِنْ أوصافِ البدنِ ، لا منْ أوصافِ القلبِ ، فمهما أضيفَ الفقهُ إلى الطبِّ . . ظهرَ شرفُهُ ، وإذا أضيفَ علمُ طريقِ الآخرةِ إلى الفقهِ . . ظهرَ أيضاً شرفُ علمِ طريقِ الآخرةِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فَصِّلْ لي علمَ طريقِ الآخرةِ تفصيلاً يشيرُ إلىٰ تراجمِهِ وإنْ لمْ يمكنِ استقصاءُ تفاصيلِهِ . . **فاعلمْ** أنَّهُ قسمانِ : علمُ مكاشفةٍ وعلمُ معاملةٍ .

فالقسمُ الأوَّلُ : **علمُ المكاشفةِ** وهوَ علمُ الباطنِ ، وذلكَ غايةُ العلومِ[2] ؛ فقدْ قالَ بعضُ العارفينَ : (مَنْ لم يكنْ لهُ نصيبٌ مِنْ هـٰذا العلمِ . . أخافُ عليهِ سوءَ الخاتمةِ ، وأدنىٰ نصيبٍ منهُ التصديقُ بهِ وتسليمُهُ لأهلِهِ)[3] .

---

(١) وعليه المعول في كل صلاح أو فساد ؛ قال صلى الله عليه وسلم كما في « البخاري » (٥٢) : « ألا وإن في الجسد مضغةً : إذا صَلَحَتْ . . صَلَحَ الجسدُ كلُّه ، وإذا فسدت . . فَسَدَ الجسد كلُّهُ ، ألا وهي القلب » .

(٢) وإليه تنتهي همم العارفين ، لا يوجد وراءه مرمىٰ للأنظار . « إتحاف » (١/ ١٦٢) ، وإليه وإلىٰ ترجيحه علىٰ كل الطرق والعلوم انتهى المصنف رحمه الله تعالىٰ في كتابه « المنقذ » .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٧٣) .

وقالَ آخرُ : (منَ كانَ فيهِ خصلتانِ . . لمْ يُفتحْ لهُ بشيءٍ مِنْ هـٰذا العلمِ : بدعةٌ أو كبْرٌ)[1] .

وقيلَ : (مَنْ كانَ محبّاً للدنيا أو مصرّاً علىٰ هوىً . . لم يتحقَّقْ بهِ ، وقدْ يتحقَّقُ بسائرِ العلومِ ، وأقلُّ عقوبةِ مَنْ ينكرُهُ ألاَّ يُرزَقَ منهُ شيئاً)[2] .

ويُنشدُ علىٰ قولِهِ[3] : [من المنسرح]

وَٱرْضَ لِمَنْ غَابَ عَنْكَ غَيْبَتَهُ فَذَاكَ ذَنْبٌ عِقَابُهُ فِيهِ

وهوَ علْمُ الصدِّيقينَ والمقرَّبينَ ؛ أعني : علمَ المكاشفةِ ، فهوَ عبارةٌ عنْ نورٍ يظهرُ في القلبِ عندَ تطهيرِهِ وتزكيتِهِ مِنْ صفاتِهِ المذمومةِ ، وينكشفُ في ذلكَ النورِ أمورٌ كانَ يسمعُ مِنْ قبلُ أسماءَها ، فيتوهَّمُ لها معانيَ مجملةً غيرَ متضحةٍ ؛ فتتضحُ إذْ ذاكَ حتَّىٰ تحصُلَ المعرفةُ الحقيقيةُ بذاتِ اللهِ سبحانَهُ ، وبصفاتِهِ الباقياتِ التامَّاتِ ، وبأفعالِهِ وبحكمتِهِ في خلْقِ الدنيا والآخرةِ ، ووجهِ ترتيبِهِ للآخرةِ على الدنيا ، والمعرفةُ بمعنى النبوَّةِ والنبيِّ ، ومعنى الوحيِ ومعنىٰ لفظِ الملائكةِ والشياطينِ ، وكيفيةُ معاداةِ الشيطانِ للإنسانِ ، وكيفيةُ ظهورِ المَلَكِ للأنبياءِ ، وكيفيةُ وصولِ الوحيِ إليهم ، والمعرفةُ بملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، ومعرفةُ القلبِ ، وكيفيةُ تصادمِ جنودِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٧٣) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٧٣) ، ولذلك قال شيخ الطائفة الإمام الجنيد رحمه الله تعالىٰ : (الإيمان بعلمنا هـٰذا ولاية صغرىٰ) .

(٣) البيت لابن نباتة المصري في «ديوانه» (ص ٥٧٤) .

الملائكةِ والشياطينِ فيهِ ، ومعرفةُ الفرقِ بين لَمَّةِ الملَكِ ولمَّةِ الشيطانِ ، ومعرفةُ الآخرةِ ، والجنَّةِ والنارِ ، وعذابِ القبرِ ، والصراطِ ، والميزانِ ، والحسابِ ، ومعنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ ، ومعنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ ، ومعنىٰ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ والنظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ ، ومعنى القربِ منهُ ، والنزولِ في جوارِهِ ، ومعنىٰ حصولِ السعادةِ بمرافقةِ الملأِ الأعلىٰ ، ومقارنةِ الملائكةِ والنبيِّينَ ، ومعنىٰ تفاوتِ درجاتِ أهلِ الجنانِ حتَّىٰ يرىٰ بعضُهُمْ بعضاً كما يُرَى الكوكبُ الدريُّ في جوِّ السماءِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا يطولُ تفصيلُهُ .

إذْ للناسِ في معاني هـٰذهِ الأمورِ بعدَ التصديقِ بأصولِها مقاماتٌ :

فبعضُهُمْ يَرىٰ أنَّ جميعَ ذلكَ أمثلةٌ ، وأنَّ الذي أعدَّهُ اللهُ لعبادِهِ الصالحينَ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ علىٰ قلبِ بشرٍ ، وأنَّهُ ليسَ معَ الخلْقِ مِنَ الجنَّةِ إلا الصفاتُ والأسماءُ .

وبعضُهُمْ يرىٰ أنَّ بعضَها أمثلةٌ وبعضَها يوافقُ حقائقَها المفهومةَ مِنْ ألفاظِها .

وكذا يَرىٰ بعضُهُمْ أنَّ منتهىٰ معرفةِ اللهِ تعالى الاعترافُ بالعجزِ عن معرفتِهِ .

وبعضُهُمْ يدَّعي أموراً عظيمةً في المعرفةِ باللهِ عزَّ وجلَّ .

وبعضُهُمْ يقولُ : حدُّ معرفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ما انتهىٰ إليهِ اعتقادُ جميعِ العوامِّ ؛ وهوَ أنَّهُ موجودٌ عالمٌ قادرٌ سميعٌ بصيرٌ متكلِّمٌ .

فنعني بعلمِ المكاشفةِ : أنْ يرتفعَ الغطاءُ حتَّىٰ يتضحَ لهُ جليَّةُ الحقِّ في هـٰذهِ الأمورِ اتضاحاً يجري مَجرى العيانِ الذي لا يُشكُّ فيهِ . وهـٰذا ممكنٌ في جوهرِ الإنسانِ لولا أنَّ مرآةَ القلبِ قدْ تراكمَ صدؤُها وخبْثُها بقاذوراتِ الدنيا .

وإنَّما نعني بعلمِ طريقِ الآخرةِ العلمَ بكيفيةِ تصقيلِ هـٰذهِ المرآةِ عنْ هـٰذهِ الخبائثِ التي هيَ الحجابُ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وعنْ معرفةِ صفاتِهِ وأفعالِهِ ، وإنَّما تصفيتُها وتطهيرُها بالكفِّ عن الشهواتِ ، والاقتداءِ بالأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِمْ في جميعِ أحوالِهِمْ ، فبقدْرِ ما ينجلي مِنَ القلبِ ويحاذي بهِ شطرَ الحقِّ . . تتلألأُ فيهِ حقائقُهُ ، ولا سبيلَ إليهِ إلا بالرياضةِ التي يأتي تفصيلُها في موضعِهِ ، وبالعلمِ وبالتعلُّمِ[1] .

وهـٰذهِ هيَ العلومُ التي لا تُسطَرُ في الكتبِ[2] ، ولا يتحدَّثُ بها مَنْ أنعمَ اللهُ عليهِ بشيءٍ منها إلا معَ أهلِهِ ، وهوَ المشارِكُ فيهِ ، علىٰ سبيلِ المذاكرةِ وبطريقِ الإسرارِ .

وهـٰذا العلمُ الخفيُّ هوَ الذي أرادَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بقولِهِ : « إنَّ مِنَ العلمِ كَهَيْئَةِ المكنُونِ لا يَعلمُهُ إلاَّ أهلُ المعرفةِ باللهِ تعالىٰ ، فإذا نطقُوا بهِ . .

---

(١) من مرشدٍ حقٍّ علىٰ حد قوله : ولا بدَّ من شيخ يريك شخوصها . « إتحاف » (١/ ١٦٥) .

(٢) لأنها علوم ذوقية كشفية تدرك عن مشاهدة ، لا عن دليل وبرهان ، ولأن المسطور في كتاب يقع في يد المتأهل وغير المتأهل ، فإن لم يكن أهلاً لمعرفته . . يقع في حيرة عظيمة تترتب عليها مفاسد . « إتحاف » (١/ ١٦٦) .

لم يَجهلْهُ إلاَّ أهلُ الاغترارِ باللهِ عزَّ وجلَّ ، فلا تَحْقِرُوا عالِماً آتاهُ اللهُ تعالىٰ علماً ؛ فإنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ لَمْ يَحْقِرْهُ إذْ آتاهُ إيَّاهُ »[1] .

وأمَّا القسمُ الثاني : وهوَ علمُ المعاملةِ : فهو علمُ أحوالِ القلبِ :

أمَّا ما يُحمدُ منها . . فكالصبرِ ، والشكرِ ، والخوفِ والرجاءِ ، والرضا ، والزهدِ ، والتقوىٰ ، والقناعةِ ، والسخاوةِ ، ومعرفةِ المنَّةِ للهِ تعالىٰ في جميعِ الأحوالِ ، والإحسانِ ، وحسْنِ الظنِّ ، وحسنِ الخلقِ ، وحسنِ المعاشرةِ ، والصدقِ ، والإخلاصِ .

فمعرفةُ حقائقِ هٰذهِ الأحوالِ وحدودِها وأسبابِها التي بها تُكتسبُ ، وثمراتِها وعلاماتِها ، ومعالجةِ ما ضعفَ منها حتَّىٰ يقوَىٰ ، وما زالَ حتَّىٰ يعودَ . . مِنْ علْمِ الآخرةِ .

وأمَّا ما يُذمُّ منها . . فخوفُ الفقرِ ، وسخطُ المقدورِ ، والغلُّ والحقدُ ، والحسدُ ، والغشُّ ، وطلبُ العلوِّ ، وحبُّ الثناءِ ، وحبُّ طولِ البقاءِ في الدنيا للتمتُّعِ ، والكبرُ ، والرياءُ ، والغضبُ ، والأنفةُ ، والعداوةُ والبغضاءُ ، والطمعُ والبخلُ ، والرغبةُ والبذَخُ[2] ، والأَشَرُ والبطَرُ ،

---

(١) بلفظه في « قوت القلوب » (١/ ١٧٥) معلقاً ، وقال الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » (١/ ١٣٥) : (رواه أبو منصور الديلمي في « المسند » « ٨٠٢ » ، وأبو عبد الرحمٰن السلمي في « الأربعين » التي له في التصوف) .

(٢) **البَذَخ** : تطاول وتكبُّر الرجل بكلامه وافتخاره وتعاليه .

وتعظيمُ الأغنياءِ والاستهانةُ بالفقراءِ ، والفخرُ والخيلاءُ ، والتنافسُ والمباهاةُ ، والاستكبارُ عنِ الحقِّ ، والخوضُ فيما لا يعني ، وحبُّ كثرةِ الكلامِ ، والصَّلَفُ[1] ، والتزيُّنُ للخلْقِ ، والمداهنةُ ، والعجْبُ ، والاشتغالُ عنْ عيوبِ النفْسِ بعيوبِ الناسِ ، وزوالُ الحزنِ مِنَ القلبِ ، وخروجُ الخشيةِ منهُ ، وشدَّةُ الانتصارِ للنفسِ إذا نالَها الذلُّ ، وضعفُ الانتصارِ للحقِّ ، واتخاذُ إخوانِ العلانيةِ علىٰ عداوةِ السرِّ ، والأمنُ مِنْ مكْرِ اللهِ سبحانَهُ في سلْبِ ما أعطَىٰ ، والاتكالُ على الطاعةِ ، والمكْرُ والخيانةُ والمخادعةُ ، وطولُ الأملِ ، والقسوةُ والفظاظةُ ، والفرحُ بالدنيا والأسفُ علىٰ فواتِها ، والأنْسُ بالمخلوقينَ والوحشةُ لفراقِهِمْ ، والجفاءُ ، والطيشُ والعجلةُ ، وقلَّةُ الحياءِ ، وقلَّةُ الرحمةِ .

فهٰذهِ وأمثالُها منْ صفاتِ القلبِ مغارسُ الفواحِشِ ، ومنابتُ الأعمالِ المحظورةِ ، وأضدادُها ـ وهيَ الأخلاقُ المحمودةُ ـ منبعُ الطاعاتِ والقرباتِ .

فالعلمُ بحدودِ هٰذهِ الأمورِ وحقائِقِها وأسبابِها وثمراتِها وعلاجِها هوَ علمُ الآخرةِ ، وهوَ فرضُ عينٍ في فتوىٰ علماءِ الآخرةِ ، والمعرِضُ عنها هالكٌ بسطوةِ مَلِكِ الملوكِ في الآخرةِ ؛ كما أنَّ المعرضَ عَنِ الأعمالِ الظاهرةِ هالكٌ بسيفِ سلاطينِ الدنيا بحكْمِ فتوىٰ فقهاءِ الدنيا .

---

(١) **الصَّلَف** : التمدح بما ليس عند الرجل ، وادعاء ما هو دونه تكبراً .

فنظرُ الفقهاءِ في فروضِ العينِ بالإضافةِ إلىٰ صلاحِ الدنيا ؛ وهـٰذا بالإضافةِ إلىٰ صلاحِ الآخرةِ .

ولو سئِلَ فقيهٌ عنْ معنىً مِنْ هـٰذهِ المعاني حتَّىٰ عنِ الإخلاصِ مثلاً ، أوْ عنِ التوكلِ ، أوْ عنْ وجهِ الاحترازِ عنِ الرياءِ . . لتوقَّفَ فيهِ مع أنَّهُ فرضُ عينِهِ الذي في إهمالِهِ هلاكُهُ في الآخرةِ ، ولوْ سألتَهُ عنِ اللعانِ والظهارِ ، والسبقِ والرميِ . . لسردَ عليكَ مجلداتٍ مِنَ التفريعاتِ الدقيقةِ التي تنقضي الدهورُ ولا يُحتاجُ إلىٰ شيءٍ منها ، وإنِ احتيجَ . . لمْ يخلُ البلدُ عمَّنْ يقومُ بها ، ويكفيهِ مؤنةَ التعبِ فيها ، فلا يزالَ يتعبُ فيها ليلاً ونهاراً ، في حفظِهِ ودرسِهِ ويغفُلُ عمَّا هوَ مهمٌّ نفسِهِ في الدينِ ، وإذا روجعَ فيهِ . . قالَ : اشتغلتُ بهِ لأنَّهُ علمُ الدينِ وفرضُ الكفايةِ ، ويلبِّسُ علىٰ نفسِهِ وعلىٰ غيرِهِ في تعلُّلِهِ .

والفَطِنُ يعلمُ أنَّهُ لوْ كانَ غرضُهُ أداءَ حقِّ الأمرِ في فرْضِ الكفايةِ . . لقدَّمَ عليهِ فرضَ العينِ ، بلْ قدَّمَ عليهِ كثيراً مِنْ فروضِ الكفاياتِ ؛ فكمْ مِنْ بلدةٍ ليسَ فيها طبيبٌ إلا مِنْ أهلِ الذمَّةِ ، ولا يجوزُ قبولُ شهادتِهِمْ فيما يتعلَّقُ بالأطباءِ مِنْ أحكامِ الفقهِ ، ثمَّ لا نرىٰ أحداً يشتغلُ بهِ ، ويتهاترونَ علىٰ علمِ الفقهِ لا سيَّما الخلافياتِ والجدلياتِ والبلدُ مشحونٌ مِنَ الفقهاءِ ممَّنْ يشتغلُ بالفتوىٰ والجوابِ عَنِ الوقائعِ !

فليتَ شعري ؛ كيفَ يرخِّصُ فقهاءُ الدينِ في الاشتغالِ بفرضِ كفايةٍ قدْ قامَ بهِ جماعةٌ ، وإهمالِ ما لا قائمَ بهِ ؟!

هل لهـٰذا سببٌ إلا أنَّ الطبَّ ليسَ يتيسَّرُ التوصُّلُ بهِ إلىٰ تولِّي الأوقافِ والوصايا ، وحيازةِ مالِ الأيتامِ ، وتقلُّدِ القضاءِ والحكومةِ ، والتقدُّمِ بهِ على الأقرانِ ، والتسلُّطِ بهِ على الأعداءِ ؟

هيهاتَ هيهاتَ ! قدِ اندرسَ علْمُ الدينِ بتلبيسِ علماءِ السوءِ ، فاللهُ المستعانُ ، وإليهِ اللِّياذُ في أنْ يعيذَنا مِنْ هـٰذا الغرورِ الذي يُسخِطُ الرحمـٰنَ ، ويُضحِكُ الشيطانَ .

وقدْ كانَ أهلُ الورعِ مِنْ علماءِ الظاهرِ مقرِّينَ بفضْلِ علماءِ الباطنِ وأربابِ القلوبِ :

كانَ الإمامُ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ يجلسُ بينَ يدي شيبانَ الراعي كما يقعُدُ الصبيُّ في المكتبِ ، ويسألُهُ كيفَ يفعلُ في كذا وكذا ؛ فيقالُ لهُ : مثلُكَ يسألُ هـٰذا البدويَّ ؟! فيقولُ : (إنَّ هـٰذا وُفِّقَ لما علمناهُ)[1] .

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ ويحيىٰ بنُ معينٍ يختلفانِ إلىٰ معروفٍ الكرخيِّ ولمْ يكنْ في علمِ الظاهرِ بمنزلتِهما ، وكانا يسألانِهِ[2] .

وكيفَ وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لما قيلَ لهُ : كيفَ نفعلُ إذا جاءَنا أمرٌ لمْ نجدْهُ في كتابٍ ولا سنَّةٍ ؟ فقال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٥٨) ، وفي (ب) : (أغفلناهُ) بدل : (علمناهُ) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٥٨) .

« سَلُوا الصَّالحينَ واجعلُوهُ شُورَىٰ بينَهُمْ ؟! »[1] .

ولذلكَ قيلَ : (علماءُ الظاهرِ زينةُ الأرضِ والمُلْكِ ؛ وعلماءُ الباطن زينةُ السماءِ والملكوتِ)[2] .

وقالَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ : (قالَ ليَ السريُّ شيخي : إذا قمتَ مِنْ عندي فمَنْ تجالسُ ؟ قلت : المحاسبيَّ ، فقالَ : نعم ، خُذْ من علمِهِ وأدبِهِ ، ودعْ عنكَ تشقيقَهُ للكلامِ ورَدَّهُ على المتكلمينَ ، ثمَّ لمَّا ولَّيتُ . . سمعتُهُ يقولُ : جعلَكَ اللهُ صاحبَ حديثٍ صوفياً ، ولا جعلَكَ صوفياً صاحبَ حديثٍ)[3] .

أشارَ إلىٰ أنَّ مَنْ حصَّلَ الحديثَ والعلمَ ثم تصوَّفَ . . أفلحَ ، ومَنْ تصوَّفَ قبلَ العلمِ . . خاطرَ بنفسِهِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فلمَ لمْ تُورِدْ في أقسامِ العلومِ الكلامَ والفلسفةَ وتبيِّنْ أنَّهما مذمومانِ أو محمودانِ ؟

فاعلمْ : أنَّ حاصلَ ما يشتملُ عليهِ علمُ الكلامِ مِنَ الأدلَّةِ التي يُنتفعُ بها

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٦١٢) بلفظ : « اجمعوا له العابدين من المؤمنين ، واجعلوه شورىٰ بينكم ، ولا تقضوا فيه برأي واحد » ، ولفظ المصنف عند صاحب « القوت » (١/ ١٥٨) ، وروى الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١١٥٤) نحوه كذلك .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٥٧) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٨) .

فالقرآنُ والأخبارُ مشتملانِ عليهِ ، وما خرجَ عنهما فهوَ إمَّا مجادلةٌ مذمومةٌ ، وهيَ مِنَ البدعِ كما سيأتي بيانُهُ ، وإمَّا مشاغبةٌ بالتعلُّقِ بمناقضاتِ الفِرَقِ لها ، وتطويلٌ بنقلِ المقالاتِ التي أكثرُها تُرَّهاتٌ وهذياناتٌ تزدريها الطباعُ ، وتمجُّها الأسماعُ .

وبعضُها خوضٌ فيما لا يتعلَّقُ بالدينِ ولم يكنْ شيءٌ منهُ مألوفاً في العصرِ الأوَّلِ ، وكانَ الخوضُ فيهِ بالكليَّةِ مِنَ البدعِ ، **ولكنْ تغيَّرَ الآنَ حكمُهُ** ؛ إذْ حدثتِ البدعُ الصارفةُ عنْ مقتضى القرآنِ والسنَّةِ ، ونبغتْ جماعةٌ لفَّقوا لها شبهاً ، ورتَّبوا فيها كلاماً مؤلفاً ، فصارَ ذلكَ المحذورُ بحكمِ الضرورةِ مأذوناً فيهِ ، بلْ صارَ من فروضِ الكفاياتِ ، وهوَ القدْرُ الذي يقابَلُ بهِ المبتدِعُ إذا قصدَ الدعوةَ إلى البدعةِ ، وذلكَ إلىٰ حدٍّ محدودٍ سنذكرُهُ في البابِ الذي يلي هـٰذا .

وأمَّا الفلسفةُ : فليستْ علماً برأسها ، بلْ هيَ أربعةُ أجزاءٍ :

أحدُها : **الهندسةُ والحسابُ** ، وهما مباحانِ كما سبقَ ، ولا يُمنعُ عنهما إلا مَنْ يُخافُ عليهِ أنْ يتجاوزَهما إلىٰ علومٍ مذمومةٍ ؛ فإنَّ أكثرَ الممارسينَ لهما قدْ خرجوا منهما إلى البدعِ ، فيُصانُ الضعيفُ عنهُ لا لعينِهِ ، كما يصانُ الصبيُّ عن شاطىءِ النهرِ خيفةً مِنَ الوقوعِ في النهرِ ، وكما يصانُ حديثُ العهدِ بالإسلامِ عَنْ مخالطةِ الكفارِ خوفاً عليهِ ، مع أنَّ القويَّ لا يُندبُ إلىٰ مخالطتِهِمْ .

والثاني : المنطقُ ، وهوَ بحثٌ عَنْ وجهِ الدليلِ وشروطِهِ ، ووجهِ الحدِّ وشروطِهِ ، وهما داخلانِ في علْمِ الكلامِ .

والثالثُ : الإلـهياتُ ، وهو بحثٌ عَنْ ذاتِ اللهِ سبحانَهُ وصفاتِهِ ، وهوَ أيضاً داخلٌ في الكلامِ .

والفلاسفةُ لم ينفردوا فيها بنمطٍ آخرَ مِنَ العلمِ ، بلِ انفردوا بمذاهبَ بعضُها كفرٌ وبعضُها بدعةٌ ، وكما أنَّ الاعتزالَ ليسَ علماً برأسِهِ ، بلْ أصحابُهُ طائفةٌ مِنَ المتكلِّمينَ وأهلِ البحثِ والنظرِ وانفردوا بمذاهبَ باطلةٍ . . فكذلكَ الفلسفةُ .

والرابعُ : الطبيعياتُ ، وبعضُها مخالفٌ للشرعِ والدينِ الحقِّ ، فهوَ جهلٌ وليسَ بعلمٍ حتَّىٰ يورَدَ في أقسامِ العلومِ ، وبعضُها بحثٌ عن صفاتِ الأجسامِ وخواصِّها وكيفيةِ استحالتِها وتغيُّرِها ، وهو شبيهٌ بنظرِ الأطبَّاءِ ، إلا أنَّ الطبيبَ ينظرُ في بدنِ الإنسانِ على الخصوصِ مِنْ حيثُ يمرضُ ويصحُّ ، وهمْ ينظرونَ في جميعِ الأجسامِ مِنْ حيثُ تتغيَّرُ وتتحرَّكُ ، ولكنْ للطِّبِّ فضْلٌ عليهِ ؛ وهو أنَّهُ محتاجٌ إليه ، وأمَّا علومُهُمْ في الطبيعياتِ . . فلا حاجةَ إليها .

فإذاً ؛ **الكلامُ** صارَ مِنْ جملةِ الصناعاتِ الواجبةِ على الكفايةِ حراسةً لقلوبِ العوامِّ عنْ تخييلاتِ المبتدِعةِ ، وإنَّما حدثَ ذلكَ بحدوثِ البدعِ ، كما حدثتْ حاجةُ الإنسانِ إلى استئجارِ البذْرَقَةِ[1] في طريقِ الحجِّ بحدوثِ

---

(١) **البذرقة** : الخفراء وهم الحراس .

ظلْمِ العربِ وقطعِهِمُ الطريقَ ، ولو تركَ العربُ عداونَهُمْ . . لم يكنِ استئجارُ الحرَّاسِ من شروطِ طريقِ الحجِّ ؛ فكذلكَ لو تركَ المبتدِعُ هذيانَهُ . . لما افتقرَ إلى الزيادةِ علىٰ ما عُهِدَ في عصرِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ .

فليعلمِ المتكلِّمُ حدَّهُ مِنَ الدينِ ، وأنَّ موقعَهُ منهُ موقعُ الحارسِ في طريقِ الحجِّ ، فإذا تجرَّدَ الحارسُ للحراسةِ . . لم يكنْ مِنْ جملةِ الحاجِّ ، والمتكلِّمُ إنْ تجرَّدَ للمناظرةِ والمدافعةِ ولمْ يسلكْ طريقَ الآخرةِ ، ولمْ يشتغلْ بتعهُّدِ القلبِ وصلاحِهِ . . لم يكنْ مِنْ جملةِ علماءِ الدينِ أصلاً ؛ إذْ ليسَ عندَ المتكلِّمِ مِنَ الدينِ إلا العقيدةُ التي يشاركُهُ سائرُ العوامِّ فيها ، وهيَ من جملةِ أعمالِ ظاهرِ القلبِ واللسانِ ، وإنَّما تميَّزَ عنِ العامِّيِّ بصنعةِ المجادلةِ والحراسةِ ، فأمَّا معرفةُ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وجميعِ ما أشرنا إليهِ في علْمِ المكاشفةِ . . فلا يحصُلُ من علْمِ الكلامِ ، بلْ يكادُ يكونُ الكلامُ حجاباً ومانعاً منهُ ، وإنَّما الوصولُ إليهِ بالمجاهدةِ التي جعلَها اللهُ سبحانَهُ مقدِّمَةً للهدايةِ ؛ حيثُ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ .

فإنْ قلتَ : فقدْ رددتَ حدَّ المتكلِّمِ إلىٰ حراسةِ عقيدةِ العوامِّ عَنْ تشويشِ المبتدعةِ ، كما أنَّ حدَّ البذْرَقَةِ حراسةُ أقمشةِ الحجيجِ عنْ نهْبِ العربِ[1] ،

(١) **القماش** هنا : المتاع ونحوه الذي يكون في حيازة الحاجِّ .

ورددتَ حدَّ الفقيهِ إلىٰ حفْظِ القانونِ الذي بهِ يكفُّ السلطانُ شرَّ بعضِ أهلِ العدوانِ عنْ بعضٍ ، وهاتانِ رتبتانِ نازلتانِ بالإضافةِ إلىٰ علْمِ الدينِ ، وعلماءُ الأمَّةِ المشهورونَ بالفضْلِ هُمُ الفقهاءُ والمتكلمونَ ، وهُمْ أفضلُ الخلقِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، فكيفَ تنزلُ درجاتِهِمْ إلىٰ هـٰذهِ المنزلةِ السافلةِ بالإضافةِ إلىٰ علْمِ الدينِ؟

فاعلمْ : أنَّ مَنْ عَرَفَ الحقَّ بالرجالِ . . حارَ في متاهاتِ الضلالِ ، فاعرفِ الحقَّ . . تعرفْ أهلَهُ إنْ كنتَ سالكاً طريقَ الحقِّ .

وإنْ قَنِعْتَ بالتقليدِ والنظرِ إلىٰ ما اشتهرَ مِنْ درجاتِ الفضْلِ بينَ الناسِ . . فلا تغفُلْ عنِ الصحابةِ وعلوِّ منصبِهِمْ ، فقدْ أجمعَ الذينَ عرَّضتَ بذكرِهِمْ علىٰ تقدُّمِهِمْ ، وأنَّهمْ لا يُدركُ في الدينِ شأوُهمْ ولا يُشقُّ غبارُهمْ ، ولمْ يكنْ تقدُّمُهُمْ بالكلامِ والفقهِ ، بلْ بعلْمِ الآخرةِ وسلوكِ طريقِها .

وما فَضَلَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ الناسَ بكثرةِ صلاةٍ ، ولا بكثرةِ صيامٍ ، ولا بكثرةِ روايةٍ وفتوىٰ وكلامٍ ، ولكنْ بشيءٍ وَقَرَ في صدرِهِ ، كما شهدَ لهُ سيِّدُ البشرِ صلواتُ اللهِ عليهِ[1] .

فليكنْ حرصُكَ في طلبِ ذلكَ السرِّ ، فهوَ الجوهرُ النفيسُ والدُّرُّ المكنونُ ، ودعْ عنكَ ما تطابقَ أكثرُ الناسِ علىٰ تفخيمِهِ وتعظيمِهِ لأسبابٍ ودواعٍ يطولُ تفصيلُها ؛ فلقدْ قُبِضَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ آلافٍ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ كلُّهُمْ علماءُ باللهِ ، أثنىٰ عليهِمْ رسولُ اللهِ

---

(١) انظر « نوادر الأصول » (ص٣١) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولمْ يكنْ فيهِمْ أحدٌ يحسنُ صنعةَ الكلامِ ، ولمْ ينصِّبْ نفسَهُ للفتوىٰ مِنهمْ أحدٌ ، إلا بضعةَ عشرَ رجلاً .

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما منهُمْ ، وكانَ إذا سُئِلَ عنِ الفتوىٰ . . يقولُ للسائلِ : (اذهبْ إلىٰ هـٰذا الأميرِ الذي تقلَّدَ أمورَ الناسِ وضعْها في عنقِهِ)[1] ؛ إشارةً إلىٰ أنَّ الفتوىٰ في القضايا والأحكامِ مِنْ توابعِ الولايةِ والسلطنةِ .

ولمَّا ماتَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ . . قالَ ابنُ مسعودٍ : (ماتَ تسعةُ أعشارِ العلمِ ، فقيلَ لهُ : أتقولُ ذلكَ وفينا جِلَّةُ الصحابةِ ؟! فقالَ : لستُ أريدُ علمَ الفتوىٰ والأحكامِ ، إنَّما أريدُ العلمَ باللهِ سبحانَهُ)[2] .

أفترىٰ أنَّهُ أرادَ صنعةَ الكلامِ والجدلِ ؟ فما لكَ لا تحرصُ علىٰ معرفةِ ذلكَ العلمِ الذي ماتَ بموتِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ تسعةُ أعشارِهِ ؟ وهوَ الذي سدَّ بابَ الكلامِ والجدلِ ، وضربَ صَبيغاً بالدِّرَّةِ لمَّا أوردَ عليهِ سؤالاً في تعارضِ آيتينِ مِنْ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهجرَهُ وأمرَ الناسَ بهجرتِهِ[3] .

وأمَّا قولُكَ : (إنَّ المشهورينَ مِنَ العلماءِ هُمُ الفقهاءُ والمتكلمونَ) . .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣١) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٣٩) ، وبنحوه رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٩/ ١٦٣) .

(٣) صبيغ : كان يعنِّتُ الناسَ بالغوامض والسؤالات في متشابه القرآن ، وروىٰ هـٰذا الخبر الدارمي في « سننه » (١٤٦) .

فاعلمْ أنَّ ما يُنالُ بهِ الفضلُ عندَ اللهِ تعالىٰ شيءٌ ، وما يُنالُ بهِ الشهرةُ عندَ الناسِ شيءٌ آخرُ ، فلقدْ كانَ شهرةُ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ بالخلافةِ ، وكان فضلُهُ بالسرِّ الذي وقرَ في صدرِهِ ، وكانَ شهرةُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ بالسياسةِ ، وكانَ فضلُهُ بالعلْمِ باللهِ الذي ماتَ تسعةُ أعشارِهِ بموتِهِ ، وبقصدِهِ[1] التقرُّبَ إلى اللهِ تعالىٰ في ولايتِهِ ، وعدلِهِ وشفقتِهِ علىٰ خلقِهِ ، وهو أمرٌ باطنٌ في سرِّهِ .

وأمَّا سائرُ أفعالِهِ الظاهرةِ . . فيُتصوَّرُ صدورُها مِنْ طالبِ الجاهِ والاسمِ والسمعةِ والراغبِ في الشهرةِ ، فتكونُ الشهرةُ فيما هوَ المهلكُ ، والفضلُ فيما هوَ سرٌّ لا يطَّلعُ عليه أحدٌ .

فالفقهاءُ والمتكلمونَ مثلُ الخلفاءِ والقضاةِ والعلماءِ ، وقدِ انقسموا : فمنهُمْ مَنْ أرادَ اللهَ بعلمِهِ وفتواهُ وذبِّهِ عن سنَّتِهِ[2] ، ولمْ يطلبْ فيهِ رياءً ولا سمعةً ؛ فأولئكَ أهلُ رضوانِ اللهِ تعالىٰ ، وفضلُهُمْ عندَ اللهِ لعملِهِمْ بعلمِهِمْ ، ولإرادتِهِمْ وجهَ اللهِ تعالىٰ بفتواهُمْ ونظرِهِمْ ، فإنَّ كلَّ علْمٍ عملٌ ؛ لأنَّهُ فعلٌ مكتسَبٌ ، وليسَ كلُّ عملٍ علماً[3] ، والطبيبُ يقدِرُ على التقرُّبِ إلى اللهِ تعالىٰ بعلمِهِ ، فيكونُ مثاباً علىٰ علمِهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ عاملٌ للهِ بهِ ،

---

(١) معطوف علىٰ قوله : (بالعلم) .

(٢) أي : طريقة الله عز وجل . « إتحاف » (١/ ١٩٠) .

(٣) لصدور بعض الأعمال خالية عن الإخلاص والنية ، فلا يسمىٰ علماً حقيقة . « إتحاف » (١/ ١٩٠) .

والسلطانُ يتوسَّطُ بينَ الخلقِ للهِ فيكونُ مرضياً عندَ اللهِ سبحانَهُ ومثاباً ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ متكفِّلٌ بعلْمِ الدينِ ، بلْ مِنْ حيثُ هوَ متقلِّدٌ لعملٍ يقصدُ بهِ التقرُّبَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بعلمِهِ .

وأقسامُ ما يُتقرَّبُ بهِ إلى اللهِ تعالىٰ ثلاثةٌ :

عِلْمٌ مجرَّدٌ ، وهوَ علْمُ المكاشفةِ .

وعملٌ مجرَّدٌ ؛ وهوَ كعدْلِ السلطانِ مثلاً وضبطِهِ للناسِ .

ومركَّبٌ من علمٍ وعملٍ ، وهو علمُ طريقِ الآخرةِ ؛ فإنَّ صاحبَهُ مِنَ العلماءِ والعمَّالِ جميعاً .

فانظرْ إلىٰ نفسِك : أتكونُ يومَ القيامةِ في حزْبِ عمَّالِ اللهِ تعالىٰ ، أو علماءِ اللهِ سبحانَهُ ، أو في حزبيهِمَا فتضربُ بسهمِكَ مع كلِّ فريقٍ منهما ؟

فهـٰذا أهمُّ لكَ مِنَ التقليدِ لمجرَّدِ الاشتهارِ : [من البسيط]

خُذْ ما تَراهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ ... فِي طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ ما يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ[1]

علىٰ أنَّا سننقُلُ مِنْ سيرةِ فقهاءِ السلفِ ما تعلَمُ بهِ أنَّ الذينَ انتحلُوا مذاهبَهُمْ ظلمُوهُمْ ، وأنَّهمْ مِنْ أشدِّ خصمائِهِمْ يومَ القيامةِ ؛ فإنَّهمْ ما قصدوا بالعلمِ إلا وجهَ اللهِ تعالىٰ ، وقدْ شُوهدَ مِنْ أحوالِهِمْ ما هوَ منْ علاماتِ علماءِ الآخرةِ كما سيأتي بيانُهُ في بابِ علاماتِ علماءِ الآخرةِ ، وأنَّهمْ ما كانوا متجرِّدينَ لعلْمِ الفقهِ ، بل كانوا مشتغلينَ بعلْمِ القلوبِ ومراقبينَ لها ، ولكنْ

---

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٨١) .

صرفَهُمْ عنِ التدريسِ والتصنيفِ فيهِ ما صرفَ الصحابةَ عنِ التصنيفِ والتدريسِ في الفقهِ معَ أنَّهمْ كانوا فقهاءَ مستقلينَ بعلمِ الفتاوىٰ ، والصوارفُ والدواعي متيقَّنةٌ ، ولا حاجةَ إلىٰ ذكرِها .

ونحنُ الآنَ نوردُ من أحوالِ فقهاءِ الإسلامِ ما تعلمُ بهِ أنَّ ما ذكرناهُ ليسَ طعناً فيهِمْ ، بلْ هوَ طعْنٌ فيمنْ أظهرَ الاقتداءَ بِهِمْ منتحلاً مذهبَهُمْ وهوَ مخالفٌ لهُمْ في علمِهِمْ وسيرتِهِمْ .

فالفقهاءُ الذينَ هُمْ زعماءُ الفقهِ وقادةُ الخلقِ ـ أعني الذين كَثُرَ أتباعُهُمْ في المذاهبِ ـ خمسةٌ : الشافعيُّ ، ومالكٌ ، وأبو حنيفةَ ، وأحمدُ ابنُ حنبلٍ ، وسفيانُ الثوريُّ رحمَهُمُ الله أجمعينَ[1] ، وكلُّ واحدٍ منهُمْ كانَ عابداً ، وزاهداً ، وعالماً بعلومِ الآخرةِ ، وفقيهاً في مصالحِ الخلْقِ في الدنيا ، ومريداً بفقهِهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ .

فهٰذهِ خمسُ خصالٍ ، اتبعَهُمْ فقهاءُ العصرِ مِنْ جملتِها علىٰ خصلةٍ واحدةٍ ، وهيَ التشميرُ والمبالغةُ في تفاريعِ الفقهِ ؛ لأنَّ الخصالَ الأربعَ لا تصلحُ إلا للآخرةِ ، وهٰذهِ الخصلةُ الواحدةُ تصلُحُ للدنيا والآخرةِ إنْ أريدَ بها الآخرةُ ، فلصلاحِها للدنيا تشمَّروا لها ، وادَّعَوا بها مشابهةَ أولئكَ

---

(١) وكان مذهب سفيان باقياً إلى القرن الخامس ، وكان من ينتحله موجوداً في زمان المصنف . . . ، وأما الآن . . فلم يبق من تقيَّدَ مذهبه أو يعتزي إليه . « إتحاف » (١/ ١٩١) .

الأئمةِ ، وهيهاتَ ؛ فلا تقاسُ الملائكةُ بالحدَّادينَ .

فلنوردِ الآنَ مِنْ أحوالِهِمْ ما يدلُّ علىٰ هـٰذهِ الخصالِ الأربعِ ؛ فإنَّ معرفتَهُمْ بالفقهِ ظاهرةٌ :

أمَّا الإمامُ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ

فيدلُّ علىٰ أنَّه كانَ عابداً : ما رُوِيَ أنَّهُ كانَ يقسمُ الليلَ ثلاثةَ أجزاءٍ : ثُلثاً للعلمِ ، وثلثاً للصلاةِ ، وثلثاً للنومِ[١] .

قالَ الربيعُ : (كانَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ يختمُ القرآنَ في رمضانَ ستينَ مرَّةً ، كلُّ ذلكَ في الصلاةِ)[٢] .

وكانَ البويطيُّ أحدُ أصحابِهِ يختمُ القرآنَ في كلِّ يومٍ مرةً[٣] .

وقالَ الحسينُ الكرابيسيُّ : (بتُّ مع الشافعيِّ رحمهُ اللهُ غيرَ ليلةٍ ، فكانَ يصلِّي نحواً مِنْ ثلثِ الليلِ ، فما رأيتُهُ يزيدُ علىٰ خمسينَ آيةً ، فإذا أكثرَ . . فمئةً ، وكانَ لا يمرُّ بآيةِ رحمةٍ إلا سألَ اللهَ تعالىٰ لنفسِهِ ولجميعِ المؤمنينَ ، ولا يمرُّ بآيةِ عذابٍ إلا تعوَّذَ منها وسألَ النجاةَ لنفسِهِ وللمؤمنينَ ؛ وكأنَّما جُمِعَ لهُ الرجاءُ والرهبةُ معاً)[٤] .

---

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٥٧) .
(٢) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٥٨) .
(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ٣٩٣) .
(٤) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٥٨) .

فانظرْ كيفَ يدلُّ اقتصارُهُ علىٰ خمسينَ آيةً علىٰ تبحُّرِهِ في أسرارِ القرآنِ وتدبُّرِهِ فيها .

وقالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : (ما شبعتُ منذُ ستَّ عشرةَ سنةً ؛ لأنَّ الشبعَ يثقلُ البدنَ ، ويقسِّي القلبَ ، ويزيلُ الفطنةَ ، ويجلبُ النومَ ، ويضعفُ صاحبَهُ عنِ العبادةِ)[1] .

فانظرْ إلىٰ حكمتِهِ في ذكرِ آفاتِ الشبعِ ، ثمَّ في جِدِّهِ في العبادةِ ؛ إذْ طرحَ الشبعَ لأجلِهِ ، ورأسُ التعبُّدِ تقليلُ الطعامِ .

وقالَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ : (ما حلفتُ باللهِ تعالىٰ لا صادقاً ولا كاذباً)[2] .

فانظرْ إلىٰ حرمتِهِ وتوقيرِهِ للهِ تعالىٰ ، ودلالةِ ذلكَ علىٰ علمِهِ بجلالِ اللهِ سبحانَهُ .

وسئلَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ عن مسألةٍ ، فسكتَ ، فقيلَ لهُ : ألا تجيبُ رحمَكَ اللهُ ؟! فقالَ : حتَّىٰ أدري : الفضلُ في سكوتي أوْ في الجوابِ[3] .

فانظرْ في مراقبتِهِ لسانَهُ ، معَ أنَّهُ أشدُّ الأعضاءِ تسلُّطاً على الفقهاءِ ، وأعصاها على الضبطِ والقهرِ ، وبهِ يستبينُ أنَّهُ كانَ لا يتكلَّمُ ولا يسكتُ إلا لنيلِ الفضْلِ وطلبِ الثوابِ .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في « آداب الشافعي ومناقبه » (ص١٠٥) .
(٢) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٦٤) .
(٣) ذكره ابن الصلاح في « فتاواه » (١/ ١٣) .

وقالَ أحمدُ بنُ يحيىٰ بنِ الوزيرِ : (خرجَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ يوماً مِنْ سوقِ القناديلِ ، فتبعناهُ ، فإذا رجلٌ يسفِّهُ علىٰ رجلٍ مِنْ أهلِ العلمِ ، فالتفتَ الشافعيُّ إلينا وقالَ : نزِّهوا أسماعَكُمْ عَنِ استماعِ الخنا كما تنزِّهونَ ألسنتَكُمْ عَنِ النطْقِ بهِ ، فإنَّ المستمعَ شريكُ القائلِ ، وإنَّ السفيهَ لينظرُ إلىٰ أخبثِ شيءٍ في وعائِهِ فيحرصُ أنْ يفرغَهُ في أوعيتِكُمْ ، ولوْ رُدَّتْ كلمةُ السفيهِ . . لسعدَ رادُّها كما شقيَ بها قائلُها)[1] .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (كتبَ حكيمٌ إلىٰ حكيمٍ : قدْ أوتيتَ علماً ، فلا تدنِّسْ علمَكَ بظلمةِ الذنوبِ، فتبقَىٰ في الظلمةِ يومَ يسعىٰ أهلُ العلمِ بنورِ علمِهِمْ)[2] .

وأمَّا زهدُهُ رضيَ اللهُ عنهُ : فقدْ قالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : (مَنِ ادَّعىٰ أنَّهُ جمعَ بينَ حبِّ الدنيا وحبِّ خالِقِها في قلبِهِ . . فقدْ كذبَ)[3] .

وقالَ الحميديُّ : (خرجَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ إلى اليمنِ معَ بعضِ الولاةِ ، فانصرفَ إلىٰ مكةَ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ، فضُرِبَ خباؤُهُ في موضعٍ خارجٍ مِنْ مكةَ ، فكانَ الناسُ يأتونَهُ ، فما برحَ مِنْ موضعِهِ ذلكَ حتَّىٰ فرَّقَها كلَّها)[4] .

وخرجَ مِنَ الحمَّامِ مرةً فأعطى الحماميَّ مالاً كثيراً .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ١٢٣) .
(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ١٤٦) .
(٣) انظر « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص ١٦٠) .
(٤) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ١٣٠) ، والبيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٢٠) ، وفيهما : (خارجاً من مكة) .

وسقطَ سَوطُهُ مرةً منْ يدِهِ ، فرفعَهُ إليهِ إنسانٌ ، فأعطاهُ جزاءً عليهِ خمسينَ ديناراً[1] .

وسخاوةُ الشافعيِّ رحمهُ اللهُ أشهرُ مِنْ أنْ تحكَىٰ ، ورأسُ الزهدِ السخاءُ ؛ لأنَّ مَنْ أحبَّ شيئاً أمسكَهُ ولمْ يفارقْهُ ، فلا يفارقُ المالَ إلا مَنْ صغرَتِ الدنيا في عينِهِ ، وهوَ معنى الزهدِ .

ويدلُّ علىٰ قوَّةِ زهدِهِ وشدَّةِ خوفِهِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ واشتغالِ همِّهِ بالآخرةِ ما رُويَ أنَّهُ رَوىٰ سفيانُ بنُ عيينةَ حديثاً مِنَ الرقائقِ ، فغُشِيَ على الشافعيِّ ، فقيلَ لهُ : قدْ ماتَ ، فقالَ : إنْ ماتَ . . فقدْ ماتَ أفضلُ أهلِ زمانِهِ[2] .

وما رَوىٰ عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ البَلَوِيُّ قالَ : كنتُ أنا وعمرُ بنُ نباتةَ جلوساً نتذاكرُ العبَّادَ والزهَّادَ ، فقالَ لي عمرُ : ما رأيتُ أورعَ ولا أفصحَ مِنْ محمدِ بنِ إدريسَ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ ؛ خرجتُ أنا وهوَ والحارثُ بنُ لبيدٍ إلى الصفا ، وكانَ الحارثُ تلميذاً لصالحٍ المرِّيِّ ، فافتتحَ يقرأُ وكانَ حسنَ الصوتِ ، فقرأَ : ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ ، فرأيتُ الشافعيَّ رحمهُ اللهُ وقدْ تغيَّرَ لونُهُ ، واقشعرَّ جلدُهُ ، واضطربَ اضطراباً شديداً ، وخرَّ مغشيّاً عليهِ ، فلمَّا أفاقَ . . جعلَ يقولُ : أعوذُ بكَ مِنْ مقامِ الكاذبينَ ، وإعراضِ الغافلينَ ، اللهمَّ ؛ لكَ خضعتْ قلوبُ العارفينَ ،

---

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٢١) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٩٥) ، والبيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ١٧٥) .

وذلَّتْ هيبةُ المشتاقينَ ، إلـهي ؛ هبْ لي جودَكَ ، وجَلِّلْني بسترِك ، واعفُ عنْ تقصيري بكرمِ وجهِكَ .

قالَ : ثمَّ قمنا فانصرفْنا ، فلمَّا دخلتُ بغدادَ وكانَ هوَ بالعراقِ ، فقعدتُ على الشطِّ أتوضأُ للصلاةِ . . إذْ مرَّ بي رجلٌ فقالَ لي : يا غلامُ ؛ أحسنْ وضوءَكَ أحسنَ اللهُ إليكَ في الدنيا والآخرةِ ، فالتفتُّ فإذا أنا برجلٍ يتبعُهُ جماعةٌ ، فأسرعتُ في وضوئي ، وجعلتُ أقفو أثرَهُ ، فالتفتَ إليَّ فقالَ : هلْ لكَ مِنْ حاجةٍ ؟ فقلتُ : نعمْ ، تعلِّمني ممَّا علَّمَكَ اللهُ شيئاً ، فقالَ لي : اعلمْ أنَّ مَنْ صَدَقَ اللهَ . . نجا ، ومَنْ أشفقَ علىٰ دينِهِ . . سَلِمَ من الردىٰ ، ومن زهدَ في الدنيا . . قرَّتْ عيناهُ بما يرىٰ من ثوابِ اللهِ تعالىٰ غداً ، أفلا أزيدُكَ ؟ قلتُ : بلىٰ ، قالَ : مَنْ كانَ فيه ثلاثُ خصالٍ . . فقدِ استكملَ الإيمانَ : مَنْ أمرَ بالمعروفِ وَأْتَمَرَ ، ونهىٰ عَنِ المنكرِ وانتهىٰ ، وحافظَ علىٰ حدودِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ قالَ : ألا أزيدُكَ ؟ قلتُ : بلىٰ . قالَ : كنْ في الدنيا زاهداً ، وفي الآخرةِ راغباً ، واصدقِ اللهَ تعالىٰ في جميعِ أمورِكَ . . تنجُ معَ الناجينَ ، ثمَّ مضىٰ ، فسألتُ : مَنْ هـٰذا ؟ فقالوا : هوَ الشافعيُّ[1] .

فانظرْ إلىٰ سقوطِهِ مغشياً عليهِ ، ثمَّ إلىٰ وعظِهِ ، كيفَ يدلُّ ذلكَ علىٰ زهدِهِ وغايةِ خوفِهِ ؛ ولا يحصلُ هـٰذا الخوفُ والزهدُ إلا مِنْ معرفةِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّهُ إنَّما يخشى اللهَ مِنْ عبادِهِ العلماءُ .

---

(١) مناقب الشافعي (٢/ ١٧٦ـ١٧٧) . وانظر ما قاله الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١/ ١٩٧) .

ولمْ يستفدِ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ هـٰذا الخوفَ والزهدَ مِنْ علمِ كتابِ السَّلَم والإجارةِ وسائرِ كتبِ الفقهِ ، بلْ مِنْ علومِ الآخرةِ المستخرجةِ مِنَ القرآنِ والأخبارِ ؛ إذْ حِكَمُ الأوَّلينَ والآخرينَ مودعةٌ فيهما .

وأمَّا كونُهُ عالماً بأسرارِ القلبِ وعلومِ الآخرةِ : فتعرفُهُ مِنَ الحِكَمِ المأثورةِ عنه :

رُوِيَ أنَّهُ سُئلَ عنِ الرياءِ ، فقالَ على البديهة : (الرياءُ فتنةٌ عقدَها الهوىٰ حِيالَ أبصارِ قلوبِ العلماءِ ، فنظروا إليها بسوءِ اختيارِ النفوسِ ، فأحبطتْ أعمالَهُمْ)[1] .

وقالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : (إذا أنتَ خفْتَ علىٰ عملِكَ العجبَ . . فاذكرْ رضا مَنْ تطلُبُ ، وفي أيِّ نعيمٍ ترغبُ ، ومِنْ أيِّ عقابٍ ترهبُ ، وأيَّ عافيةٍ تشكرُ ، وأيَّ بلاءٍ تذكرُ ؛ فإنَّكَ إذا فكَّرْتَ في واحدةٍ مِنْ هـٰذهِ الخصالِ . . صَغُرَ في عينِكَ عملُكَ)[2] .

فانظرْ كيفَ ذكرَ حقيقةَ الرياءِ وعلاجَ العجْبِ ، وهما منْ كبائرِ آفاتِ القلبِ .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (مَنْ لمْ يصنْ نفسَهُ . . لمْ ينفعْهُ علمُهُ)[3] .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ٣٣٤) .
(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ٤١٣) .
(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٧/ ٢٨٦) .

وقالَ رحمهُ اللهُ : (مَنْ أطاعَ اللهَ تعالىٰ بالعلمِ . . نفعَهُ سرّه) .

وقالَ : (ما مِنْ أحدٍ إلا لهُ محبٌّ ومبغضٌ ، فإذا كانَ كذلكَ . . فكُنْ معَ أهلِ طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ)[1] .

ورُوِيَ أنَّ عبدَ القاهرِ بنَ عبدِ العزيزِ كانَ رجلاً صالحاً ورعاً ، وكانَ يسألُ الشافعيَّ رضيَ اللهُ عنهُ عنْ مسائلَ في الورعِ ، والشافعيُّ رحمهُ اللهُ يُقبلُ عليهِ لورعِهِ ؛ فقالَ للشافعيِّ يوماً : أيُّما أفضلُ : الصبرُ ، أوِ المحنةُ ، أوِ التمكينُ ؟ فقالَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ : التمكينُ درجةُ الأنبياءِ ، ولا يكونُ التمكينُ إلا بعدَ المحنةِ ، فإذا امتحنَ . . صبرَ ، وإذا صبرَ . . مُكِّنَ ، ألا ترىٰ أنَّ اللهَ تعالى امتحنَ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ثمَّ مكَّنَهُ ، وامتحنَ موسىٰ عليهِ السلامُ ثمَّ مكَّنَهُ ، وامتحنَ أيُّوبَ عليهِ السلامُ ثمَّ مكَّنَهُ ، وامتحنَ سليمانَ عليهِ السلامُ ثمَّ مكَّنَهُ وآتاهُ مُلْكاً ؟ والتمكينُ أفضلُ الدرجاتِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ، وأيوبُ عليهِ السلامُ بعدَ المحنةِ العظيمةِ مُكِّنَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ الآيةَ .

فهٰذا الكلامُ مِنَ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ يدلُّ علىٰ تبحُّرِهِ في أسرارِ القرآنِ ، واطلاعِهِ علىٰ مقاماتِ السائرينَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِنَ الأنبياءِ والأولياءِ ، وكلُّ ذلكَ منْ علومِ الآخرةِ .

وقيلَ للشافعيِّ رحمَهُ اللهُ : (متىٰ يكونُ الرجلُ عالماً ؟ قال : إذا تحقَّقَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ١١٧) .

في علمٍ يعلمُهُ ، وتعرَّضَ لسائرِ العلومِ ، فنظرَ فيما فاتَهُ ، فعندَ ذلكَ يكونُ عالماً ؛ فإنَّهُ قيلَ لجالينوسَ : إنَّكَ تأمرُ للدَّاءِ الواحدِ بالأدويةِ الكثيرةِ المجتمعةِ ، قالَ : إنَّما المقصودُ منها واحدٌ ، وإنَّما يُجعلُ معهُ غيرُهُ ليسكِّنَ حدَّتَهُ ؛ لأنَّ الإفرادَ قاتلٌ) .

فهـٰذا وأمثالُهُ ممَّا لا يُحصىٰ يدلُّ علىٰ عظمِ رتبتِهِ في معرفةِ اللهِ تعالىٰ وعلومِ الآخرةِ .

وأمَّا إرادتُهُ بالفقهِ خاصةً والمناظرةِ فيهِ وجْهَ اللهِ تعالىٰ : فيدلُّ عليهِ ما رُوِيَ عنهُ أنَّهُ قالَ : (وددتُ أنَّ الناسَ انتفعوا بهـٰذا العلمِ وما نُسِبَ إليَّ منهُ شيءٌ)[1] .

فانظرْ كيفَ اطلعَ علىٰ آفةِ العلمِ وطلبِ الاسمِ بهِ ، وكيفَ كانَ منزَّهَ القلبِ عنِ الالتفاتِ إليهِ ، متجرِّدَ النيَّةِ فيهِ لوجهِ اللهِ تعالىٰ .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما ناظرتُ أحداً قطُّ فأحببتُ أنْ يخطىءَ)[2] .

وقالَ : (ما كلَّمْتُ أحداً قطُّ إلا أحببتُ أن يوفَّقَ ويسدَّدَ ويعانَ ويكونَ عليهِ رعايةٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ وحفْظٌ ، وما كلَّمْتُ أحداً قطُّ وأنا أبالي أنْ يبيِّنَ اللهُ الحقَّ علىٰ لساني أو علىٰ لسانِهِ)[3] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/١١٨) .
(٢) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٢١٢٥) ، والبيهقي في « المدخل » (١٧٢) .
(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/١١٨) .

وقالَ : (ما أوردتُ الحقَّ والحجَّةَ علىٰ أحدٍ فقبلَها منِّي إلا هبتُهُ واعتقدتُ مودَّتَهُ ، ولا كابرني على الحقِّ أحدٌ ودافعَ الحجَّةَ إلا سقَطَ مِنْ عيني ورفضتُهُ)[1] .

فهـٰذهِ العلاماتُ هيَ التي تدلُّ علىٰ إرادةِ اللهِ وحدَهُ بالفقهِ والمناظرةِ .

فانظرْ كيفَ تابعَهُ الناسُ مِنْ جملةِ هـٰذهِ الخصالِ الخمسِ علىٰ خصلةٍ واحدةٍ فقط[2] ، ثمَّ كيفَ خالفوهُ فيها أيضاً .

ولهـٰذا قالَ أبو ثورٍ رحمهُ اللهُ : (ما رأيتُ ولا رأى الراؤون مثلَ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ)[3] .

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما صليتُ صلاةً منذُ أربعينَ سنةً إلا وأنا أدعو للشافعيِّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ)[4] .

فانظرْ إلىٰ إنصافِ الداعي ، وإلىٰ درجةِ المدعوِّ لهُ ، وقسْ بهِ الأقرانَ والأمثالَ مِنَ العلماءِ في هـٰذهِ الأعصارِ وما بينَهُمْ من المشاحنةِ والبغضاءِ ؛ لتعلمَ تقصيرَهُمْ في دعوى الاقتداءِ بهؤلاءِ .

ولكثرةِ دعائِهِ لهُ قالَ لهُ ابنُهُ : أيَّ رجلٍ كانَ الشافعيُّ حتَّىٰ تدعوَ لهُ كلَّ

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ١١٧) .
(٢) وهي المبالغة في تفاريع الفقه مع عدم الاهتمام لأمور الآخرة .
(٣) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٦٤) .
(٤) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٥٤) .

هـٰذا الدعاءِ ؟ فقالَ أحمدُ : يا بُنيَّ ؛ كانَ الشافعيُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ كالشمسِ للدنيا ، وكالعافيةِ للناسِ ، فانظرْ هلْ لهـٰذينِ مِنْ خَلَفٍ ؟[1] .

وقالَ أحمدُ : (ما أحدٌ يمسُّ بيدِهِ مِحْبَرَةً إلا وللشافعيِّ رحمهُ اللهُ في عنقِهِ منَّةٌ)[2] .

وقالَ يحيىٰ بنُ سعيدٍ القطانُ : (ما صليتُ صلاةً منذُ أربعينَ سنةً إلا وأنا أدعو فيها للشافعيِّ ؛ لما فتحَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ مِنَ العلمِ ، ووفَّقَهُ للسَّدادِ فيهِ)[3] .

ولنقتصرْ علىٰ هـٰذهِ النبذةِ مِنْ أحوالِهِ ؛ فإنَّ ذلكَ خارجٌ عَنِ الحصرِ ، وأكثرُ هـٰذهِ المناقبِ نقلناهُ من الكتابِ الذي صنَّفَهُ الشيخُ نصرُ بنُ إبراهيمَ المقدسيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ في مناقبِ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنهُ .

وأمَّا الإمامُ مالكٌ رضيَ اللهُ عنهُ

فإنَّهُ كانَ أيضاً متحلِّياً بهـٰذهِ الخصالِ الخمسِ ؛ فإنَّهُ سئلَ : ما تقولُ يا مالكُ في طلبِ العلمِ ؟ فقالَ : حسنٌ جميلٌ ، ولكنِ انظرِ الذي يلزمُكَ مِنْ حينِ تصبحُ إلىٰ حينِ تمسي فالزمْهُ[4] .

---

(١) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٥٤) .
(٢) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٢٥٥) .
(٣) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » (١/ ٢٣٣ـ ٢٣٤) .
(٤) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/ ٣١٩) .

وكانَ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ في تعظيمِ علمِ الدينِ مبالغاً ، حتَّىٰ كانَ إذا أرادَ أن يحدِّثَ . . توضَّأَ ، وجلسَ علىٰ صدرِ فراشِهِ ، وسرَّحَ لحيتَهُ ، واستعملَ الطيبَ ، وتمكَّنَ في الجلوسِ علىٰ وقارٍ وهيبةٍ ، ثمَّ حدَّثَ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : أحبُّ أنْ أعظِّمَ حديثَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] .

وقالَ مالكٌ : (العلمُ نورٌ يجعلُهُ اللهُ حيثُ يشاءُ ، وليسَ بكثرةِ الروايةِ)[2] .

وهٰذا الاحترامُ والتوقيرُ يدلُّ علىٰ قوَّةِ معرفتِهِ بجلالِ اللهِ تعالىٰ .

وأمَّا إرادتُهُ وجْهَ اللهِ تعالىٰ بالعلمِ : فيدلُّ عليهِ قولُهُ : (الجِدالُ في الدينِ ليسَ بشيءٍ)[3] .

ويدلُّ عليهِ قولُ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ : (إنِّي شهدْتُ مالكاً وقدْ سُئِلَ عنْ ثمانٍ وأربعينَ مسألةً ، فقالَ في اثنتينِ وثلاثينَ منها : لا أدري)[4] .

ومَنْ يُرِدْ غيرَ وجهِ اللهِ تعالىٰ بعلمِهِ . . فلا تسمحْ نفسُهُ بأنْ يُقِرَّ علىٰ نفسِهِ بأنَّهُ لا يدري ، ولذلكَ قالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا ذُكِرَ العلماءُ . . فمالكٌ النجمُ الثاقبُ ، وما أحدٌ أمنَّ عليَّ مِنْ مالكٍ)[5] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/ ٣١٨) .
(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/ ٣١٩) .
(٣) رواه البيهقي في « المدخل » (٢٣٨) .
(٤) رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (١/ ٧٣) .
(٥) رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (١/ ٧٤)، وابن فرحون في « الديباج المذهب » (١/ ٦٣) .

ورُوِيَ أنَّ أبا جعفرٍ المنصورَ منعَهُ مِنْ روايةِ الحديثِ في طلاقِ المكرَهِ ، ثمَّ دسَّ عليهِ مَنْ يسألُهُ ، فرَوىٰ علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ : « ليسَ علىٰ مستكرَهٍ طلاقٌ » ، فضربَهُ بالسياطِ ، ولمْ يتركْ روايةَ الحديثِ[1] .

وقالَ مالكٌ رحمهُ اللهُ : (ما كانَ رجلٌ صادقاً في حديثِهِ لا يكذبُ . . إلا مُتِّعَ بعقلِهِ ، ولمْ يصبْهُ معَ الهرمِ آفةٌ ولا خَرَفٌ)[2] .

وأمَّا زهدُهُ في الدنيا : فيدلُّ عليهِ ما رُوِيَ أنَّ المهديَّ أميرَ المؤمنينَ سألَهُ وقالَ لهُ : هلْ لكَ دارٌ ؟ فقالَ : لا ، ولكنْ أحدِّثُكَ : سمعتُ ربيعةَ بنَ أبي عبدِ الرحمٰنِ يقولُ : نسبُ المرءِ دارُهُ[3] .

وسألَهُ الرشيدُ : هلْ لكَ دارٌ ؟ فقالَ : لا ، فأعطاهُ ثلاثةَ آلافِ دينارٍ وقالَ : اشترِ بها داراً ، فأخذَها ولم ينفقْها ، فلمَّا أرادَ الرشيدُ الشخوصَ . . قالَ لمالكٍ رحمهُ اللهُ : ينبغي أنْ تخرُجَ معَنا ؛ فإنِّي عزمْتُ أنْ أحملَ الناسَ على « الموطأ » كما حملَ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ الناسَ على القرآنِ ، فقالَ لهُ : أمَّا حملُ الناسِ على « الموطأ » . . فليسَ إلىٰ ذلكَ سبيلٌ ؛ لأنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ افترقوا بعدَهُ في الأمصارِ فحدَّثوا ، فعندَ أهلِ كلِّ مصرٍ علْمٌ ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ :

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/٣١٦) ، وضاربه هو والي المدينة جعفرُ بن سليمان ، وكان ذلك بخلافة أبي جعفر المنصور .

(٢) رواه ابن عبد البر في « التمهيد » (١/ ٧٠) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص٧٩) .

« اختلافُ أُمَّتِي رحمةٌ »[1] ، وأمَّا الخروجُ معكَ . . فلا سبيلَ إليهِ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المدينةُ خيرٌ لهُمْ لوْ كانُوا يعلمونَ »[2] ، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « المدينةُ تَنْفِي خَبَثَها كما يَنْفي الكيرُ خبثَ الحديدِ »[3] ، وهـٰذهِ دنانيرُكُم كما هيَ ، إنْ شئْتُم . . فخذُوها ، وإنْ شئتُمْ . . فدعُوها[4] .

يعني : أنَّكَ إنما تكلِّفُني مفارقةَ المدينةِ لما اصطنعتَهُ إليَّ ، فلا أُوثِرُ الدنيا علىٰ مدينةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فهكذا كانَ زهدُ مالكٍ في الدنيا .

ولمَّا حُمِلَتْ إليه الأموالُ الكثيرةُ مِنْ أطرافِ الدنيا لانتشارِ علمِهِ وأصحابِهِ . . كانَ يفرِّقُها في وجوهِ الخيرِ ، ودلَّ سخاؤُهُ علىٰ زهدِهِ وقلَّةِ حبِّهِ

---

(١) رواه البيهقي في « المدخل » (١٥٢) بلفظ : « واختلاف أصحابي لكم رحمة » ، قال الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (١١/ ٩١) : (قال الخطابي : وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اختلاف أمتي رحمة » ، فاستصوب عمر ما قاله ـ كلام راجع لأصل الحديث المشروح ـ قال : وقد اعترض علىٰ حديث : « اختلاف أمتي رحمة » ، رجلان ؛ أحدهما مغموص عليه في دينه ، وهو عمرو بن بحر الجاحظ ، والآخر معروف بالسخف والخلاعة ، وهو إسحاق بن إبراهيم الموصلي . . .) .

(٢) رواه البخاري (١٨٧٥) ، ومسلم (١٣٦٣) .

(٣) رواه البخاري (١٨٧١ ، ١٨٨٣) ، ومسلم (١٣٨٢ ، ١٣٨٣) .

(٤) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٦/ ٣٣١) ، ووقع فيها : (المأمون) بدل (الرشيد) ، والمثبت هو الصواب ، والله أعلم .

للدنيا ، وليسَ الزهدُ فقْدَ المالِ ، وإنَّما الزهدُ فراغُ القلبِ عنهُ ؛ فلقدْ كانَ سليمانُ عليهِ السلامُ في مُلكِهِ مِنَ الزهَّادِ .

ويدلُّ على احتقارِهِ للدنيا : ما رُوِيَ عنِ الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ أنَّه قالَ : رأيتُ علىٰ بابِ مالكٍ كُراعاً مِنْ أفراسِ خراسانَ وبغالِ مصرَ ما رأيتُ أحسنَ منهُ ، فقلتُ لمالكٍ رحمهُ اللهُ : ما أحسنَهُ ! فقالَ : هوَ هديةٌ منِّي إليكَ يا أبا عبدِ اللهِ ، فقلتُ : دعْ لنفسِكَ منها دابَّةً تركبُها ، فقالَ : أنا أستحيي مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ أطأَ تربةً فيها نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بحافرِ دابَّةٍ[1] .

فانظرْ إلىٰ سخاوتِهِ إذْ وهبَ جميعَ ذلكَ دفعةً واحدةً ، وإلىٰ توقيرِهِ لتربةِ المدينةِ .

ويدلُّ علىٰ إرادتِهِ بالعلمِ وجْهَ اللهِ تعالىٰ واستحقارِهِ للدنيا : ما رُوِيَ عنهُ أنَّهُ قالَ : دخلتُ علىٰ هارونَ الرشيدِ ، فقالَ لي : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ ينبغي أنْ تختلفَ إلينا حتَّىٰ يسمعَ صبيانُنا منكَ « الموطأَ » ، قالَ : قلتُ : أعزَّ اللهُ أميرَ المؤمنينَ ، إنَّ هـٰذا العلمَ منكُمْ خرجَ ، فإنْ أنتمْ أعززْتُمُوهُ . . عزَّ ، وإنْ أنتُمْ أذللتمُوهُ . . ذلَّ ، والعلمُ يؤتَىٰ ولا يأتي ، فقالَ : صدقتَ ، اخرجوا إلى المسجدِ حتَّىٰ تسمعوا معَ الناسِ[2] .

---

(١) ترتيب المدارك (١/ ٩٣) . **والكراع** : اسم لجميع الخيل والسلاح .

(٢) رواه البيهقي في « المدخل » (٦٨٦) .

وأمَّا الإمامُ أبو حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ

فلقدْ كانَ أيضاً عابداً ، زاهداً ، عارفاً باللهِ تعالىٰ ، خائفاً منهُ ، مريداً وجْهَ اللهِ تعالىٰ بعلمِهِ .

فأمَّا كونُهُ عابداً : فيُعرفُ بما رُوِيَ عنِ ابنِ المباركِ أنَّهُ قالَ : (كانَ أبو حنيفةَ رحمهُ اللهُ لهُ مروءةٌ وكثرةُ صلاةٍ)[1] .

وروىٰ حمَّادُ بنُ أبي سليمانَ أنَّهُ كانَ يحيي الليلَ كلَّهُ[2] .

ورُوِيَ أنَّهُ كانَ يحيي نصفَ الليلِ ، فمرَّ يوماً في طريقٍ ، فأشارَ إليهِ إنسانٌ وهوَ يمشي وقالَ لآخرَ : هٰذا هوَ الذي يحيي الليلَ كلَّهُ ، فلمْ يزلْ بعدَ ذلكَ يحيي الليلَ كلَّهُ ؛ وقالَ : أنا أستحيي مِنَ اللهِ سبحانَهُ أنْ أوصفَ بما ليسَ فيَّ مِنْ عبادتِهِ[3] .

وأمَّا زهدُهُ : فقدْ رُوِيَ عَنِ الربيعِ بنِ عاصمٍ قالَ : (أرسلني يزيدُ بنُ عمرَ بنِ هبيرةَ ، فقدمتُ بأبي حنيفةَ عليهِ ، فأرادَهُ علىٰ بيتِ المالِ ، فأَبَىٰ ، فضربَهُ عشرينَ سَوطاً)[4] .

فانظرْ كيفَ هربَ عَنِ الولايةِ واحتملَ العذابَ .

---

(١) تاريخ بغداد (١٣/ ٣٥٢) من قول سفيان بن عيينة ، وروىٰ معه أنه كان يسمى الوَتِد لكثرة صلاته .

(٢) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص١٩٤) .

(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٣٥٣) .

(٤) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص٢٥٥) .

قالَ الحكمُ بنُ هشامٍ الثقفيُّ : (حدثتُ بالشامِ عنْ أبي حنيفةَ أنَّهُ كانَ مِنْ أعظمِ الناسِ أمانةً ، وأرادَهُ السلطانُ علىٰ أنْ يتولَّىٰ مفاتيحَ خزائِنِهِ أو يضربَ ظهرَهُ ، فاختارَ عذابَهُمْ علىٰ عذابِ اللهِ تعالىٰ)[1] .

ورُوِيَ أنَّهُ ذُكِرَ أبو حنيفةَ عندَ ابنِ المباركِ فقالَ : (أتذكرونَ رجلاً عُرِضَتْ عليهِ الدنيا بحذافيرِها ففرَّ منها ؟)[2] .

ورُوِيَ عنْ محمدِ بنِ شجاعٍ ، عنْ بعضِ أصحابِهِ[3] : (أنَّهُ قيلَ لأبي حنيفةَ : قدْ أمرَ لكَ أبو جعفرٍ أميرُ المؤمنينَ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ، قالَ : فما رضيَ أبو حنيفةَ ، فلمَّا كانَ اليومُ الذي توقَّعَ أنْ يُؤتىٰ بالمالِ فيهِ صلَّى الصبْحَ ثم تغشَّىٰ بثوبِهِ فلمْ يتكلَّمْ ، فجاءَ رسولُ الحسنِ بنِ قَحْطَبةَ بالمالِ ، فدخلَ عليهِ فلمْ يكلمْهُ ، فقالَ مَنْ حضرَ : ما يكلِّمُنا إلا بالكلمةِ بعدَ الكلمةِ ـ أي : هـٰذهِ عادتُهُ ـ فقالَ : ضعوا المالَ في هـٰذا الجرابِ في زاويةِ البيتِ ، ثم أوصىٰ أبو حنيفةَ بعدَ ذلكَ بمتاعِ بيتِهِ ؛ فقالَ لابنِهِ : إذا أنا متُّ ودفنتموني . . فخذْ هـٰذهِ البَدْرَةَ[4] واذهبْ بها إلى الحسنِ بنِ قحطبةَ فقلْ لهُ : هـٰذهِ وديعتُكَ التي أودعتَها أبا حنيفةَ . قالَ ابنُهُ : ففعلتُ ذلكَ ، فقالَ الحسنُ : رحمةُ اللهِ

---

(١) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص٢٥٥) .

(٢) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص٣٢١) .

(٣) والمراد ببعض أصحابه هنا هو الحسن بن عمارة أبو محمد الكوفي . « إتحاف » (١/ ٢١١) .

(٤) **البدرة** : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار .

علىٰ أبيكَ ، لقدْ كان شحيحاً علىٰ دينِهِ)[1] .

ورُوِيَ أنَّهُ دُعِيَ إلىٰ ولايةِ القضاءِ فقالَ : أنا لا أصلحُ لهُ ، فقيلَ لهُ : لِمَ ؟ فقالَ : إنْ كنتُ صادقاً . . فلا أصلحُ لهُ ، وإنْ كنتُ كاذباً . . فالكاذبُ لا يصلحُ للقضاءِ[2] .

وأمَّا علمُهُ بأمورِ الآخرةِ وطريقِ الدينِ ومعرفتُهُ باللهِ عزَّ وجلَّ : فيدلُّ عليهِ شدَّةُ خوفِهِ مِنَ اللهِ تعالىٰ وزهدِهِ في الدنيا ، وقدْ قالَ ابنُ جريجٍ : (قدْ بلغَني عَنْ كوفيِّكُمْ هـٰذا النعمانِ بنِ ثابتٍ أنَّهُ شديدُ الخوفِ للهِ تعالىٰ)[3] .

وقالَ شريكٌ النخعيُّ : (كانَ أبو حنيفةَ طويلَ الصمْتِ ، دائمَ الفكرِ ، قليلَ المجادلةِ للناسِ)[4] .

فهـٰذا مِنْ أوضحِ الأماراتِ على العلمِ الباطنِ ، والاشتغالِ بمهمَّاتِ الدينِ ، فمَنْ أوتيَ الصمتَ والزهدَ . . فقدْ أوتيَ العلمَ كلَّهُ .

فهـٰذهِ نبذةٌ مِنْ أحوالِ الأئمةِ الثلاثةِ .

---

(١) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص٣٢١) ، **وشحيحاً علىٰ دينه** : متمسكاً به غير مفرط .

(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٣/ ٣٢٩) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص ٢٠٩) .

(٤) رواه ابن عبد البر في « الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء » (ص٢٠١) .

وأمَّا الإمامُ أحمدُ ابنُ حنبلٍ وسفيانُ رحمهُمَا اللهُ تعالىٰ

فأتباعُهُما أقلُّ مِنْ أتباعِ هؤلاءِ ، وسفيانُ أقلُّ أتباعاً مِنْ أحمدَ ، ولكنِ اشتهارُهُما بالورعِ والزهدِ أظهرُ ، وجميعُ هـٰذا الكتابِ مشحونٌ بحكاياتِ أفعالِهما وأقوالِهما ، فلا حاجةَ إلى التفصيلِ الآنَ .

فانظرْ الآنَ في سيَرِ هؤلاءِ الأئمةِ ، وتأمَّلْ أنَّ هـٰذهِ الأحوالَ والأقوالَ والأعمالَ في الإعراضِ عَنِ الدنيا ، والتجرُّدِ للهِ عزَّ وجلَّ : هلْ يُثمرُها مجرَّدُ العلمِ بفروعِ الفقهِ ؛ مِنْ معرفةِ السَّلَمِ والإجارةِ والظِّهارِ والإيلاءِ واللِّعانِ ، أو يثمرُها علمٌ آخرُ أعلىٰ وأشرفُ منهُ ؟

وانظرْ إلى الذينَ ادَّعَوا الاقتداءَ بهؤلاءِ : أصدقوا في دعواهُمْ أمْ لا ؟ واللهُ أعلمُ .

البَابُ الثَّالِثُ

فيما يَعُدّه العامّة من العلوم المحمودة وليس منها وفيه بيان الوجه الّذي به يكون بعض العلوم مذمومًا وبيان تبديل أسامي العلوم، وهو الفقه والعلم والتّوحيد والتّذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشّرعيّة والقدر المذموم منها

بيان علّة ذمّ العِلم المذموم

لعلَّكَ تقولُ : العلمُ هوَ معرفةُ الشيءِ علىٰ ما هوَ بهِ ، وهوَ مِنْ صفاتِ اللهِ سبحانَهُ ، فكيفَ يكونُ الشيءُ علماً ويكونُ ـ مع كونِهِ علماً ـ مذموماً ؟

فاعلمْ : أنَّ العلمَ لا يُذمُّ لعينِهِ ، وإنَّما يُذمُّ في حقِّ العبادِ لأحدِ أسبابٍ ثلاثةٍ :

الأولُ : أنْ يكونَ مؤدِّياً إلىٰ ضررٍ ما ؛ إمَّا بصاحبِهِ ، وإمَّا بغيرِهِ ، كما يُذَمُّ علمُ السحْرِ والطِّلَّسْماتِ ، وهوَ حقٌّ[1] ؛ إذْ شهِدَ القرآنُ لهُ ، وأنَّهُ سببٌ يتوصَّلُ بهِ إلى التفرقةِ بينَ الزوجينِ .

وقدْ سُحِرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومرضَ بسببِهِ ، حتَّىٰ أخبرَهُ

---

(١) أي : ثابت وجوده ولا يمكن إنكاره ، وإن اختلفوا في ماهيته ، وليس المراد الحقَّ الذي هو ضد الباطل .

جبريلُ عليهِ السلامُ بذلكَ ، وأُخرجَ السحرُ مِنْ تحتِ حَجَرٍ في قعْرِ بئرٍ[1] .

وهوَ نوعٌ يستفادُ مِنَ العلْمِ بخواصِّ الجواهِرِ ، وبأمورٍ حسابيَّةٍ في مطالِعِ النجومِ ، فَيُتَّخَذُ مِنْ تلكَ الجواهرِ هيْكَلٌ علىٰ صورةِ الشخصِ المسحورِ ، ويُترصَّدُ لهُ في وقْتٍ مخصوصٍ في المطالعِ ، ويُقْرَنُ بهِ كلماتٌ يُتلفَّظُ بها مِنَ الكفرِ والفحْشِ المخالفِ للشرعِ ، ويُتوصَّلُ بسببِها إلى الاستعانةِ بالشياطينِ ، ويحصُلُ مِنْ مجموعِ ذلكَ - بحكمِ إجراءِ اللهِ تعالى العادةَ - أحوالٌ غريبةٌ في الشخصِ المسحورِ .

ومعرفةُ هـٰذهِ الأسبابِ مِنْ حيثُ إنَّها معرفةٌ ليستْ مذمومةً ، ولكنَّها ليستْ تصلُحُ إلا للإضرارِ بالخلْقِ ، والوسيلةُ إلى الشرِّ شرٌّ ؛ فكانَ ذلكَ هوَ السببَ في كونِهِ مذموماً ، بلْ مَنِ اتبعَ ولياً من أولياءِ اللهِ ليقتلَهُ وقدِ اختفىٰ منهُ في موضعٍ حريزٍ[2] إذا سألَ الظالمُ عَنْ محلِّهِ.. لم يجزْ تنبيهُهُ عليهِ ، بلْ وجبَ الكذبُ فيهِ ، وذكرُ موضعِهِ إرشادٌ وإفادةُ علمٍ بالشيءِ علىٰ ما هوَ عليهِ ، ولكنَّهُ مذمومٌ ؛ لأدائِهِ إلى الضررِ .

❁ ❁ ❁

السببُ الثاني : أنْ يكونَ مضرّاً بصاحبِهِ في غالبِ الأمرِ ؛ كعلمِ النجومِ ؛ فإنَّهُ في نفسِهِ غيرُ مذمومٍ لذاتِهِ ، إذْ هوَ قسمانِ :

---

(١) رواه البخاري (٣١٧٥) ، ومسلم (٢١٨٩) .

(٢) حريز : منيع .

قسمٌ حسابيٌّ : وقدْ نطقَ القرآنُ بأنَّ مسيرَ الشمسِ والقمرِ محسوبٌ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ ، وقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ .

والثاني الأحكامُ : وحاصلُهُ يرجعُ إلى الاستدلالِ على الحوادثِ بالأسبابِ ، وهوَ يضاهي استدلالَ الطبيبِ بالنبْضِ علىٰ ما سيحدثُ مِنَ المرضِ ، وهو معرفةٌ بمجاري سنَّةِ اللهِ تعالىٰ وعادتِهِ في خلقِهِ ، ولكنْ ذمَّهُ الشرعُ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ذُكِرَ القَدَرُ . . فأمسكُوا ، وإذا ذُكِرَتِ النجُومُ . . فأمسكُوا ، وإذا ذُكِرَ أصحابي . . فأمسكُوا »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أخافُ علىٰ أُمَّتي بعدي ثلاثاً : حَيْفُ الأئِمَّةِ ، وإيمانٌ بالنجُومِ ، وتكذيبٌ بالقَدَرِ »[2] .

وقالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (تعلَّموا مِنَ النجومِ ما تهتدونَ بهِ في البرِّ والبحرِ ثمَّ أمسكُوا)[3] .

وإنَّما زُجِرَ عنهُ مِنْ ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : أنَّهُ مضرٌّ بأكثرِ الخلقِ ؛ فإنَّهُ إذا ألقيَ إليهِمْ أنَّ هٰذهِ الآثارَ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢/ ٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٠٨) .
(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٤٨٢) .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦١٦٢) .

تحدثُ عقيبَ سيرِ الكواكبِ . . وقعَ في نفوسِهِمْ أنَّ الكواكبَ هيَ المؤثرةُ ، وأنَّها الآلهةُ المدبِّرةُ ؛ لأنَّها جواهرُ شريفةٌ سماويةٌ ، يعظُمُ وقعُها في القلوبِ ، فيبقَى القلبُ ملتفتاً إليها ، ويرى الخيرَ والشرَّ مرجوّاً ومحذوراً مِنْ جهتِها ، وينمحي ذكرُ اللهِ تعالىٰ عَنِ القلبِ ، فإنَّ الضعيفَ يقصُرُ نظرُهُ على الوسائطِ ، والعالِمُ الراسخُ هو الذي يطَّلِعُ علىٰ أنَّ الشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٌ بأمرِهِ سبحانَهُ وتعالىٰ .

ومثالُ نظرِ الضعيفِ إلىٰ حصولِ ضوءِ الشمسِ عَقيبَ طلوعِ الشمسِ مثالُ النملةِ لو خُلِقَ لها عقْلٌ وكانتْ علىٰ سطْحِ قرطاسٍ وهيَ تنظرُ إلىٰ سوادِ الخطِّ يتجدَّدُ ، فتعتقدُ أنَّهُ فعلُ القلمِ ، ولا يترقَّىٰ نظرُها إلىٰ مشاهدةِ الإصبعِ ، ثمَّ منها إلى اليدِ ، ثمَّ منها إلى الإرادةِ المحرِّكَةِ لليدِ ، ثمَّ منها إلى الكاتبِ القادرِ المريدِ ، ثمَّ منه إلىٰ خالقِ اليدِ والقدرةِ والإرادةِ ، فأكثرُ نظرِ الخلْقِ مقصورٌ على الأسبابِ القريبةِ السافلةِ ، مقطوعٌ عنِ الترقي إلىٰ مسبِّبِ الأسبابِ . هٰذا أحدُ أسبابِ النهيِ عنِ النجومِ .

وثانيها : أنَّ أحكامَ النجومِ تخمينٌ محْضٌ ، ليسَ يُدرَكُ في حقِّ آحادِ الأشخاصِ لا يقيناً ولا ظنّاً ، فالحكمُ بهِ حكمٌ بجهلٍ ، فيكونُ ذمُّهُ علىٰ هٰذا مِنْ حيثُ إنَّهُ جهْلٌ ، لا مِنْ حيثُ إنَّهُ علْمٌ .

ولقدْ كانَ ذلكَ معجزةً لإدريسَ عليهِ السلامُ فيما يُحكىٰ[1] ، وقدِ اندرسَ

---

(١) وحملوا عليه الحديث الذي رواه مسلم في « صحيحه » (٥٣٧) : « كان نبي من الأنبياء =

ذلكَ العلمُ وانمحقَ ، وما يتفقُ مِنْ إصابةِ المنجِّمِ علىٰ ندورٍ . . فهوَ اتفاقٌ ؛ لأنَّهُ قدْ يطَّلِعُ علىٰ بعضِ الأسبابِ ولا يحصلُ المسبَّبُ عقيبَها إلا بعدَ شروطٍ كثيرةٍ ليسَ في قدرةِ البشرِ الاطلاعُ علىٰ حقائِقِها ، فإنِ اتفقَ أنْ قدَّرَ اللهُ تعالىٰ بقيَّةَ الأسبابِ . . وقعتِ الإصابةُ ، وإنْ لم يقدِّرْ . . أخطأَ .

ويكونُ ذلكَ كتخمينِ الإنسانِ في أنَّ السماءَ تمطِرُ اليومَ مهما رأى الغيمَ يجتمعُ وينبعثُ مِنَ الجبالِ ، فيتحرَّكُ ظنُّهُ بذلكَ ، وربَّما يَحمى النهارُ بالشمسِ ويتبدَّدُ الغيمُ ، وربَّما يكونُ بخلافِهِ ، ومجرَّدُ الغيمِ ليسَ كافياً في مجيءِ المطرِ ، وبقيَّةُ الأسبابِ لا تُدْرَىٰ ، وكذلكَ تخمينُ الملاّحِ أنَّ السفينةَ تسلَمُ اعتماداً علىٰ ما ألفَهُ مِنَ العادةِ في الرياحِ ، ولتلكَ الرياحِ أسبابٌ خفيَّةٌ هوَ لا يطلعُ عليها ، فتارةً يصيبُ في تخمينِهِ ، وتارةً يخطىءُ ، ولهـٰذهِ العلَّةِ يُمنعُ القويُّ[1] عنِ النجومِ أيضاً .

وثالثُها : أنَّهُ لا فائدةَ فيهِ ، فأقلُّ أحوالِهِ أنَّهُ خوْضٌ في فضولٍ لا يغني ، وتضييعُ العمرِ الذي هوَ أنفسُ بضاعةِ الإنسانِ بغيرِ فائدةٍ غايةُ الخسرانِ ؛ فقدْ مرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ برجلٍ والناسُ مجتمعونَ عليهِ ، فقالَ : « ما هـٰذا ؟ » فقالوا : رجلٌ علاّمةٌ ، فقالَ : « بماذا ؟ » قالوا : بالشعرِ

= يخط ، فمن وافق خطَّه . . فذاك » ، قيل : هو إدريس عليه السلام ، وقيل : المراد بالخط علم النجوم أو علم الرمل . انظر « فيض القدير » (٤/ ٥٤٥) .

(١) أي : في إيمانه واعتقاده .

وأنسابِ العربِ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « عِلمٌ لا ينفعُ ، وجهلٌ لا يضُرُّ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّما العلمُ آيةٌ محكمةٌ ، أو سنَّةٌ قائمةٌ ، أو فريضةٌ عادلةٌ »[2] .

فإذاً ؛ الخوضُ في النجومِ وما يشبهُهُ اقتحامُ خطَرٍ ، وخوضٌ في جهالةٍ مِنْ غيرِ فائدةٍ، فإنَّ ما قُدِّرَ كائنٌ، والاحترازُ منهُ غيرُ ممكِنٍ ، بخلافِ الطبِّ؛ فإنَّ الحاجةَ ماسَّةٌ إليهِ ، وأكثرُ أدلتِهِ ممَّا يُطَّلَعُ عليهِ ، وبخلافِ التعبيرِ وإنْ كانَ تخميناً ؛ لأنَّهُ جزْءٌ من ستةٍ وأربعينَ جزءاً مِنَ النبوةِ ، ولا خطرَ فيهِ[3] .

السببُ الثالثُ : الخوضُ في علمٍ لا يستقلُّ الخائضُ فيهِ بهِ ، فإنَّهُ مذمومٌ في حقِّهِ ؛ كتعلُّمِ دقيقِ العلومِ قبلَ جليلِهَا ، وخفيِّها قبل جليِّها ، وكالبحثِ عنِ الأسرارِ الإلهيَّةِ ؛ إذْ تطلَّعَ الفلاسفةُ والمتكلمونَ إليها ولمْ يستقلُّوا بها ، ولا يستقلُّ بها وبالوقوفِ علىٰ طُرُقِ بعضِها إلا الأنبياءُ والأولياءُ ، فيجبُ كفُّ الناسِ عنِ البحثِ عنها ، وردُّهم إلىٰ ما نطَقَ الشرعُ بهِ ، ففي ذلكَ مَقْنَعٌ

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٣٨٥) .

(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٣٨٤ ، ١٣٨٦) ، وأصله عند أبي داوود (٢٨٨٥) ، وابن ماجه (٥٤) .

(٣) لما رواه البخاري (٦٩٨٣) ومسلم (٢٢٦٤) : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

للموفَّقِ ، وكمْ مِنْ شخصٍ خاضَ في العلومِ واستضرَّ بذلكَ ! ولوْ لمْ يخضْ فيها . . لكانَ حالُهُ أحسنَ في الدينِ ممَّا صارَ إليهِ .

ولا يُنكرُ كونُ العلمِ ضارّاً لبعضِ الناسِ ؛ كما يضرُّ لحمُ الطيرِ وأنواعُ الحلاواتِ اللطيفةِ بالصبيِّ الرضيعِ ، بلْ ربَّ شخصٍ ينفعُهُ الجهلُ ببعضِ الأمورِ .

فلقدْ حُكِيَ أنَّ بعضَ الناسِ شكا إلىٰ طبيبٍ عُقْمَ امرأتِهِ ، وأنَّها لا تلدُ ، فجسَّ الطبيبُ نبضَها وقالَ لها : لا حاجةَ لكِ إلىٰ دواءِ الولادةِ ؛ فإنَّكِ ستموتينَ إلىٰ أربعينَ يوماً ، وقدْ دلَّ النبضُ عليهِ ، فاستشعرتِ المرأةُ خوفاً عظيماً ، وتنغَّصَ عليها عيشُها ؛ وأخرجتْ أموالَها وفرقتْها ، وأوصَتْ ، وبقيَتْ لا تأكلُ ولا تشربُ حتى انقضتِ المدَّةُ ، فلمْ تمتْ ، فجاءَ زوجُها إلى الطبيبِ وقالَ لهُ : لمْ تمتْ ، فقالَ الطبيبُ : علمتُ ذلكَ ، فجامعْها الآنَ ، فإنَّها تلدُ ، فقالَ : كيفَ ذلكَ ؟ قال : رأيتُها سمينةً وقدِ انعقدَ الشحْمُ علىٰ فَمِ رَحِمِها ، فعلمتُ أنَّها لا تهزلُ إلا بخوفِ الموتِ ، فخوَّفْتُها بذلكَ حتَّىٰ هُزِلَتْ ، وزالَ المانعُ مِنَ الولادةِ .

فهـٰذا ينبِّهُكَ على استشعارِ خطرِ بعضِ العلومِ ، ويُفهمُكَ معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعوذُ باللهِ مِنْ علمٍ لا ينفعُ »[1] .

فاعتبرْ بهـٰذهِ الحكايةِ ، ولا تكنْ بحّاثاً عن علومٍ ذمَّها الشرعُ وزجرَ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢) .

عنها ، ولازمِ الاقتداءَ بالصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، واقتصرْ على اتباعِ السنَّةِ ، فالسلامةُ في الاتباعِ ، والخطرُ في البحثِ والاستقلالِ ، ولا تكثرِ التبجُّحَ برأيكَ ومعقولِكَ ، ودليلِكَ وبرهانِكَ ، وزعمِكَ : أنِّي أبحثُ عَنِ الأشياءِ لأعرفَها علىٰ ما هيَ عليهِ ، فأيُّ ضررٍ عليَّ في التفكُّرِ في العلمِ ؟ فإنَّ ما يعودُ عليكَ مِنْ ضررِهِ أكثرُ ، وكمْ مِنْ شيءٍ تطَّلِعُ عليهِ فيضرُّكَ اطلاعُكَ ضرراً يكادُ يهلكُكَ في الآخرةِ إنْ لمْ يتداركْكَ اللهُ برحمتِهِ .

واعلمْ : أنَّهُ كما يطلعُ الطبيبُ الحاذقُ علىٰ أسرارٍ في المعالجاتِ يستبعدُها مَنْ لا يعرفُها . . فكذلكَ الأنبياءُ أطباءُ القلوبِ والعلماءُ بأسبابِ الحياةِ الأُخرويةِ ، فلا تتحكَّمْ علىٰ سنَّتِهِمْ بمعقولِكَ فتهلِكَ ، فكمْ مِنْ شخصٍ يصيبُهُ عارضٌ في إصبعِهِ فيقتضي عقلُهُ أنْ يطليَهُ ، حتَّىٰ ينبهَهُ الطبيبُ الحاذقُ أنَّ علاجَهُ أنْ يُطلَى الكتفُ مِنَ الجانبِ الآخرِ مِنَ البدنِ ، فيستبعدُ ذلكَ غايةَ الاستبعادِ مِنْ حيثُ لا يعلمُ كيفيةَ انشعابِ الأعصابِ ومنابتَها ووجهَ التفافِها على البدنِ ، فهكذا الأمرُ في طريقِ الآخرةِ .

وفي دقائقِ سننِ الشرعِ وآدابِهِ ، وفي عقائدِهِ التي تعبَّدَ الناسَ بها . . أسرارٌ ولطائفُ ليسَ في سَعةِ العقلِ وقوَّتِهِ الإحاطةُ بها ؛ كما أنَّ في خواصِّ الأحجارِ أموراً عجائبَ غابَ عنْ أهلِ الصنعَةِ علمُها ، حتَّىٰ لمْ يقدرْ أحدٌ علىٰ أنْ يعرفَ السببَ الذي بهِ يجذِبُ المغناطيسُ الحديدَ .

والعجائبُ والغرائبُ في العقائدِ والأعمالِ ، وإفادتِها لصفاءِ القلوبِ

ونقائِها وطهارتِها ، وتزكيتِها وإصلاحِها للترقِّي إلىٰ جوارِ اللهِ تعالىٰ ، وتعريضِها لنفحاتِ فضلِهِ . . أكثرُ وأعظمُ ممَّا في الأدويةِ والعقاقيرِ ، وكما أنَّ العقولَ تقصُرُ عنْ إدراكِ منافعِ الأدويةِ مع أنَّ التجربةَ سبيلٌ إليها . . فالعقولُ تقصرُ عنْ إدراكِ ما ينفعُ في حياةِ الآخرةِ مع أنَّ التجربةَ غيرُ متطرِّقةٍ إليها ، وإنَّما كانتِ التجرِبَةُ تتطرَّقُ إليها لوْ رجعَ إلينا بعضُ الأمواتِ فأخبرَنا عنِ الأعمالِ المقبولَةِ النافعةِ المقرِّبَةِ إلى اللهِ تعالىٰ زُلْفَىٰ ، وعنِ الأعمالِ المبعِّدَةِ عنهُ ، وكذا عنِ العقائدِ ، وذلكَ لا مطمعَ فيهِ ، فيكفيكَ منْ منفعةِ العقلِ أنْ يهديَكَ إلىٰ صدْقِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويفهمَكَ مواردَ إشاراتِهِ .

فاعزلِ العقلَ بعدَ ذلكَ عنِ التصرُّفِ ، ولازمِ الاتباعَ فلا تسلَمُ إلا بهِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مِنَ العلمِ جهلاً ، وإنَّ مِنَ القولِ عَيالاً »[1] ، ومعلومٌ أنَّ العلمَ لا يكونُ جهلاً ، ولكنَّهُ يؤثِّرُ تأثيرَ الجهْلِ في الإضرارِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أيضاً : « قليلٌ مِنَ التوفيقِ خيرٌ مِنْ كثيرٍ مِنَ العلمِ »[2] .

---

(١) رواه أبو داوود (٥٠١٢) ، **والعيال في الحديث** : عرضك للكلام علىٰ من ليس من شأنه ولا يريده ، وقال الحافظ المناوي في « التيسير » (١/ ٣٤٥) : (أي : ملالاً ، فالسامع إما عالم فيملُّ ، أو جاهل فلا يفهم فيسأم ، وهو من عال العالة يعيل عيلاً وعيالاً بالفتح ، إذا لم يدرِ أيَّ جهة يبغيها) . وجاء في بعض النسخ : (عِيّاً) بدل (عيالاً) ، وهو نصُّ « القوت » (١/ ١٣١) .

(٢) كذا أورده صاحب « القوت » (١/ ١٣١) بقوله : (وفي الخبر الآخر) وذكره ، =

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (ما أكثرَ الشجرَ وليسَ كلُّها بمثمرٍ ، وما أكثرَ الثمرَ وليسَ كلُّها بطيِّبٍ ، وما أكثرَ العلومَ وليسَ كلُّها بنافعٍ !!)[1] .

* * *

= والمصنف تبعه علىٰ ذلك ، وبنحوه رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٠/ ٣٤٨) بلفظ : « قليل التوفيق خير من كثير العقل . . . » .

(١) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (ص٦٨) بلفظ : (ويلكم يا عبيد الدنيا ؛ ماذا يغني عن الأعمىٰ سعة نور الشمس وهو لا يبصرها ؟ ! كذلك لا يغني عن العالم كثرة علمه إذا لم يعمل به ، ما أكثر أثمار الشجر وليس كلها ينفع ، ولا يؤكل ! ! وما أكثر العلماء وليس كلكم ينتفع بما علم . . .) . وأورده بلفظه الزمخشري في « ربيع الأبرار » (٤/ ١٢٣) .

بيان ما بُدِّل من ألفاظ العلوم

اعلمْ : أنَّ منشأَ التباسِ العلومِ المذمومةِ بالعلومِ الشرعيَّةِ تحريفُ الأسامي المحمودةِ وتبديلُها ، ونقلُها بالأغراضِ الفاسدةِ إلىٰ معانٍ غيرِ ما أرادَهُ السلفُ الصالحُ والقرْنُ الأوَّلُ ، وهيَ خمسةُ ألفاظٍ : **الفقهُ ، والعلمُ ، والتوحيدُ ، والتذكيرُ ، والحكمةُ** .

فهـٰذهِ أسامٍ محمودةٌ ، والمتصفونَ بها أربابُ المناصبِ في الدينِ ، ولكنَّها نقلتِ الآنَ إلىٰ معانٍ مذمومةٍ ، فصارتِ القلوبُ تنفِرُ عنْ مذمَّةِ مَنْ يتَّصِفُ بمعانيها ؛ لشيوعِ إطلاقِ هـٰذهِ الأسامي عليهِمْ .

اللفظُ الأوَّلُ : الفقهُ :

فقدْ تصرَّفوا فيهِ بالتخصيصِ لا بالنقلِ والتحويلِ ؛ إذْ خصَّصُوهُ بمعرفةِ الفروعِ الغريبةِ في الفتاوىٰ ، والوقوفِ علىٰ دقائقِ عللِها ، واستكثارِ الكلامِ فيها ، وحِفْظِ المقالاتِ المتعلِّقةِ بها ، فمَنْ كانَ أشدَّ تعمُّقاً فيها وأكثرَ اشتغالاً بها . . يقالُ : هوَ الأفقهُ .

ولقدْ كانَ اسمُ الفقهِ في العصْرِ الأوَّلِ مطلقاً علىٰ علمِ طريقِ الآخرةِ ، ومعرفةِ دقائقِ آفاتِ النفوسِ ومفسداتِ الأعمالِ ، وقوَّةِ الإحاطةِ بحقارةِ الدنيا ، وشدَّةِ التطلُّعِ إلىٰ نعيمِ الآخرةِ ، واستيلاءِ الخوفِ على القلبِ .

ويدلُّكَ عليهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ .

وما بهِ الإنذارُ والتخويفُ هوَ هـٰذا الفقهُ ، دونَ تفريعاتِ الطلاقِ والعتاقِ واللعانِ والسلَمِ والإجارةِ ؛ فذلكَ لا يحصلُ بهِ إنذارٌ ولا تخويفٌ ، بلِ التجرُّدُ لهُ على الدوامِ يقسِّي القلبَ ، وينزعُ الخشيةَ منهُ كما يُشاهدُ الآنَ مِنَ المتجرِّدينَ لهُ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ ، وأرادَ بهِ معانيَ الإيمانِ دونَ الفتاوىٰ .

ولعمري ؛ الفقهُ والفهمُ في اللغةِ اسمانِ بمعنىً واحدٍ ، وإنَّما نتكلَّمُ في عادةِ الاستعمالِ قديماً وحديثاً ، قالَ تعالىٰ : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ ، فأحالَ قلَّةَ خوفِهم مِنَ اللهِ واستعظامَهُمْ سطوةَ الخلقِ علىٰ قلَّةِ الفقهِ .

فانظرْ إنْ كانَ ذلكَ نتيجةَ عدمِ الحفظِ لتفريعاتِ الفتاوىٰ ، أوْ هوَ نتيجةُ عدمِ ما ذكرناهُ مِنَ العلومِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علماءُ حكماءُ فقهاءُ »[1] للذينَ وفدوا عليهِ .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٧٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١/ ٢٠٠) بلفظ : « علماء حكماء ، كادوا من صدقهم أن يكونوا أنبياء » .

وسُئِلَ سعدُ بنُ إبراهيمَ الزهريُّ : أيُّ أهلِ المدينةِ أفقهُ ؟ فقالَ : أتقاهمْ للهِ تعالىٰ[1] . فكأنَّهُ أشارَ إلىٰ ثمرةِ الفقهِ ، والتقوىٰ ثمرةُ العلمِ الباطنِ دونَ الفتاوىٰ والأقضيةِ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أنبئُكُمْ بالفقيهِ كُلِّ الفقيهِ ؟ » قالوا : بلىٰ ، قالَ : « مَنْ لمْ يُقَنِّطِ الناسَ مِنْ رحمةِ اللهِ ، ولمْ يُؤَمِّنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللهِ ، ولمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللهِ ، ولمْ يَدَعِ القرآنَ رَغْبَةً عنهُ إلىٰ ما سواهُ »[2] .

ولمَّا رَوَىٰ أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأَنْ أقْعُدَ معَ قومٍ يذكرونَ اللهَ تعالىٰ مِنْ غُدْوَةٍ إلىٰ طلوعِ الشمسِ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أعتقَ أربعَ رقابٍ »[3] . . قالَ : فالتفتَ إلىٰ يزيدَ الرَّقاشيِّ وزيادٍ النميريِّ وقالَ : لمْ تكنْ مجالسُ الذكرِ مثلَ مجالسِكُمْ هـٰذهِ ، يَقُصُّ أحدُكُمْ ويخطبُ علىٰ أصحابِهِ ويسردُ الحديثَ سرداً ، إنَّما كنَّا نقعدُ فنذْكُرُ الإيمانَ ، ونتدبَّرُ القرآنَ ، ونتفقَّهُ في الدينِ ، ونعدُّ نعمَ اللهِ علينا[4] .

فسمَّىٰ تدبُّرَ القرآنِ وعَدَّ النعمِ تفقُّهاً .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٨) .

(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥١٠) مرفوعاً ، وهو في « سنن الدارمي » (٣٠٥) ، وغيره موقوف علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٣) رواه أبو داوود (٣٦٦٧) .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٥٠) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يَفْقَهُ العبدُ كُلَّ الفقْهِ حتَّىٰ يَمْقُتَ الناسَ في ذاتِ اللهِ ، وحتَّىٰ يرىٰ للقرآنِ وجُوهاً كثيرةً » ، ورُوِيَ أيضاً موقوفاً علىٰ أبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ معَ قولِهِ : « ثُمَّ يُقْبِلُ علىٰ نفسِهِ فيكونُ لها أشَدَّ مقتاً »[1] .

وسألَ فَرْقَدٌ السَّبَخِيُّ الحسنَ عنْ شيءٍ ، فأجابَهُ ، فقالَ : إنَّ الفقهاءَ يخالفونَكَ ، فقالَ الحسنُ : ثَكِلَتكَ أمُّكَ فُريقِدُ ؛ وهلْ رأيتَ فقيهاً بعينِكَ ؟! إنَّما الفقيهُ الزاهدُ في الدنيا ، الراغبُ في الآخرةِ ، البصيرُ بدينِهِ ، المداومُ علىٰ عبادةِ ربِّهِ ، الورِعُ الكافُّ عن أعراضِ المسلمينَ ، العفيفُ عنْ أموالِهِمْ ، الناصحُ لجماعتِهِمْ[2] . ولمْ يقلْ في جميعِ ذلكَ : الحافظُ لفروعِ الفتاوىٰ .

ولستُ أقولُ : إنَّ اسمَ الفقهِ لمْ يكنْ متناولاً للفتاوىٰ في الأحكامِ الظاهرةِ ، ولكنْ كانَ بطريقِ العمومِ والشمولِ ، أوْ بطريقِ الاستتباعِ[3] ، وكانَ إطلاقُهُمْ لهُ علىٰ علْمِ الآخرةِ أكثرَ ، فثارَ[4] مِنْ هـٰذا التخصيصِ تلبيسٌ بعثَ الناسَ على التجرُّدِ لهُ ، والإعراضِ عنْ علمِ الآخرةِ وأحكامِ القلبِ ،

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥١٥ ، ١٥١٦) مرفوعاً وموقوفاً علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه ، وصحَّح الوقف .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٥٣) .

(٣) أي : يجعل علم الفتاوىٰ تابعاً لبقية علوم الآخرةِ . « إتحاف » (١/ ٢٣٥) .

(٤) ثار : قام منه وانبعث .

ووجدوا علىٰ ذلكَ معيناً مِنَ الطبعِ ؛ فإنَّ علمَ الباطنِ غامضٌ ، والعملَ بهِ عسيرٌ ، والتوصُّلَ بهِ إلىٰ طلبِ الولايةِ والقضاءِ والجاهِ والمالِ متعذِّرٌ ، فوجدَ الشيطانُ مجالاً لتحسينِ ذلكَ في القلوبِ بواسطةِ تخصيصِ اسمِ الفقهِ الذي هوَ اسمٌ محمودٌ في الشرعِ .

❀ ❀ ❀

اللفظُ الثاني : العلمُ :

وقدْ كانَ يُطلقُ ذلكَ على العلمِ باللهِ تعالىٰ وبآياتِهِ وأفعالِهِ في عبادِهِ وخلقِهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ لمَّا ماتَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ . . قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ماتَ تسعةُ أعشارِ العلمِ) ، فعرَّفَهُ بالألفِ واللامِ ، ثمَّ فسَّرَهُ بالعلمِ باللهِ سبحانَهُ كما سبقَ .

وقدْ تصرَّفوا فيهِ أيضاً بالتخصيصِ ، حتَّىٰ شهرُوهُ في الأكثرِ بمنْ يشتغلُ بالمناظرةِ معَ الخصومِ في المسائلِ الفقهيةِ وغيرِها ، فيقالُ : هوَ العالمُ على الحقيقةِ ، وهوَ الفحلُ في العلمِ ، ومَنْ لا يمارسُ ذلكَ ، ولا يشتغلُ بهِ . . يُعدُّ مِنْ جملةِ الضعفاءِ ، ولا يعدُّونَهُ في زمرةِ أهلِ العلمِ ، وهـٰذا أيضاً تصرُّفٌ بالتخصيصِ ، ولكنْ ما وردَ منْ فضائلِ العلمِ والعلماءِ أكثرُهُ في العلماءِ باللهِ عزَّ وجلَّ ، وبأحكامِهِ وأفعالِهِ وصفاتِهِ .

وقدْ صارَ الآنَ يُطلقُ علىٰ مَنْ لا يحيطُ من علومِ الشرعِ بشيءٍ سوىٰ رسومٍ جدليَّةٍ في مسائلَ خلافيَّةٍ ، فيُعدُّ بذلكَ من فحولِ العلماءِ ، معَ جهلِهِ بالتفسيرِ

والأخبارِ وعلْمِ المذهبِ وغيرِهِ ، وصارَ ذلكَ سبباً مهلِكاً لخلْقٍ كثيرٍ مِنَ الطلبةِ .

❀ ❀ ❀

اللفظُ الثالثُ : التوحيدُ :

وقدْ جُعِلَ الآنَ عبارةً عَنْ صناعةِ الكلامِ ، ومعرفةِ طريقِ المجادلةِ ، والإحاطةِ بطرقِ مناقضاتِ الخصومِ ، والقدرةِ على التشدُّقِ فيها بتكثيرِ الأسئلةِ وإثارةِ الشبهاتِ ، وتأليفِ الإلزاماتِ ، حتَّىٰ لَقَّبَ طوائفُ منهمْ أنفسَهمْ بأهلِ العدْلِ والتوحيدِ[1] ، وسُمِّيَ المتكلمونَ العلماءَ بالتوحيدِ ، معَ أنَّ جميعَ ما هوَ خاصيَّةُ هـٰذهِ الصناعةِ لمْ يكنْ يُعرفُ منها شيءٌ في العصرِ الأوَّلِ ، بلْ كانَ يشتدُّ النكيرُ منهُمْ علىٰ مَنْ يفتحُ باباً مِنَ الجدلِ والمماراةِ ، فأمَّا ما يشتملُ عليهِ القرآنُ مِنَ الأدلَّةِ الظاهرةِ التي تسبقُ الأذهانُ إلىٰ قبولِها في أوَّلِ السماعِ . . فلقدْ كانَ ذلكَ معلوماً للكُلِّ .

وكانَ العلْمُ بالقرآنِ هوَ العلمَ كلَّهُ ، وكانَ التوحيدُ عندَهُمْ عبارةً عنْ أمرٍ آخرَ لا يفهمُهُ أكثرُ المتكلِّمينَ ، وإنْ فهموهُ . . لمْ يتَّصِفُوا بهِ ؛ وهوَ أنْ يرى الأمورَ كلَّها مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ رؤيةً تقطَعُ التفاتَهُ عَنِ الأسبابِ والوسائطِ ، فلا يرى الخيرَ والشرَّ إلا منهُ جلَّ جلالُهُ ، وهـٰذا مقامٌ شريفٌ إحدىٰ ثمراتِهِ التوكُّلُ ، كما سيأتي بيانُهُ في كتابِ التوكُّلِ .

---

(١) وهم المعتزلة .

ومِنْ ثمراتِهِ : تركُ شكايَةِ الخلْقِ ، وتركُ الغضَبِ عليهِمْ ، والرضا والتسليمُ لحكْمِ اللهِ تعالىٰ .

وكانَ إحدىٰ ثمراتِهِ قولُ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا قيلَ لهُ في مرضِهِ : أنطلُبُ لكَ طبيباً ؟ فقالَ : الطبيبُ أمرضني[1] .

وقولٌ آخرُ لأبي بكرٍ لما مرضَ فقيلَ لهُ : ماذا قالَ لكَ الطبيبُ في مرضِكَ ؟ فقالَ : قالَ لي : إنِّي فعَّالٌ لما أريدُ[2] .

وسيأتي شواهدُهُ في كتابِ التوكُّلِ .

وكانَ التوحيدُ جوهراً نفيساً ، **ولهُ قِشْرانِ** ، أحدُهما أبعدُ عنِ **اللُّبِّ** منَ الآخرِ ، فخصَّصَ الناسُ الاسمَ بالقشرِ وبصنْعَةِ الحراسةِ للقشْرِ ، وأهملُوا اللُّبَّ بالكليةِ :

فالقشرُ الأوَّلُ : أنْ تقولَ بلسانِكَ : (لا إلـهَ إلا اللهُ) ، وهـٰذا يسمَّىٰ توحيداً مناقضاً للتثليثِ الذي يصرِّحُ بهِ النصارىٰ ، ولكنَّهُ قدْ يصدُرُ مِنَ المنافقِ الذي يخالفُ سرُّهُ جهرَه .

والقشرُ الثاني : ألا يكونَ في القلبِ مخالفةٌ وإنكارٌ لمفهومِ هـٰذا القولِ ،

---

(١) نُسب هـٰذا القول لغير واحد من الصحابة ، وأكثر الروايات عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، كما رواه البيهقي في « الشعب » (٢٢٦٧) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٢٣٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ٣٤) .

بلْ يشتملُ ظاهرُ القلبِ على اعتقادِ ذلكَ والتصديقِ بهِ ، وهوَ توحيدُ عوامِّ الخلقِ ، والمتكلمونَ ـ كما سبقَ ـ حرَّاسُ هـٰذا القشْرِ عنْ تشويشِ المبتدعةِ .

والثالثُ وهوَ اللبابُ : أنْ يرى الأمورَ كلَّها مِنَ اللهِ تعالىٰ رؤيةً تقطَعُ التفاتَهُ عَنِ الوسائطِ ، وأنْ يعبدَهُ عبادةً يفردُهُ بها فلا يعبدُ غيرَهُ ، ويخرجُ عنْ هـٰذا التوحيدِ أتباعُ الهوىٰ ، فكُلُّ مَنِ اتَّبعَ هواهُ فقدْ اتَّخذَ هواهُ معبودَهُ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أبغضُ إلَـٰهٍ عُبِدَ في الأرضِ عندَ اللهِ تعالىٰ هوَ الهَوَىٰ »[1] .

وعلى التحقيقِ : مَنْ تأمَّلَ . . عَرَفَ أنَّ عابدَ الصنمِ ليسَ يعبدُ الصنمَ ، إنَّما يعبدُ هواهُ ؛ إذْ نفسُهُ مائلةٌ إلىٰ دينِ آبائِهِ ، فيتَّبِعُ ذلكَ الميلَ ، وميلُ النفسِ إلى المألوفاتِ أحدُ المعاني التي يعبَّرُ عنها بالهوىٰ .

ويخرجُ مِنْ هـٰذا التوحيدِ السخْطُ على الخلقِ والالتفاتُ إليهِمْ ؛ فإنَّ مَنْ يرى الكلَّ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ كيفَ يسخطُ علىٰ غيرِهِ ؟! فلقدْ كانَ التوحيدُ عبارةً عَنْ هـٰذا المقامِ ، وهوَ مِنْ مقاماتِ الصدِّيقينَ .

فانظرْ إلىٰ ماذا حُوِّل ، وبأيِّ قشْرٍ قُنِّعَ ، وكيفَ اتُّخِذَ هـٰذا معتصماً في التمدُّحِ والتفاخرِ بما اسمُهُ محمودٌ معَ الإفلاسِ عَنِ المعنى الذي يستحقُّ الحمدَ الحقيقيَّ ؟!

وذلكَ كإفلاسِ مَنْ يصبحُ بكرةً ويتوجَّهُ إلى القبلةِ ويقولُ : (وجهتُ

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٣) ، والطبراني في « الكبير » (٨/ ١٠٣) بنحوه .

وجهيَ للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ حنيفاً) ، وهوَ أوَّلُ كذبٍ يفاتحُ اللهَ بهِ كلَّ يومٍ إنْ لمْ يكنْ وَجْهُ قلبِهِ متوجِّهاً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ على الخصوصِ ؛ فإنَّهُ إنْ أرادَ بالوجْهِ وجهَ الظاهرِ . . فما وجَّهَهُ إلا إلى الكعبةِ ، وما صرفَهُ إلا عنْ سائرِ الجهاتِ ، والكعبةُ ليستْ جهةً للذي فَطَرَ السماواتِ والأرضَ حتَّىٰ يكونَ المتوجِّهُ إليها متوجهاً إليهِ ، تعالىٰ عنْ أنْ تحدَّهُ الجهاتُ والأقطارُ .

وإنْ أرادَ بهِ وجْهَ القلْبِ ـ وهوَ المطلوبُ المتعبَّدُ بهِ ـ فكيفَ يصدقُ قولُهُ وقلبُهُ متردِّدٌ في أوطارِهِ وحاجاتِهِ الدنيويةِ ، ومتصرِّفٌ في طلبِ الحيلِ في جمْعِ المالِ والجاهِ واستكثارِ الأسبابِ ، ومتوجِّهٌ بالكليةِ إليها ، فمتىٰ وجَّهَ وجهَهُ للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ ؟!

وهـٰذهِ الكلمةُ خبرٌ عَنْ حقيقةِ التوحيدِ ، فالموحِّدُ هوَ الذي لا يرىٰ إلا الواحدَ الحقَّ ، ولا يتوجَّهُ وجهُهُ إلا إليهِ ، وهوَ امتثالُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ ، وليسَ المرادُ بهِ القولَ باللسانِ ، إنَّما اللسانُ تَرْجُمانٌ يصدقُ مرَّةً ويكذبُ أخرىٰ ، وإنَّما موقعُ نظرِ اللهِ تعالىٰ هوَ المترجَمُ عنهُ ، وهوَ القلبُ ؛ فهوَ معدِنُ التوحيدِ ومنبعُهُ .

❁ ❁ ❁

اللفظُ الرابعُ : الذكرُ والتذكيرُ :

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقدْ وردَ في الثناءِ علىٰ مجالسِ الذكرِ أخبارٌ كثيرةٌ ؛ كقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ

وسلَّمَ : « إذا مررتُمْ برياضِ الجنةِ . . فارتَعُوا » ، قيلَ : وما رياضُ الجنَّةِ ؟ قالَ : « مجالسُ الذِّكْرِ »[1] .

وفي الحديثِ : « إنَّ للهِ ملائكةً سيَّاحينَ في الهواءِ سِوَىٰ ملائكةِ الخلقِ ، إذا رَأَوْا مجالِسَ الذِّكْرِ . . يُنادِي بعضُهُمْ بعضاً : ألا هَلُمُّوا إلىٰ بُغْيَتِكُمْ ، فيأْتُونَهُمْ ويحفُّونَ بهِمْ ويستمعُونَ ، ألا فاذْكُرُوا اللهَ وذَكِّرُوا أنفسَكُمْ »[2] .

فنُقِلَ ذلكَ إلىٰ ما ترىٰ أكثرَ الوعَّاظِ في هٰذا الزمانِ يواظبونَ عليهِ ؛ وهوَ **القصصُ ، والأشعارُ ، والشطْحُ ، والطَّامَّاتُ** .

أمَّا القصصُ : فهيَ بدعةٌ ؛ وقدْ وردَ نهيُ السلفِ عَنِ الجلوسِ إلى القُصَّاصِ ، وقالوا : لمْ يكنْ ذلكَ في زمانِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولا في زمانِ أبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهُما ، حتَّىٰ ظهرتِ الفتنةُ وظهرَ القصَّاصُ[3] .

ورُوِيَ أنَّ ابنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما خرجَ من المسجدِ وقالَ : (ما أخرجني إلا القاصُّ ، ولولاهُ . . لما خرجتُ)[4] .

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٠) .

(٢) رواه البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) بنحوه .

(٣) رواه ابن ماجه (٣٧٥٤) ، وفي « مسند أحمد » (٣/ ٤٤٩) أن أول من قصَّ تميم الداري رضي الله عنه . وقد استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أن يقص قائماً فأذن له ، والقص المذموم إنما حدث بعد الفتنة عقب مقتل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٥١) .

وقالَ ضمْرَةُ : (قلتُ لسفيانَ الثوريِّ : نستقبلُ القاصَّ بوجوهِنا ؟ فقالَ : وَلُّوا البدعَ ظُهورَكُمْ)[1] .

وقالَ ابنُ عوْنٍ : (دخلتُ على ابنِ سيرينَ فقالَ : ما كانَ اليومَ مِنْ خبرٍ ؟ فقلتُ : نهى الأميرُ القصَّاصَ أنْ يقصُّوا)[2] .

ودخلَ الأعمشُ جامعَ البصرةِ، فرأىٰ قاصّاً يقصُّ وهوَ يقولُ: (حدَّثنا الأعمشُ، فتوسَّطَ الحلْقةَ وجعلَ ينتفُ شعرَ إبْطِهِ ، فقالَ القاصُّ : يا شيخُ ؛ ألا تستحيي ؟! فقالَ : لِمَ ؟ أنا في سُنَّةٍ وأنتَ في كذبٍ، أنا الأعمشُ وما حدثتُكَ !)[3] .

وقالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ : (أكثرُ الناسِ كذباً القُصَّاصُ والسُؤَّالُ)[4] .

وأخرجَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ القصَّاصَ مِنْ مسجدِ جامعِ البصرةِ ، ولمَّا سمعَ كلامَ الحسنِ البصريِّ.. لمْ يخرجْهُ[5]؛ إذْ كانَ يتكلَّمُ في علْمِ الآخرةِ ، والتذكيرِ بالموتِ ، والتنبيهِ علىٰ عيوبِ النفسِ وآفاتِ الأعمالِ وخواطرِ الشيطانِ ووجهِ الحذرِ منها، ويذكِّرُ بآلاءِ اللهِ ونعمائِهِ، وتقصيرِ العبدِ في شكرِهِ ، ويعرِّفُ حقارةَ الدنيا وعيوبَها وتصرُّمَها وقلَّةَ عهدِها ، وخطرَ الآخرةِ وأهوالَها .

فهٰذا هوَ التذكيرُ المحمودُ شرعاً ، الذي رُوِيَ الحثُّ عليهِ في حديثِ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٥١) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٥١) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٥١) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٥١) .
(٥) قوت القلوب (١/ ١٤٨) .

أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قالَ : « حضورُ مجلسِ ذِكْرٍ أفضلُ مِنْ صلاةِ ألفِ ركعةٍ ، وحضورُ مجلسِ علمٍ أفضلُ مِنْ عيادَةِ ألفِ مريضٍ ، وحضورُ مجلسِ علمٍ أفضلُ مِنْ شهودِ ألفِ جنازَةٍ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ومِنْ قراءَةِ القرآنِ ؟ قالَ : « وهلْ تنفعُ قراءَةُ القرآنِ إلا بالعلْمِ ؟ »[1] .

وقالَ عطاءٌ رحمهُ اللهُ : (مجلسُ ذكرٍ يكفِّرُ سبعينَ مجلساً من مجالسِ اللهوِ)[2] .

فقدِ اتخذَ المزخرفونَ هٰذهِ الأحاديثَ حجَّةً علىٰ تزكيةِ أنفسِهِمْ ، ونقلوا اسمَ التذكيرِ إلىٰ خرافاتِهِمْ ، وذَهَلُوا عنْ طريقِ الذكرِ المحمودِ ، واشتغلوا بالقصصِ التي تتطرَّقُ إليها الاختلافاتُ والزيادةُ والنقصُ ، وتخرجُ عَنِ القصصِ الواردةِ في القرآنِ وتزيدُ عليهِ ؛ فإنَّ مِنَ القصصِ ما ينفعُ سماعُهُ ، ومنها ما يضرُّ وإنْ كانَ صدقاً ، ومَنْ فتحَ ذلكَ البابَ علىٰ نفسِهِ . . اختلطَ عليهِ الصدقُ بالكذبِ ، والنافعُ بالضارِّ ؛ فلهٰذا نُهِيَ عنهُ ، ولذلكَ قالَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ : (ما أحوجَ الناسَ إلىٰ قاصٍّ صادقٍ !)[3] .

فإنْ كانتِ القصَّةُ مِنْ قصصِ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ فيما يتعلَّقُ بأمورِ دينِهِمْ ، وكانَ القاصُّ حاذقاً صحيحَ الروايةِ . . فلستُ أرىٰ بهِ بأساً .

---

(١) كذا أورده صاحب « القوت » (١/ ١٤٩) ، وانظر « لسان الميزان » (١/ ٤٩٥) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٩٩) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٤٩) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٥١) .

فليحذرِ الكذبَ وحكايةَ أحوالٍ تُومىءُ إلىٰ هفواتٍ أوْ مساهلاتٍ يقصُرُ فهمُ العوامِّ عَنْ درْكِ معانيها ، أوْ عنْ كونِها هفوةً نادرةً مردفةً بتكفيراتٍ ومتداركةً بحسناتٍ تُغطِّي عليها ؛ فإنَّ العاميَّ يعتصمُ بذلكَ في مساهلاتِهِ وهفواتِهِ ، ويُمهِّدُ لنفسِهِ عذراً فيهِ ، ويحتجُّ بأنَّهُ حُكِيَ كيتَ وكيتَ عنْ بعضِ المشايخِ وبعضِ الأكابرِ ، وكلُّنا بصددِ المعاصي ، فلا غروَ إنْ عصيتُ اللهَ تعالىٰ ؛ فقدْ عصاهُ مَنْ هوَ أكبرُ منِّي ! ويفيدُهُ ذلكَ جرأةً على اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ لا يدري .

فبعدَ الاحترازِ عنْ هـٰذينِ المحذورينِ فلا بأسَ بهِ ، وعندَ ذلكَ ترجعُ القصصُ المحمودةُ إلىٰ ما يشتملُ عليهِ القرآنُ ، وصحَّ في الكتبِ الصحيحةِ مِنَ الأخبارِ .

ومِنَ الناسِ منْ يستجيزُ وضْعَ الحكاياتِ المرغِّبةِ في الطاعاتِ ، ويزعُمُ أنَّ قصدَهُ فيهِ دعوةُ الخلْقِ إلى الحقِّ ، وهـٰذا منْ نزغاتِ الشيطانِ ؛ فإنَّ في الصدْقِ مندوحةً عنِ الكذبِ ، وفيما ذكرَهُ اللهُ سبحانَهُ ورسولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غنيةً عنِ الاختراعِ في الوعظِ ، كيفَ وقدْ كُرِهَ تكلُّفُ السجْعِ وعُدَّ ذلكَ من التصنُّعِ ؟!

قالَ سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ رضيَ اللهُ عنهُ لابنِهِ عمرَ وقدْ سمعَهُ يسجَعُ : (هـٰذا الذي يُبغِّضُكَ إليَّ ، لا قضيتُ حاجتَكَ أبداً حتَّىٰ تتوبَ) ، وقدْ كانَ جاءَهُ في حاجةٍ[1] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٦٨) .

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعبدِ اللهِ بنِ رواحَةَ في سجْعٍ بينَ ثلاثِ كلماتٍ : « إيَّاكَ والسَّجْعَ يا بْنَ رواحةَ »[1] ، فكانَ السجعُ المحذورُ المتكلَّفُ ما زادَ علىٰ كلمتينِ ، ولذلكَ لمَّا قالَ الرجلُ في ديةِ الجنينِ : كيفَ نَدِي مَنْ لا شربَ ولا أكلَ ، ولا صاحَ ولا استهلَّ ، ومثلُ ذلكَ يُطَلُّ؟ فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أسَجعٌ كسَجْعِ الأعرابِ ؟! »[2].

وأمَّا الأشعارُ : فتكثيرُها في المواعظِ مذمومٌ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ .

وأكثرُ ما اعتادَهُ الوعَّاظُ مِنَ الأشعارِ ما يتعلَّقُ بالتواصُفِ في العشقِ وجمالِ المعشوقِ ، ورَوْحِ الوصالِ وألمِ الفِراقِ ، والمجلسُ لا يحوي إلا أجلافَ العوامِّ ، وبواطنُهُمْ مشحونَةٌ بالشهواتِ ، وقلوبُهُمْ غيرُ منفكَّةٍ عنِ الالتفاتِ إلى الصورِ المليحةِ ، فلا تحرِّكُ الأشعارُ مِنْ قلوبِهِمْ إلا ما هوَ مستكِنٌّ فيها ، فتشتعلُ فيها نيرانُ الشهوةِ ، فيزعقونَ ويتواجدونَ ، وأكثرُ ذلكَ أوْ كلُّهُ يرجعُ إلىٰ نوعِ فسادٍ ، فلا ينبغي أنْ يستعملَ مِنَ الشعرِ إلا ما فيهِ موعظةٌ وحكمةٌ علىٰ سبيلِ الاستشهادِ والاستئناسِ .

---

(١) كذا أورده صاحب « القوت » (١/ ١٦٩) ، وهو عند أبي يعلىٰ (٤٤٧٥) من قول عائشة بنحوه .

(٢) رواه مسلم (١٦٨٢) .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ منَ الشعرِ لَحِكْمَةً »[1] .

ولوْ حوى المجلسُ الخواصَّ الذينَ وقعَ الاطلاعُ على استغراقِ قلوبِهِمْ بحبِّ اللهِ تعالىٰ ولمْ يكنْ معهُمْ غيرُهُمْ . . فأولئكَ لا يضرُّ معهُمْ الشعرُ الذي يشيرُ ظاهرُهُ إلى الخلْقِ ؛ فإنَّ المستمعَ ينزِّلُ كلَّ ما يسمعُهُ علىٰ ما يستولي علىٰ قلبِهِ كما سيأتي تحقيقُ ذلكَ في كتابِ السماعِ .

ولذلكَ كانَ الجنيدُ رحمهُ اللهُ يتكلَّمُ علىٰ بضعةَ عشرَ ، فإنْ كثروا . . لمْ يتكلَّمْ ، وما تمَّ أهلُ مجلسِهِ عشرينَ[2] .

وحضرَ جماعةٌ بابَ دارِ ابنِ سالمٍ ، فقيلَ لهُ : تكلَّمْ ، فقدْ حضرَ أصحابُكَ ، فقالَ : ما هؤلاءِ أصحابي ، إنَّما هُمْ أصحابُ المجلسِ ؛ أي : أصحابي هُمُ الخواصُّ[3] .

وأما الشطحُ[4] : فنعني بهِ صنفينِ منَ الكلامِ أحدثَهُ بعضُ المتصوفةِ :

أحدهما : الدعاوى الطويلةُ العريضةُ في العشْقِ معَ اللهِ تعالىٰ ، والوصالِ المغني عنِ الأعمالِ الظاهرةِ ، حتَّىٰ ينتهي قومٌ إلىٰ دعوى الاتحادِ وارتفاعِ الحجابِ ، والمشاهدةِ بالرؤيةِ والمشافهةِ بالخطابِ ، فيقولونَ : قيل لنا :

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٥) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٥٥) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٥) ، وابن سالم هذا هو شيخ أبي طالب المكي .

(٤) وهو عند أهل الحقيقة كلام يعبر عنه اللسان مقرون بالدعوىٰ ، ولا يرتضيه أهل الطريقة من قائله وإن كان محقّاً . « إتحاف » (١/ ٢٥٠) .

كذا ، وقلنا : كذا ، ويتشبَّهونَ فيهِ بالحسينِ بنِ منصورٍ الحلاّجِ الذي صُلِبَ لأجلِ إطلاقِهِ كلماتٍ مِنْ هـٰذا الجنسِ ، ويستشهدونَ بقولِهِ : (أنا الحقُّ) ، وبما يُحْكَىٰ عنْ أبي يزيدَ البسطاميِّ أنَّهُ قالَ : (سبحاني سبحاني) .

وهـٰذا فَنٌّ منَ الكلامِ عظيمٌ ضررُهُ في العوامِّ ؛ حتَّىٰ تركَ جماعةٌ منْ أهلِ الفلاحةِ فلاحتَهم ، وأظهروا مثلَ هـٰذهِ الدعاوىٰ ؛ فإنَّ هـٰذا الكلامَ يستلذُّهُ الطبعُ ؛ إذْ فيهِ البطالةُ مِنَ الأعمالِ معَ تزكيةِ النفسِ بدرْكِ المقاماتِ والأحوالِ ، فلا تعجَزُ الأغبياءُ عنْ دعوىٰ ذلكَ لِأنفسِهِمْ ، ولا عنْ تلقُّفِ كلماتٍ مخبطةٍ مزخرفةٍ ، ومهما أُنكرَ عليهِمْ ذلكَ . . لمْ يعجَزوا عنْ أنْ يقولوا : إنَّ هـٰذا إنكارٌ مصدرُهُ العلْمُ والجدلُ ، والعلْمُ حجابٌ ، والجدلُ عملُ النفسِ ، وهـٰذا الحديثُ لا يلوحُ إلا مِنَ الباطنِ بمكاشفةِ نورِ الحقِّ![1] .

فهـٰذا وفنُّهُ ممَّا قدِ استطارَ في البلادِ شررُهُ ، وعَظُمَ في العوامِّ ضررُهُ ، ومَنْ نطقَ بشيءٍ منهُ . . فقتلُهُ أفضلُ في دينِ اللهِ منْ إحياءِ عشرةٍ .

---

(١) قال القطب القسطلاني في كتابه « اقتداء الفاضل باقتداء العاقل » : (أما قولهم : العلم حجاب الله ، وإن طلبه من أعظم الحجاب . . فهي كلمة حق أريد بها باطل ، وصفة نقص تحلّىٰ بها من هو عن الكمال عاطل ، وإنما ذكر أهل الطريق ذلك في قوم من صفتهم أنهم حصَّلوا ما تميَّزوا به عند أهل هـٰذا الشأن من علمي الشريعة والحقيقة ، ففوتحوا من الغيب بما يشهد لهم بنجاتهم ، فهم بالله مع الله معرضون عن ملاحظة صفاتهم ، فمن كان كذلك . . فإنه مشغول بما هو فيه عن النظر في العلم ، وأما من عريَ عن علم الظاهر والباطن . . فحقُّه أن يعلم ما يحتاج إليه في الطريق التي يسلكها ، فإن أبىٰ واستكبر . . فإنه بعيد عن الوصول إلىٰ منهج السعادة) . « إتحاف » (١/ ٢٥١) .

وأمَّا أبو يزيدَ البسطاميُّ رحمهُ اللهُ . . فلا يصحُّ عنهُ ما حُكِيَ ، وإنْ سُمعَ ذلكَ منهُ . . فلعلَّهُ كانَ يحكيهِ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ في كلامٍ يُرددُهُ في نفسِهِ ، كما لوْ سُمعَ وهوَ يقولُ : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ ؛ فإنَّهُ ما كانَ ينبغي أنْ يفهمَ منهُ ذلكَ إلا علىٰ سبيلِ الحكايةِ[1] .

الصنفُ الثاني مِنَ الشطحِ : كلماتٌ غيرُ مفهومةٍ ، لها ظواهرُ رائقةٌ ، وفيها عباراتٌ هائلةٌ ، وليسَ وراءَها طائلٌ .

وذلكَ إمَّا أنْ تكونَ غيرَ مفهومةٍ عندَ قائلِها ، بلْ يصدرُها عنْ خبْطٍ في عقلِهِ ، وتشويشٍ في خيالِهِ ؛ لقلَّةِ إحاطتِهِ بمعنىٰ كلامٍ قَرَعَ سمعَهُ ، وهـٰذا هوَ الأكثرُ .

وإمَّا أنْ تكونَ مفهومةً لهُ ، ولكنَّهُ لا يقدِرُ علىٰ تفهيمِها وإيرادِها بعبارةٍ تدلُّ علىٰ ضميرِهِ ؛ لقلَّةِ ممارستِهِ العلمَ ، وعدمِ تعلُّمِهِ طريقَ التعبيرِ عنِ المعاني بالألفاظِ الرشيقةِ .

ولا فائدةَ لهـٰذا الجنسِ مِنَ الكلامِ إلا أنَّهُ يشوِّشُ القلوبَ ويدهشُ العقولَ ، ويحيِّرُ الأذهانَ ، أوْ يحملُ علىٰ أنْ يُفْهَمَ منها معانٍ ما أريدَتْ بها ، ويكونُ فَهْمُ كلِّ واحدٍ علىٰ مقتضىٰ هواهُ وطبعِهِ .

---

(١) انظر « مشكاة الأنوار » (ص٤١) ، و« المقصد الأسنىٰ » (ص١٢٨) ، وقد التمس المؤلف أعذاراً غير ما ذكره هنا .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما حَدَّثَ أحدُكُمْ قوماً بحديثٍ لا يفهمونَهُ إلا كانَ فتنةً عليهِمْ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كَلِّمُوا الناسَ بما يعرفونَ ، ودَعُوا ما ينكرونَ ، أتُرِيدونَ أنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُهُ ؟ »[2] .

وهـٰذا فيما يفهمُهُ صاحبُهُ ولا يبلغُهُ عقلُ المستمعِ ، فكيفَ فيما لا يفهمُهُ قائلُهُ ؟! فإنْ كانَ يفهمُهُ القائلُ دونَ المستمعِ . . فلا يحلُّ ذكرُهُ .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا تضعوا الحكمةَ عندَ غيرِ أهلِها فتظلمُوها ، ولا تمنعوها أهلَها فتظلموهُمْ ، كونوا كالطبيبِ الرفيقِ ، يضعُ الدواءَ في موضعِ الداءِ)[3] .

وفي لفظٍ آخرَ : (مَنْ وضعَ الحكمةَ في غيرِ أهلِها . . جَهِلَ ، ومَنْ منعَها أهلَها . . ظَلَمَ ، إنَّ للحكمةِ حقّاً ، وإنَّ لها أهلاً ، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ)[4] .

وأمَّا الطاماتُ : فيدخلُها ما ذكرناهُ في الشطْحِ ، وأمرٌ آخرُ يخصُّها ، وهوَ

---

(١) رواه مسلم في مقدمة «صحيحه» (١/ ١١) بنحوه موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه ، ورواه العقيلي في « الضعفاء » (٣/ ٩٣٧) مرفوعاً بنحوه أيضاً .

(٢) رواه البخاري (١٢٧) موقوفاً علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورواه الطبراني مرفوعاً في « الأوسط » (٨١٩٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٣١) بنحوه .

(٣) تاريخ دمشق (٦٣/٦٨) ضمن حديث طويل .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٥٦) ، وبنحوه في « جامع بيان العلم وفضله » (٧٠٣ ، ٧٠٤) .

صرْفُ ألفاظِ الشرْعِ عنْ ظواهرِها المفهومةِ إلىٰ أمورٍ باطنةٍ لا يسبقُ منها إلى الأفهامِ فائدةٌ ؛ كدأْبِ الباطنيَّةِ في التأويلاتِ .

وهـٰذا أيضاً حرامٌ ، وضررُهُ عظيمٌ ؛ فإنَّ الألفاظَ إذا صُرِفَتْ عنْ مقتضىٰ ظواهرِها بغيرِ اعتصامٍ فيهِ يُنْقَلُ عن صاحبِ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ ، ومِنْ غيرِ ضرورةٍ تدعو إليهِ مِنْ دليلِ العقلِ . . اقتضىٰ ذلكَ بطلانَ الثقةِ بالألفاظِ ، وتسقطُ بهِ منفعةُ كلامِ اللهِ سبحانَهُ وكلامِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّ ما يسبقُ منهُ إلى الفهمِ لا يوثقُ بهِ ، والباطنُ لا ضبطَ لهُ ، بلْ تتعارضُ فيهِ الخواطرُ ، ويمكنُ تنزيلُهُ علىٰ وجوهٍ شتىٰ .

وهـٰذا أيضاً منَ البدعِ الشائعةِ العظيمِ ضررُها ، وإنَّما قصدَ أصحابُها الإغرابَ ؛ فإنَّ النفوسَ مائلةٌ إلى الغريبِ ومستلذَّةٌ لهُ .

وبهـٰذا الطريقِ توصَّلَ الباطنيةُ إلىٰ هدْمِ جميعِ الشريعةِ بتأويلِ ظواهرِها ، وتنزيلِها علىٰ رأيِهم ؛ كما حكيناهُ مِنْ مذهبِهم في كتابِ « المُسْتَظْهِرِيِّ » المصنَّفِ في الردِّ على الباطنيَّةِ[1] .

ومثالُ تأويلِ أهلِ الطامَّاتِ قولُ بعضِهِمْ في تأويلِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ : إنَّهُ أشارَ إلىٰ قلبِهِ وقالَ : هوَ المرادُ بفرعونَ ، وهوَ الطاغي علىٰ كلِّ إنسانٍ .

---

(١) وسماه « المستظهري » نسبةً للخليفة الذي أهداه إياه ، وهو المستظهر بالله العباسي .

وفي قولِهِ تعالىٰ : ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أيْ : كلَّ ما تَتوكَّأُ عليهِ وتعتمدُهُ ممَّا سوى اللهِ عزَّ وجلَّ ، فينبغي أنْ تلقيَهُ .

وفي قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تَسَحَّرُوا ؛ فإنَّ في السحُورِ بَرَكَةً »[1] أرادَ بهِ الاستغفارَ في الأسحارِ .

وأمثالُ ذلكَ ، حتَّىٰ يحرِّفونَ القرآنَ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ عنْ ظاهرِهِ ، وعنْ تفسيرِهِ المنقولِ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ وسائرِ العلماءِ .

وبعضُ هٰذهِ التأويلاتِ يعلمُ بطلانُها قطعاً ؛ كتنزيلِ فرعونَ على القلبِ ، فإنَّ فرعونَ شخصٌ محسوسٌ تواترَ إلينا وجودُهُ ودعوةُ موسىٰ لهُ ؛ كأبي جهْلٍ وأبي لهبٍ وغيرِهما مِنَ الكفارِ ، وليسَ مِنْ جنسِ الشياطينِ والملائكةِ ممَّا لمْ يدركْ بالحسِّ حتَّىٰ يتطرَّقَ التأويلُ إلىٰ ألفاظِهِ .

وكذا حمْلُ السحورِ على الاستغفارِ ؛ فإنَّهُ كانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يتناوَلُ الطعامَ ، ويقولُ : « تَسَحَّرُوا[2] ، وهَلُمُّوا إلى الغِذاءِ المباركِ »[3] .

فهٰذهِ أمورٌ يُدرَكُ بالتواترِ والحسِّ بطلانُها ، وبعضُها يعلمُ بغالبِ الظنِّ ، وذلكَ في أمورٍ لا يتعلَّقُ بها الإحساسُ ، فكلُّ ذلكَ حرامٌ وضلالةٌ ، وإفسادٌ

---

(١) رواه البخاري (١٩٢٣) ، ومسلم (١٠٩٥) .

(٢) إذ إنه صلى الله عليه وسلم تسحَّرَ مع زيد بن ثابت رضي الله عنه كما في « البخاري » (٥٧٦) .

(٣) رواه أبو داوود (٢١٦٣) ، والنسائي (٤/ ١٤٥) ، وهو عند أحمد في « المسند » (٤/ ١٢٦) بلفظ : (الغذاء) بدل (الغداء) عندهما .

للدينِ على الخلْقِ ، ولمْ يُنقلْ شيءٌ مِنْ ذلكَ عنِ الصحابةِ ولا عنِ التابعينَ ، ولا عنِ الحسنِ البصريِّ معَ إكبابِهِ علىٰ دعوةِ الخلْقِ ووعظِهِمْ .

ولا يظهرُ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ فَسَّرَ القرآنَ برأيِهِ . . فليتبوَّأْ مَقعدَهُ مِنَ النارِ »[1] معنىً إلا هـٰذا النمطُ ، وهوَ أنْ يكونَ غرضُهُ ورأيُهُ تقريرَ أمرٍ وتحقيقَهُ ، فيستجرُّ شهادةَ القرآنِ إليهِ ، ويحملُهُ عليهِ مِنْ غيرِ أنْ يشهدَ لتنزيلِهِ عليهِ دلالةٌ لفظيةٌ ؛ لغويةٌ أوْ نقليةٌ .

ولا ينبغي أنْ يفهمَ منهُ أنَّهُ يجبُ ألاَّ يفسرَ القرآنُ بالاستنباطِ والفكرِ ؛ فإنَّ مِنَ الآياتِ ما نُقِلَ فيها عنِ الصحابةِ والمفسرينَ خمسةُ معانٍ وستةٌ وسبعةٌ ، ويُعلَمُ أنَّ جميعَها غيرُ مسموعٍ مِنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّها قدْ تكونُ متنافيةً لا تقبلُ الجمعَ ، فيكونُ ذلكَ مستنبَطاً بحسْنِ الفهمِ وطولِ الفكرِ ؛ ولهـٰذا قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : « ٱللَّهُمَّ ؛ فَقِّهْهُ في الدينِ ، وعَلِّمْهُ التأْويلَ »[2] .

ومَنْ يستجيزُ منْ أهلِ الطامَّاتِ مثلَ هـٰذهِ التأويلاتِ معَ علمِهِ بأنَّها غيرُ مرادةٍ بالألفاظِ[3] ، ويزعمُ أنَّهُ يقصدُ بهِ دعوةَ الخلْقِ إلى الحقِّ . . يضاهي مَنْ يستجيزُ الاختراعَ والوضْعَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لما هوَ في

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٥١) .

(٢) رواه البخاري (١٤٣) دون قوله : « وعلمه التأويل » ، وبتمامه عند أحمد في « المسند » (١/ ٢٦٦) .

(٣) وإنما حمله عليه ميله إلىٰ هواه . « إتحاف » (١/ ٢٥٨) .

نفسِهِ حقٌّ ولكنَّهُ لمْ ينطقْ بهِ الشرعُ ؛ كَمَنْ يضَعُ في كلِّ مسألةٍ يراها حقّاً حديثاً عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وذلكَ ظلمٌ وضلالٌ ، ودخولٌ في الوعيدِ المفهومِ مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كذبَ عَلَيَّ مُتَعَمّداً . . فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »[1] ، بلِ الشرُّ في تأويلِ هـٰذهِ الألفاظِ أطمُّ وأعظمُ ؛ لأنَّها مبطِلَةٌ للثِّقةِ بالألفاظِ ، وقاطعةٌ طريقَ الاستفادةِ والفهْمِ مِنَ القرآنِ بالكليَّةِ .

فقدْ عرفتَ كيفَ صرفَ الشيطانُ دواعيَ الخلقِ عنِ العلومِ المحمودةِ إلى المذمومةِ ، وكلُّ ذلكَ بتلبيسِ علماءِ السوءِ بتبديلِ الأسامي ، فإنِ اتبعتَ هؤلاءِ اعتماداً على الاسمِ المشهورِ مِنْ غيرِ التفاتٍ إلىٰ ما عُرِفَ في العصرِ الأوَّلِ . . كنتَ كمَنْ طلبَ الشرفَ بالحكمةِ باتباعِ مَنْ يسمَّىٰ حكيماً ، فإنَّ اسمَ الحكيمِ صارَ يُطلَقُ على الطبيبِ والشاعرِ والمنجِّمِ في هـٰذا العصرِ ، وذلكَ بالغفلةِ عنْ تبديلِ الألفاظِ .

❀ ❀ ❀

اللفظُ الخامسُ : الحكمةُ :

فإنَّ اسمَ الحكيمِ صارَ يطلقُ على الطبيبِ والشاعرِ والمنجِّمِ ، حتَّىٰ على الذي يدحرِجُ القرعةَ علىٰ أكفِّ السواديَّةِ في شوارعِ الطرقِ[2] .

---

(١) رواه البخاري (١١٠) ، ومسلم (٣) .

(٢) **السوادية** : الأكّارون ـ المزارعون ـ نسبوا إلىٰ سواد الأرض وريفها لملازمتهم له . « إتحاف » (١/ ٢٦٣) .

والحكمةُ هيَ التي أثنى اللهُ عزَّ وجلَّ عليها فقالَ : ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلمةٌ مِنَ الحكمةِ يتعلَّمُها الرجلُ خيرٌ لهُ مِنَ الدنيا وما فيها »(١) .

فانظرْ ما الذي كانتِ الحكمةُ عبارةً عنهُ ، وإلىٰ ماذا نُقِلَ ! وقِسْ بهِ بقيَّةَ الألفاظِ ، واحترزْ عنِ الاغترارِ بتلبيساتِ علماءِ السوءِ ؛ فإنَّ شرَّهمْ أعظمُ على الدينِ مِنْ شرِّ الشياطينِ ؛ إذِ الشيطانُ بواسطتِهِمْ يتذرَّعُ إلى انتزاعِ الدينِ مِنْ قلوبِ الخلقِ ، ولهـٰذا لمَّا سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنْ شرِّ الخلقِ . . أَبَىٰ وقالَ : « اللَّهُمَّ ؛ غَفْراً » ، حتَّىٰ كُرِّرَ عليهِ ، ثمَّ قالَ : « هم عُلماءُ السُّوءِ »(٢) .

فقدْ عرفتَ العلمَ المحمودَ والمذمومَ ومثارَ الالتباسِ ، وإليكَ الخِيرةُ في أنْ تنظرَ لنفسِكَ ، فتقتديَ بالسلفِ ، أوْ تتدلَّىٰ بحبْلِ الغرورِ وتتشبَّهَ بالخلفِ ، فكلُّ ما ارتضاهُ السلفُ مِنَ العلومِ قدِ اندرسَ ، وما أكبَّ الناسُ عليهِ فأكثرُهُ مبتدَعٌ محدَثٌ ، وقدْ صحَّ قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بَدَأَ الإسلامُ غريباً ، وسيعُودُ غريباً كما بَدَأَ ، فطُوبَىٰ لِلْغُرَباءِ » فقيلَ : ومَنِ الغرباءُ ؟ قالَ : « الذينَ يُصْلِحُونَ ما أفسدَهُ الناسُ مِنْ سُنَّتِي ، والذينَ يُحيُونَ ما أماتُوهُ مِنْ سُنَّتِي »(٣) .

---

(١) انظر « الإتحاف » (١/ ٢٦٤) .

(٢) روىٰ بنحوه الدارمي في « سننه » (٣٨٢) .

(٣) رواه مسلم (١٤٦) ، وبتمامه الترمذي (٢٦٣٠) .

وفي خبرٍ آخرَ : « همُ المُتَمَسِّكُونَ بما أنتمْ عليهِ اليومَ »[1] .

وفي حديثٍ آخرَ : « الغُرباءُ ناسٌ قليلٌ صالحونَ بينَ ناسٍ كثيرٍ ، مَنْ يُبْغِضُهُمْ أكثرُ ممَّنْ يحبُّهُمْ »[2] .

وقدْ صارتْ تلكَ العلومُ غريبةً بحيثُ يُمقَتُ ذاكرُها ، ولذلكَ قالَ الثوريُّ رحمهُ اللهُ : (إذا رأيتَ العالمَ كثيرَ الأصدقاءِ . . فاعلمْ أنَّهُ مخلِّطٌ)[3] ؛ لأنَّهُ إنْ نطقَ بالحقِّ . . أبغضوهُ .

❋ ❋ ❋

(١) كذا أورده صاحب « القوت » (١/ ١٤٣) ، وقد روىٰ بنحوه ابن وضاح في « البدع » (٧٢) .

(٢) رواه أحمد (٢/ ١٧٧) بنحوه .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٤٣) .

بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة

اعلمْ : أنَّ العلمَ بهذا الاعتبارِ ثلاثةُ أقسامٍ :

قسمٌ هوَ مذمومٌ قليلُهُ وكثيرُهُ .

وقسمٌ هوَ محمودٌ قليلُهُ وكثيرُهُ ، وكلَّما كانَ أكثرَ . . كانَ أحسنَ وأفضلَ .

وقسمٌ يحمدُ منهُ مقدارُ الكفايةِ ، ولا يحمدُ الفاضلُ عليهِ والاستقصاءُ فيهِ .

وهوَ مثلُ أحوالِ البدنِ ؛ فإنَّ منها ما يحمدُ قليلُهُ وكثيرُهُ ؛ كالصحَّةِ والجمالِ ، ومنها ما يذمُّ قليلُهُ وكثيرُهُ ؛ كالقبْحِ وسوءِ الخُلُقِ ، ومنها ما يحمدُ الاقتصادُ فيهِ ؛ كبذْلِ المالِ ؛ فإنَّ التبذيرَ لا يحمدُ فيهِ وهوَ بذلٌ ، وكالشجاعةِ ؛ فإنَّ التهوُّرَ لا يحمدُ فيها وإنْ كانَ مِنْ جنسِ الشجاعةِ ، فكذلكَ العلمُ .

فالقسمُ المذمومُ قليلُهُ وكثيرُهُ : ما لا فائدةَ فيهِ في دينٍ ولا دنيا ، أوْ فيهِ ضررٌ يغلبُ نفعَهُ ؛ كعلمِ السحْرِ والطِّلَّسْماتِ والنجومِ ، فبعضُهُ لا فائدةَ فيهِ أصلاً ، وصرفُ العمرِ الذي هوَ أنفسُ ما يملكُهُ الإنسانُ إليهِ إضاعةٌ ، وإضاعةُ النفائسِ مذمومةٌ .

ومنهُ ما فيهِ ضررٌ يربي علىٰ ما يظنُّ أنَّهُ يحصلُ بهِ مِنْ قضاءِ وطرٍ في الدنيا ؛ فإنَّ ذلكَ لا يعتدُّ بهِ بالإضافةِ إلى الضررِ الحاصلِ منهُ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا القسمُ المحمودُ إلىٰ أقصىٰ غاياتِ الاستقصاءِ : فهوَ العلمُ باللهِ تعالىٰ وبصفاتِهِ وأفعالِهِ ، وسنَّتِهِ في خلقِهِ ، وحكمتِهِ في ترتيبِ الآخرةِ على الدنيا ؛ فإنَّ هـٰذا علْمٌ مطلوبٌ لذاتِهِ ، وللتوصُّلِ بهِ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ ، وبذلُ المقدورِ فيهِ إلىٰ أقصى الجهدِ قصورٌ عنْ حدِّ الواجبِ ؛ فإنَّهُ البحرُ الذي لا يدركُ غورُهُ ، وإنَّما يحومُ الحائمونَ علىٰ سواحلِهِ وأطرافِهِ بقدْرِ ما يُسِّرَ لهمْ ، وما خاضَ أطرافَهُ إلا الأنبياءُ والأولياءُ والراسخونَ في العلمِ على اختلافِ درجاتِهِمْ ، بحسَبِ اختلافِ قوَّتِهِمْ وتفاوتِ تقديرِ اللهِ تعالىٰ في حقِّهِمْ .

وهـٰذا هوَ العلمُ المكنونُ الذي لا يسطَّرُ في الكتبِ ، ويعينُ على التنبُّهِ لهُ التعلُّمُ ومشاهدةُ أحوالِ علماءِ الآخرةِ كما سيأتي علامتُهُمْ ، هـٰذا في أوَّلِ الأمرِ .

ويعينُ عليهِ في الآخرِ المجاهدةُ والرياضةُ ، وتصفيةُ القلْبِ وتفريغُهُ عنْ علائقِ الدنيا ، والتشبُّهُ فيها بأنبياءِ اللهِ وأوليائِهِ ؛ ليتضحَ منهُ لكلِّ ساعٍ إلىٰ طلبِهِ بقدْرِ الرزْقِ لا بقدْرِ الجُهْدِ ، ولكنْ لا غِنَىٰ فيهِ عن الاجتهادِ ، فالمجاهدةُ مفتاحُ الهدايةِ ، لا مفتاحَ لها سواها .

وأمَّا العلومُ التي لا يحمدُ منها إلا مقدارٌ مخصوصٌ : فهيَ العلومُ التي أوردْناها في فروضِ الكفاياتِ ؛ فإنَّ في كلِّ علْمٍ منها اقتصاراً هوَ الأقلُّ ، واقتصاداً هوَ الوسطُ ، واستقصاءً وراءَ الاقتصادِ لا مردَّ لهُ إلىٰ آخرِ العمرِ .

فكنْ أحدَ رجلينِ : إمَّا مشغولاً بنفسِكَ ، وإمَّا متفرِّغاً إلىٰ غيرِكَ بعدَ الفراغِ مِنْ نفسِكَ ، وإيّاكَ أنْ تشتغلَ بما يصلحُ غيرَك قبلَ إصلاحِ نفسِكَ ، فإنْ كنتَ المشغولَ بنفسِكَ . . فلا تشتغلْ إلا بالعلمِ الذي هوَ فرضُ عينِكَ بحسَبِ ما يقتضيهِ حالُكَ ، وما يتعلَّقُ منهُ بالأعمالِ الظاهرةِ ؛ مِنْ تعلُّمِ الصلاةِ ، والطهارةِ ، والصومِ .

وإنَّما الأهمُّ الذي أهملَهُ الكلُّ علمُ صفاتِ القلبِ ، وما يحمدُ منها وما يذمُّ ؛ إذْ لا ينفكُّ بَشَرٌ عنِ الصفاتِ المذمومةِ ؛ مِنَ الحرْصِ ، والحسدِ ، والرياءِ ، والكِبْرِ ، والعُجْبِ ، وأخواتِها ، وجميعُ ذلكَ مهلكاتٌ ، وإهمالُها معَ الاشتغالِ بالأعمالِ الظاهرةِ يضاهي الاشتغالَ بطلاءِ ظاهرِ البدنِ عندَ التأذِّي بالجرَبِ والدماميلِ ، والتهاونَ بإخراجِ المادَّةِ بالفصْدِ والإسهالِ .

وحَشْويةُ العلماءِ[1] يشيرونَ بالأعمالِ الظاهرةِ كما يشيرُ الطُّرُقِيَّةُ مِنَ الأطباءِ[2] بطلاءِ ظاهرِ البدنِ ، وعلماءُ الآخرةِ لا يشيرونَ إلا بتطهيرِ الباطنِ

---

(١) وهم الذين يقتنعون بالقشر عن اللباب ، وينظرون إلىٰ ظاهر الأمور دون الاطلاع على الأسرار الباطنة . « إتحاف » (١/ ٢٦٩) .

(٢) وهم الذين يجلسون على الطرق ويداوون الناس علىٰ جهلٍ منهم . « إتحاف » (١/ ٢٦٩) .

وقطْعِ موادِّ الشرِّ ؛ بإفسادِ منابتِها ، وقلْعِ مغارسِها ، وهيَ في القلبِ ، وإنَّما فَزِعَ الأكثرونَ إلى الأعمالِ الظاهرةِ عنْ تطهيرِ القلوبِ لسهولةِ أعمالِ الجوارحِ ، واستصعابِ أعمالِ القلوبِ ؛ كما يفزعُ إلىٰ طلاءِ الظاهرِ مَنْ يستصعِبُ شُرْبَ الأدويةِ المرَّةِ المَقِرَةِ[1] ، فلا يزالُ يتعبُ في الطلاءِ ويزيدُ في الموادِّ ، وتتضاعفُ بهِ الأمراضُ .

فإنْ كنتَ مريداً للآخرةِ ، وطالباً للنجاةِ ، وهارباً مِنْ هلاكِ الأبدِ . . فاشتغلْ بعلْمِ العلَلِ الباطنةِ وعلاجِها ، علىٰ ما فصَّلْناهُ في ربْعِ المهلكاتِ .

ثمَّ ينجرُّ بكَ ذلكَ إلى المقاماتِ المحمودةِ المذكورةِ في ربعِ المنجياتِ لا محالةَ ؛ فإنَّ القلبَ إذا فُرِّغَ مِنَ المذمومِ . . امتلأَ بالمحمودِ ، والأرضَ إذا نُقِّيَتْ منَ الحشيشِ . . نبتَتْ فيها أصنافُ الزروعِ والرياحينِ ، وإنْ لمْ يفرَّغْ مِنْ ذلكَ . . فلا تشتغلْ بفروضِ الكفاياتِ[2] ، لا سيَّما وفي زمرةِ الخلْقِ مَنْ قدْ قامَ بهِ ، فإنَّ مُهلِكَ نفسِهِ في طلبِ صلاحِ غيرِهِ سفيهٌ ، فما أشدَّ حماقةَ مَنْ دخلتِ الأفاعي والعقاربُ داخلَ ثيابِهِ وهمَّتْ بقتلِهِ وهوَ يطلبُ مِذبَّةً[3] يدفعُ بها الذبابَ عَنْ غيرِهِ ممَّنْ لا يغنيهِ ، ولا ينجيهِ ممَّا يلاقيهِ مِنْ تلكَ الحيَّاتِ والعقاربِ إذا هممنَ بهِ !

---

(١) **المقرة** : المرَّة ، والمَقِر : هو الصَّبرُ نفسه ، أو هو السم .

(٢) أي : إن لم يخلُ القلب من ذلك . . فلا تشتغل بفروض الكفايات اشتغالاً كلِّياً . « إتحاف » (١/ ٢٦٩) .

(٣) **المذبَّة** : ما يتَّخذ من شعر ذنب الفرس أو نحوه لدفع الذباب .

وإنْ تفرَّغْتَ مِنْ نفسِكَ وتطهيرِها ، وقَدَرْتَ علىٰ ترْكِ ظاهرِ الإثْمِ وباطنِهِ ، وصارَ ذلكَ ديدناً لكَ وعادةً متيسرةً فيكَ ـ وما أبعدَ ذلكَ منكَ ـ فاشتغلْ بفروضِ الكفاياتِ ، وراعِ التدريجَ فيها :

فابتدِىءْ بكتابِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ بسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ بعلْمِ التفسيرِ وسائرِ علومِ القرآنِ ؛ مِنْ علْمِ الناسخِ والمنسوخِ ، والمفصولِ والموصولِ ، والمحكَمِ والمتشابِهِ .

وكذلكَ في السنةِ .

ثمَّ اشتغلْ بالفروعِ ، وهوَ علْمُ المذهبِ منْ علْمِ الفقهِ دونَ الخلافِ ، ثمَّ بأصولِ الفقهِ ، وهٰكذا إلىٰ بقيَّةِ العلومِ علىٰ ما يتسعُ لهُ العمُرُ ، ويساعدُ فيهِ الوقتُ .

ولا تستغرقْ عمرَكَ في فنٍّ واحدٍ منها طالباً للاستقصاءِ ؛ فإنَّ العلمَ كثيرٌ والعمرَ قصيرٌ، وهٰذهِ العلومُ آلاتٌ ومقدماتٌ ، وليستْ مطلوبةً لعينِها بلْ لغيرِها، وكلُّ ما يطلبُ لغيرِهِ . . فلا ينبغي أنْ يُنسىٰ فيهِ المطلوبُ ويُستكثرَ منهُ .

فاقتصرْ مِنْ شائعِ **علْمِ اللغةِ** علىٰ ما تفهمُ بهِ كلامَ العربِ وتنطقُ بهِ ، ومنْ غريبِهِ علىٰ غريبِ القرآنِ وغريبِ الحديثِ ، ودعِ التعمُّقَ فيهِ .

واقتصرْ مِنَ **النحوِ** علىٰ ما يتعلَّقُ بالكتابِ والسنَّةِ ، فما مِنْ علْمٍ إلا ولهُ اقتصارٌ واقتصادٌ واستقصاءٌ ، ونحنُ نشيرُ إليها في الحديثِ والتفسيرِ والفقْهِ والكلامِ لتقيسَ بها غيرَها :

فالاقتصارُ في **التفسيرِ** : ما يبلُغُ ضعفَ القرآنِ في المقدارِ ، كما صنَّفَهُ عليٌّ الواحديُّ النيسابوريُّ وهوَ « الوجيزُ » ، والاقتصادُ ما يبلغُ ثلاثةَ أضعافِ القرآنِ كما صنَّفَهُ مِنَ « الوسيطِ » فيهِ ، وما وراءَ ذلكَ استقصاءٌ مستغنىً عنهُ ، ولا مردَّ لهُ إلى انتهاءِ العمرِ .

وأمَّا **الحديثُ** : فالاقتصارُ فيهِ تحصيلُ ما في « الصحيحينِ » بتصحيحِ نسخةٍ علىٰ رجلٍ خبيرٍ بعلْمِ متْنِ الحديثِ .

وأمَّا حفظُ أسامي الرجالِ . . فقدْ كفيتَ فيهِ بما تحمَّلَهُ عنكَ مَنْ قبلَكَ ، ولكَ أنْ تعوِّلَ علىٰ كتبِهِمْ ، وليسَ يلزمُكَ حفظُ متونِ « الصحيحين » ، ولكنْ تحصِّلُهُ تحصيلاً تقدرُ منهُ علىٰ طلبِ ما تحتاجُ إليهِ عندَ الحاجةِ .

وأمَّا الاقتصادُ فيهِ . . فأنْ تضيفَ إليهما ما خرجَ عنهما ممَّا أُورِدَ في المسنداتِ الصحيحةِ .

وأمَّا الاستقصاءُ . . فما وراءَ ذلكَ إلى استيعابِ كلِّ ما نُقِلَ منَ الضعيفِ والقويِّ ، والصحيحِ والسقيمِ ، معَ معرفةِ الطرقِ الكثيرةِ في النقلِ ، ومعرفةِ أحوالِ الرجالِ وأساميهِمْ وأوصافِهِمْ .

وأمَّا **الفقهُ** : فالاقتصارُ فيه علىٰ ما يحويهِ مختصرُ المزنيِّ رحمَهُ اللهُ ، وهوَ الذي رتبناهُ في « خلاصةُ المختصرِ »[1] ، والاقتصادُ فيهِ ما يبلغُ ثلاثةَ

---

(١) ويسمَّىٰ « خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر » وقد صدر عن دار المنهاج بحمد الله تعالىٰ .

أمثالِهِ ، وهوَ القدْرُ الذي أوردناهُ في « الوسيطُ مِنَ المذهبِ » ، والاستقصاءُ ما أوردناهُ في « البسيطُ » ، إلىٰ ما وراءَ ذلكَ مِنَ المطولاتِ .

وأما **الكلامُ** : فمقصودُهُ حمايةُ المعتقداتِ التي نقلَها أهلُ السنَّةِ مِنَ السلفِ الصالحِ لا غيرَ ، وما وراءَ ذلكَ طلبٌ لكشْفِ حقائقِ الأمورِ مِنْ غيرِ طريقِهِ .

ومقصودُ حفْظِ السنَّةِ تحصُلُ رتبةُ الاقتصارِ منهُ بمعتقدٍ مختصرٍ ، وهوَ القدْرُ الذي أوردْناهُ في كتابِ قواعد العقائد من جملةِ هـٰذهِ الكتبِ[1] ، والاقتصادُ فيهِ ما يبلغُ قدْرَ مئةِ ورقةٍ ، وهوَ الذي أوردناهُ في كتابِ « الاقتصادُ في الاعتقادِ » ، ويُحتاجُ إليهِ لمناظرةِ مبتدعٍ ومعارضةِ بدعتِهِ بما يفسدُها وينزعُها عنْ قلْبِ العاميِّ ، وذلكَ لا ينفعُ إلا معَ العوامِّ قبلَ اشتدادِ تعصُّبِهِمْ .

أما المبتدِعُ بعدَ أنْ يعلمَ مِنَ الجدلِ ولوْ شيئاً يسيراً . . فقلَّما ينفعُ معهُ الكلامُ ؛ فإنَّكَ إنْ أفحمتَهُ . . لمْ يتركْ مذهبَهُ ، وأحالَ بالقصورِ علىٰ نفسِهِ ، وقدَّرَ أنَّ فيهِ عندَهُ جواباً هوَ عاجزٌ عنهُ ، وإنَّما أنتَ ملبِّسٌ بقوَّةِ المجادلةِ عليهِ .

وأمَّا العاميُّ إذا صُرِفَ عنِ الحقِّ بنوعِ جدلٍ . . فيمكنُ أنْ يُرَدَّ إليهِ بمثلِهِ قبلَ أنْ يشتدَّ التعصُّبُ للأهواءِ ، فإذا اشتدَّ تعصُّبُهمْ . . وقعَ اليأسُ عنهُمْ ؛ إذِ التعصُّبُ سببٌ يرسِّخُ العقائدَ في النفوسِ ، وهـٰذا أيضاً من آفاتِ العلماءِ

---

(١) أي : من الكتب الأربعين من « الإحياء » ، وكتاب (قواعد العقائد) هو الكتاب الثاني منها .

السوءِ ؛ فإنَّهُمْ يبالغونَ في التعصُّبِ للحقِّ ، وينظرونَ إلى المخالفينَ بعينِ الازدراءِ والاستحقارِ ، فينبعثُ منهُمُ الدواعي بالمكافأةِ والمقابلةِ ، وتتوفَّرُ بواعثُهُمْ علىٰ طلبِ نصرةِ الباطلِ ، ويقوىٰ غرضُهُمْ في التمسُّكِ بما نُسبوا إليهِ ، ولوْ جاؤوا مِنْ جانبِ اللطْفِ والرحمةِ والنصْحِ في الخلوةِ لا في معرضِ التعصُّبِ والتحقيرِ . . لأنجحوا فيهِ .

ولكنْ لمَّا كانَ الجاهُ لا يقومُ إلا بالاستتباعِ ، ولا يستميلُ الأتباعَ مثلُ التعصُّبِ واللعْنِ والشتمِ للخصومِ . . اتخذوا التعصُّبَ عادتَهُمْ وآلتَهُمْ ، وسمَّوهُ ذبّاً عنِ الدينِ ونضالاً عنِ المسلمينَ ، وفيهِ على التحقيقِ هلاكُ الخلْقِ ورسوخُ البدعةِ في النفوسِ .

وأما الخلافياتُ[1] التي أُحدثتْ في هـٰذهِ الأعصارِ المتأخرةِ ، وأُبدعَ فيها مِنَ التحريراتِ والتصنيفاتِ والمجادلاتِ ما لمْ يعهدْ مثلُها في السلفِ . . فإيَّاكَ وأنْ تحومَ حولَها ، واجتنبْها اجتنابَ السمِّ القاتلِ ؛ فإنَّها الداءُ العضالُ ، وهوَ الذي ردَّ الفقهاءَ كلَّهُمْ إلىٰ طلبِ المنافسةِ والمباهاةِ ، علىٰ ما سيأتيكَ تفصيلُ غوائلِها وآفاتِها .

وهـٰذا الكلامُ ربَّما يسمعُ مِنْ قائلِهِ فيقالُ : (الناسُ أعداءُ ما جهلوا) ، فلا تظنَّنَّ ذلكَ ، فعلى الخبيرِ سقطتَ ، فاقبلْ هـٰذهِ النصيحةَ ممَّنْ ضيَّعَ العمرَ فيهِ زماناً ، وزادَ فيهِ على الأوَّلينَ تصنيفاً وتحقيقاً وجدلاً وبياناً ، ثمَّ

---

(١) وهي المسائل التي فيها خلاف المذاهب . « إتحاف » (١/ ٢٧٥) .

ألهمَهُ اللهُ رشدَهُ وأطلعَهُ علىٰ عيبِهِ ، فهجرَهُ واشتغلَ بنفسِهِ .

ولا يغرنَّكَ قولُ مَنْ يقولُ : (الفتوىٰ عمادُ الشرْعِ ، ولا تُعرفُ عللُهُ إلا بعلمِ الخلافِ) ؛ فإنَّ عللَ المذهبِ مذكورةٌ في المذهبِ ، والزيادةُ عليها مجادلاتٌ لمْ يعرفْها الأوَّلونَ ولا الصحابةُ ، وكانوا أعلمَ بعللِ الفتاوىٰ مِنْ غيرِهمْ ، بلْ هيَ معَ أنَّها غيرُ مفيدةٍ في علمِ المذهبِ . ضارَّةٌ مفسدةٌ لذوقِ الفقهِ ؛ فإنَّ الذي يشهدُ لهُ حدسُ المفتي إذا صحَّ ذوقُهُ في الفقهِ . . لا يمكنُ تمشيتُهُ علىٰ شروطِ الجدلِ في أكثرِ الأمرِ ، فمَنْ ألفَ طبعُهُ رسومَ الجدلِ . . أذعنَ ذهنُهُ لمقتضياتِ الجدلِ ، وجبنَ عنِ الإذعانِ لذوقِ الفقهِ ، وإنَّما يشتغلُ بهِ مَنْ يشتغلُ لطلبِ الصيتِ والجاهِ ، ويتعلَّلُ بأنَّهُ يطلبُ عللَ المذهبِ ، وقدْ ينقضي عليهِ العمرُ ولا يصرفُ همَّتَهُ إلىٰ علمِ المذهبِ .

فكُنْ مِنْ شياطينِ الجنِّ في أمانٍ ، واحترزْ مِنْ شياطينِ الإنسِ ؛ فإنَّهمْ أراحوا شياطينَ الجنِّ مِنَ التعبِ في الإغواءِ والإضلالِ .

وبالجملةِ : فالمرضِيُّ عندَ العقلاءِ أنْ تقدِّرَ نفسَكَ في العالَمِ وحدَكَ معَ اللهِ ، وبينَ يديكَ الموتُ والعرْضُ والحسابُ والجنَّةُ والنارُ ، وتأمَّلْ فيما يعنيكَ ممَّا بينَ يديكَ ، ودعْ عنكَ ما سواهُ ، والسلامُ .

وقدْ رأىٰ بعضُ الشيوخِ بعضَ العلماءِ في المنامِ ، فقالَ لهُ : ما خبرُ تلكَ العلومِ التي كنتَ تجادلُ فيها وتناظرُ عليها ؟ فبسطَ يدَهُ ونفخَ فيها وقالَ :

طاحتْ كلُّها هباءً منثوراً ، وما انتفعتُ إلا بركعتينِ خلُصتا لي في جوفِ الليلِ !(١) .

وفي الحديثِ : « ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدىً كانُوا عليهِ إلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ »(٢) ، ثمَّ قرأَ : ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ .

وفي الحديثِ في معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ الآية : هُمْ أهلُ الجدلِ الذينَ عناهُمُ اللهُ تعالىٰ بقولِهِ : ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾(٣) .

وقالَ بعضُ السلفِ : (يكونُ في آخرِ الزمانِ قومٌ يغلقُ عنهُمْ بابُ العملِ ، ويفتحُ عليهِمْ بابُ الجدلِ)(٤) .

وفي بعضِ الأخبارِ : (إنَّكم في زمانٍ أُلهمتُمْ فيهِ العملَ ، وسيأتي قومٌ يُلْهَمُونَ الجدلَ)(٥) .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٢) ، و« حلية الأولياء » (١٠/ ٢٥٧) .

(٢) رواه الترمذي (٣٢٥٣) ، وابن ماجه (٤٨) .

(٣) روى البخاري (٤٥٤٧) ، ومسلم (٢٦٦٥) مرفوعاً : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه . . فأولئك الذين سَمَّى الله ، فاحذروهم » .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٣٨) .

(٥) قوت القلوب (١/ ١٣٨) ، وقول الحافظ العراقي : (لم أجده) في « تخريجه » فعلى احتمال رفعه ، ولكن الأمر ليس كذلك ، وهو قريب من قول الأوزاعي كما في « اقتضاء العلم العمل » (١٢٢) : (إذا أراد الله بقوم شراً . . فتح عليهم الجدل ومنعهم العمل) .

وفي الخبرِ المشهورِ : « أبغضُ الخلقِ إلى اللهِ تعالى الألَدُّ الْخَصِمُ »[1] .

وفي الخبرِ : « ما أُوتِيَ قومٌ المنطقَ إلاَّ مُنِعُوا العملَ »[2] ، واللهُ أعلمُ .

* * *

(١) رواه البخاري (٢٤٥٧) ،ومسلم (٢٦٦٨) .

(٢) قال صاحب « القوت » (١/ ١٣٨) : (روى الحكم بن عيينة ، عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلىٰ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أوتي . . . ») وشواهده ما سبق .

البَابُ الرَّابِعُ
في سببِ إقبالِ الخلقِ على علمِ الخلافِ وتفصيلِ آفاتِ المناظرةِ والجدلِ وشروطِ إباحتِها

اعلمْ : أنَّ الخلافةَ بعدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تولاَّها الخلفاءُ الراشدونَ المهديُّونَ ، وكانوا أئمَّةً علماءَ باللهِ تعالىٰ ، وفقهاءَ في أحكامِهِ ، ومستقلينَ بالفتاوىٰ في الأقضيةِ ، فكانوا لا يستعينونَ بالفقهاءِ إلا نادراً ، في وقائعَ لا يُستغنىٰ فيها عنِ المشاورةِ ، فتفرَّغَ العلماءُ لعلْمِ الآخرةِ وتجرَّدوا لها ، وكانوا يتدافعونَ الفتاوىٰ وما يتعلَّقُ بأحكامِ الخلْقِ مِنَ الدنيا ، وأقبلوا على اللهِ تعالىٰ بكُنْهِ اجتهادِهِمْ ، كما نُقِلَ منْ سيرِهِمْ[1] .

فلمَّا أفضتِ الخلافةُ بعدَهُمْ إلىٰ أقوامٍ تولَّوها بغيرِ استحقاقٍ ، ولا استقلالَ لهُمْ بعلمِ الفتاوىٰ والأحكام . . اضطُرُّوا إلى الاستعانةِ بالفقهاءِ ، وإلى استصحابِهِمْ في جميعِ أحوالِهِمْ ؛ لاستفتائِهِمْ في مجاري أحكامِهِمْ .

---

(١) كما في « سنن الدارمي » (١٣٧) : قال عبد الرحمٰن بن أبي ليلىٰ : (لقد أدركت في هٰذا المسجد عشرين ومئة من الأنصار ، وما منهم أحد يحدِّث بحديث إلا ودَّ أن أخاه كفاه الحديث ، ولا يسأل عن فتيا إلا ودَّ أن أخاه كفاه الفتيا) .

وكانَ قدْ بقيَ مِنْ علماءِ التابعينَ مَنْ هوَ مستمرٌّ على الطرازِ الأوَّلِ ، وملازمٌ صفوَ الدينِ ، ومواظبٌ علىٰ سمتِ علماءِ السلفِ ، فكانوا إذا طُلبوا . . هربوا وأعرضوا ، فاضطرَّ الخلفاءُ إلى الإلحاحِ في طلبِهِمْ لتوليةِ القضاءِ والحكوماتِ .

فرأىٰ أهلُ تلكَ الأعصارِ عِزَّ العلماءِ وإقبالَ الأئمَّةِ والولاةِ عليهِمْ معَ إعراضِهِمْ عنهُمْ ، فاشرأبُّوا لطلبِ العلمِ ، توصُّلاً إلىٰ نيلِ العزِّ ودرْكِ الجاهِ مِنْ قِبَلِ الولاةِ ، فأكبُّوا علىٰ علْمِ الفتاوىٰ ، وعَرَضوا أنفسَهُمْ على الولاةِ ، وتعرَّفوا إليهِمْ ، وطلبوا الولاياتِ والصلاتِ منهُمْ ، فمنهُمْ مَنْ حُرِمَ ومنهُمْ مَنْ أَنْجَحَ ، والمنجِحُ لمْ يخلُ عَنْ ذلِّ الطلبِ ومهانةِ الابتذالِ ، فأصبحَ الفقهاءُ بعدَ أنْ كانوا مطلوبينَ طالبينَ ، وبعدَ أنْ كانوا أعزَّةً بالإعراضِ عنِ السلاطينِ أذلَّةً بالإقبالِ عليهِمْ ، إلا مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تعالىٰ في كلِّ عصْرٍ مِنْ علماءِ دينِهِ .

وقدْ كانَ أكثرُ الإقبالِ في تلكَ الأعصارِ علىٰ علْمِ الفتاوىٰ والأقضيةِ ؛ لشدَّةِ الحاجةِ إليها في الولاياتِ والحكوماتِ .

ثمَّ ظهرَ بعدَهُمْ منَ الصدورِ والأمراءِ مَنْ سَمِعَ مقالاتِ الناسِ في قواعدِ العقائدِ ، ومالتْ نفسُهُ إلىٰ سماعِ الحُجَجِ فيها ، فغلبَتْ رغبتُهُ إلى المناظرةِ والمجادلةِ في الكلامِ ، فأكبَّ الناسُ علىٰ علمِ الكلامِ ، وأكثروا فيهِ التصانيفَ ، ورتَّبوا فيه طرقَ المجادلاتِ ، واستخرجوا فنونَ المناقضاتِ في

المقالاتِ ، وزعموا : أنَّ غرضَهُمْ الذبُّ عنْ دينِ اللهِ ، والنضالُ عنِ السنَّةِ ، وقمعُ المبتدعةِ ؛ كما زعمَ مَنْ قبلَهُمْ أنَّ غرضَهُمُ بالاشتغالِ بالفتاوى الدينُ ، وتقلُّدُ أحكامِ المسلمينَ ؛ إشفاقاً علىٰ خلْقِ اللهِ ونصيحةً لهُمْ .

ثمَّ ظهرَ بعدَ ذلكَ منَ الصدورِ مَنْ لمْ يستصوبِ الخوضَ في الكلامِ وفتْحَ بابِ المناظرةِ فيهِ ؛ لما كانَ قدْ تولَّدَ مِنْ فتحِ بابِهِ منَ التعصُّباتِ الفاحشةِ والخصوماتِ الفاشيةِ المفضيةِ إلىٰ إهراقِ الدماءِ وتخريبِ البلادِ ، ومالتْ نفسُهُ إلى المناظرةِ في الفقْهِ ، وبيانِ الأَوْلىٰ مِنْ مذهبِ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُما على الخصوصِ ، فتركَ الناسُ الكلامَ وفنونَ العلمِ ، وانثالوا على المسائلِ الخلافيةِ بينَ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُما على الخصوصِ ، وتساهلُوا في الخلافِ معَ مالكٍ وسفيانَ الثوريِّ وأحمدَ وغيرِهِمْ رحمهُمُ اللهُ تعالىٰ ، وزعموا أنَّ غرضَهُمُ استنباطُ دقائقِ الشرعِ وتقريرُ عللِ المذهبِ ، وتمهيدُ أصولِ الفتاوىٰ ، وأكثروا فيها التصانيفَ والاستنباطاتِ ، ورتَّبوا فيها أنواعَ المجادلاتِ والتصنيفاتِ ، وهُمْ مستمرُّونَ عليهِ إلى الآنَ[1] ، ولسنا ندري ما الذي يحدثُ اللهُ فيما بعدَنا مِنَ الأعصارِ .

فهٰذا هوَ الباعثُ على الإكبابِ على الخلافياتِ والمناظراتِ لا غيرَ، ولوْ مالتْ نفوسُ أربابِ الدنيا إلى الخلافِ معَ إمامٍ آخرَ مِنَ الأئمَّةِ ، أو إلىٰ علْمٍ

---

(١) أي : إلىٰ زمن تأليف الكتاب ، وهو سنة ثمان وتسعين وأربع مئة . « إتحاف » (١/ ٢٨٢) .

آخرَ مِنَ العلومِ.. لمالوا أيضاً معهُمْ ، ولمْ يسكتُوا عنِ التعلُّلِ بأنَّ ما اشتغلوا بهِ هوَ علمُ الدينِ ، وأنْ لا مطلبَ لهُمْ سوى التقرُّبِ إلىٰ ربِّ العالمينَ .

بيان التلبيس في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف

اعلمْ : أنَّ هؤلاءِ قدْ يستدرجونَ الناسَ إلىٰ ذلكَ بأنَّ غرضَنا مِنَ المناظراتِ المباحثةُ عنِ الحقِّ ليتضحَ ؛ فإنَّ الحقَّ مطلوبٌ ، والتعاونَ على النظرِ في العلمِ وتواردَ الخواطرِ مفيدٌ ومؤثرٌ ، وهٰكذا كانَ عادةُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ في مشاوراتِهِمْ ؛ كتشاورِهِمْ في مسألةِ الجدِّ والإخوةِ ، وحدِّ شرْبِ الخمْرِ ، ووجوبِ الغرْمِ على الإمامِ إذا أخطأَ ؛ كما نُقِلَ مِنْ إجهاضِ المرأةِ جنينَها خوفاً مِنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ، وكما نُقِلَ مِنْ مسائلِ الفرائضِ وغيرِها، وما نُقِلَ عنِ الشافعيِّ وأحمدَ ومحمدِ بنِ الحسنِ ، ومالكٍ وأبي يوسفَ ، وغيرِهم مِنَ العلماءِ رحمهُمُ اللهُ تعالىٰ .

ويطلعُكَ علىٰ هٰذا التلبيسِ ما أذكرُهُ ، وهوَ أنَّ التعاونَ علىٰ طلبِ الحقِّ مِنَ الدينِ ، ولكنْ لهُ **شروطٌ وعلاماتٌ ثمانٍ** :

الأوَّلُ: ألاَّ يشتغلَ بهِ وهوَ مِنْ فروضِ الكفاياتِ مَنْ لمْ يتفرَّغْ مِنْ فروضِ الأعيانِ:

ومَنْ عليهِ فرضُ عينٍ فاشتغلَ بفرضِ الكفايةِ ، وزعمَ أنَّ مقصودَهُ الحقُّ.. فهوَ كذَّابٌ ، ومثالُهُ مثالُ مَنْ يتركُ الصلاةَ في نفسِهِ ويتَّجِرُ في تحصيلِ الثيابِ ونسْجِها ويقولُ : غَرضي بهِ سترُ عورةِ مَنْ يصلِّي عُرياناً ولا يجدُ ثوباً !

فإنَّ ذلكَ ربَّما يتفقُ ، ووقوعُهُ ممكنٌ ، كما يزعمُ الفقيهُ أنَّ وقوعَ النوادرِ التي عنها البحثُ في الخلافِ ممكنٌ ، والمشتغلونَ بالمناظرةِ مهملونَ لأمورٍ هيَ فرضُ عينٍ بالاتفاقِ .

ومَنْ توجَّهَ عليهِ ردُّ وديعةٍ في الحالِ ، فقامَ وتحرَّمَ بالصلاةِ التي هيَ أقربُ القرباتِ إلى اللهِ تعالىٰ . . عصىٰ ربَّهُ بذلكَ ، فلا يكفي في كونِ الشخصِ مطيعاً كونُ فعلِهِ منْ جنْسِ الطاعاتِ ما لمْ يراعِ فيهِ الوقتَ والشرطَ والترتيبَ .

الثاني : ألاَّ يرىٰ فرضَ كفايةٍ أهمَّ مِنَ المناظرةِ :

فإنْ رأىٰ ما هوَ أهمُّ وفعلَ غيرَه . . عصىٰ بفعلِهِ ، وكانَ مثالُهُ مثالَ مَنْ يرىٰ جماعةً مِنَ العطاشِ أشرفوا على الهلاكِ وقدْ أهملَهُمُ الناسُ وهوَ قادرٌ علىٰ إحيائِهم بأنْ يسقيَهم الماءَ ، فاشتغلَ بتعلُّمِ الحجامةِ وزعمَ أنَّهُ منْ فروضِ الكفاياتِ ، ولوْ خلا البلدُ عنها . . لهلكَ الناسُ ، وإذا قيلَ : في البلدِ جماعةٌ مِنَ الحجَّامينَ وفيهِمْ غنيةٌ . . فيقولُ : وهـٰذا لا يُخرِجُ هـٰذا الفعلَ عنْ كونِهِ فرضَ كفايةٍ .

فحالُ مَنْ يفعلُ هـٰذا ويهملُ الاشتغالَ بالواقعةِ الملمَّةِ بجماعةِ العطاشِ مِنَ المسلمينَ . . كحالِ المشتغلِ بالمناظرةِ وفي البلدِ فروضُ كفاياتٍ مهملةٌ لا قائمَ بها .

وأما الفتوىٰ . . فقدْ قامَ بها جماعةٌ ولا يخلو بلدٌ عنْ جملةٍ مِنَ الفروضِ المهملةِ ولا يلتفتُ الفقهاءُ إليها ، وأقربُها الطبُّ ؛ إذْ لا يوجدُ في أكثرِ البلادِ طبيبٌ مسلمٌ يجوزُ اعتمادُ شهادتِهِ فيما يعوَّلُ علىٰ قولِ الطبيبِ فيهِ شرعاً ، ولا يرغبُ أحدٌ منَ الفقهاءِ في الاشتغالِ بهِ .

وكذا الأمرُ بالمعروفِ والنهْيُ عنِ المنكرِ وهوَ مِنْ فروضِ الكفاياتِ ، وربَّما يكونُ المناظرُ في مجلسِ مناظرتِهِ مشاهداً للحريرِ ملبوساً ومفروشاً وهوَ ساكتٌ ، ويناظرُ في مسألةٍ لا يتفقُ وقوعُها قطُّ ، وإنْ وقعتْ . . قامَ بها جماعةٌ مِنَ الفقهاءِ ، ثمَّ يزعمُ أنَّهُ يريدُ أنْ يتقرَّبَ إلى اللهِ تعالىٰ بفرضِ الكفايةِ .

وقدْ روىٰ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّه قِيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ متىٰ يُتركُ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عنِ المنكَرِ ؟ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا ظهرَ الإدْهانُ في خيارِكُمْ ، والفاحِشَةُ في شِرَارِكُمْ ، وتحَوَّلَ المُلْكُ في صغارِكُمْ ، والفِقهُ في أرذالِكمْ »[1] .

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٥) ، والمراد بالإدهان هنا : الملاينة في الكلام ، من المداهنة التي ترفع المناصحة ، ولفظ الإدهان عند أبي نعيم في « الحلية » (٥/ ١٨٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٠٤٨) .

الثالثُ : أنْ يكونَ المناظرُ مجتهداً بذاتِهِ :

يفتي برأيهِ لا بمذهبِ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ وغيرِهما ، حتَّىٰ إذا ظهرَ لهُ الحقُّ في مذهبِ أبي حنيفةَ . . تركَ ما يوافقُ مذهبَ الشافعيِّ وأفتىٰ بما ظهرَ لهُ ، كما كانَ يفعلُهُ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ والأئمةُ .

فأمَّا مَنْ ليسَ لهُ رتبةُ الاجتهادِ ـ **وهوَ حكْمُ جميعِ أهلِ العصرِ** ـ وإنَّما يفتي فيما يُسألُ عنهُ ناقلاً عَنْ مذهبِ صاحبِهِ ، فلوْ ظهرَ لهُ ضعفُ مذهبِهِ لمْ يجزْ لهُ أنْ يتركَهُ . . فأيُّ فائدةٍ لهُ في المناظرةِ ومذهبُهُ معلومٌ وليسَ لهُ الفتوىٰ بغيرِهِ ؟!

وما يشكلُ عليهِ يلزمُهُ أنْ يقولَ : لعلَّ عندَ صاحبِ مذهبي جواباً عنْ هـٰذا ، فإنِّي لسْتُ مستقلاً بالاجتهادِ في أصلِ الشرعِ .

ولوْ كانتْ مباحثتُهُ عنِ المسائلِ التي فيها وجهانِ أوْ قولانِ لصاحبِهِ . . لكانَ أشبَهَ ؛ فإنَّهُ ربَّما يفتي بأحدِهِما فيستفيدُ منَ البحثِ ميلاً إلىٰ أحدِ الجانبين ولا يرى المناظراتِ جاريةً فيها قطُّ ، بلْ ربَّما تركَ المسألةَ التي فيها وجهانِ أوْ قولانِ وطلبَ مسألةً يكونُ الخلافُ فيها مبتوتاً .

❁ ❁ ❁

الرابعُ : ألا يناظرَ إلا في مسألةٍ واقعةٍ أوْ قريبةِ الوقوعِ غالباً :

فإنَّ الصحابةَ رضيَ اللهُ عنهُمْ ما تشاوروا إلا فيما تجدَّدَ مِنَ الوقائعِ ، أوْ ما يغلبُ وقوعُهُ كالفرائضِ ، ولا ترى المناظرينَ يهتمونَ بانتقادِ المسائلِ التي

تعمُّ البلوىٰ بالفتوىٰ فيها ، بلْ يطلبونَ الطبوليَّاتِ[1] التي يتَّسِعُ مجالُ الجدلِ فيها كيفما كانَ الأمرُ ، وربَّما يتركونَ ما يكثرُ وقوعُهُ ويقولونَ : هٰذهِ مسألةٌ خبريَّةٌ[2] ، أوْ هيَ منَ الزوايا وليستْ مِنَ الطبوليَّاتِ .

فمِنَ العجائبِ أنْ يكونَ المطلَبُ هوَ الحقَّ ثمَّ يتركونَ المسألةَ لأنَّها خبريَّةٌ ومدركُ الحقِّ فيها هوَ الأخبارُ ، أوْ لأنَّها ليستْ مِنَ الطبولِ !

فلا نطوِّلُ فيها الكلامَ ، والمقصودُ في الحقِّ أنْ يقصرَ الكلامُ ويبلغَ الغايةَ على القربِ ، لا أنْ يَطُولَ .

❀ ❀ ❀

الخامسُ : أنْ تكونَ المناظرةُ في الخلوةِ أحبَّ إليهِ وأهمَّ مِنَ المحافلِ وبينَ أظْهُرِ الأكابرِ والسلاطينِ :

فإنَّ الخلوةَ أجمعُ للهمِّ ، وأحرىٰ بصفاءِ الذهنِ والفكرِ ودرْكِ الحقِّ ، وفي حضورِ الجمْعِ ما يحرِّكُ دواعيَ الرياءِ ويوجبُ الحرْصَ علىٰ نصرَةِ كلِّ واحدٍ مِنَ المتناظرَيْنِ نفسَهُ محقّاً كانَ أوْ مبطلاً ، وأنتَ تعلمُ أنَّ حرصَهُمْ على المحافلِ والمجامعِ ليسَ للهِ ، وأنَّ الواحدَ منهُمْ يخلو بصاحبِهِ مدَّةً طويلةً

---

(١) التي يُدَقُّ لها بالطبل ، وهي كناية عن الاشتهار والاجتماع لها . « إتحاف » (١/٢٨٨) .

(٢) قد أخبر بها فلان من الشيوخ ، ونصَّ عليها فلان في الكتاب الفلاني . « إتحاف » (١/٢٨٨) .

فلا يكلمُهُ، وربَّما يقترحُ عليهِ فلا يجيبُ، فإذا ظهرَ مقدَمٌ[1] أوِ انتظمَ مجمَعٌ . . لمْ يغادرْ في قوسِ الاحتيالِ منزعاً حتَّىٰ يكونَ هوَ المتخصِّصَ بالكلامِ .

السادسُ : أنْ يكونَ في طلبِ الحقِّ كناشدِ ضالَّةٍ :

لا يفرِّقُ بينَ أنْ تظهرَ الضالَّةُ علىٰ يدِهِ أوْ علىٰ يدِ مَنْ يعاونُهُ ، ويرىٰ رفيقَهُ معيناً لا خصْماً ، ويشكرُهُ إذا عرَّفَهُ الخطأَ وأظهرَ لهُ الحقَّ ؛ كما لوْ أخذَ طريقاً في طلبِ ضالَّتِهِ ، فنبَّهَهُ صاحبُهُ علىٰ ضالَّتِهِ في طريقٍ آخرَ ، فإنَّهُ كانَ يشكرُهُ ولا يذمُّهُ ، ويفرحُ بهِ ويكرمُهُ .

فهكذا كانتْ مشاوراتُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، حتَّىٰ ردَّتِ امرأةٌ علىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ونبَّهتْهُ على الحقِّ وهوَ في خطبتِهِ علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ ، فقالَ : (أصابتِ امرأةٌ وأخطأَ رجلٌ)[2] .

وسألَ رجلٌ عليّاً رضيَ اللهُ عنهُ ، فأجابَهُ ، فقالَ : ليسَ كذلكَ يا أميرَ المؤمنينَ ، ولكنْ كذا وكذا ، فقالَ : أصبتَ وأخطأتُ ، وفوقَ كلِّ ذي علْمٍ عليمٌ[3] .

واستدركَ ابنُ مسعودٍ علىٰ أبي موسى الأشعريِّ رضيَ اللهُ عنهُما ، فقالَ

---

(١) مصدر ميمي ؛ أي : قدوم أحد من الرؤساء فاجتمعوا لملاقاة القادم . « إتحاف » (١/ ٢٨٩) .

(٢) المقاصد الحسنة (ص٣٢٠) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٨٦٥) .

أبو موسىٰ : لا تسألوني عنْ شيءٍ وهـٰذا الحبرُ بينَ أظهرِكُمْ[1] ؛ وذلَك لمَّا سُئِلَ أبو موسىٰ عنْ رجلٍ قاتلَ في سبيلِ اللهِ فقُتِلَ ، فقالَ : هوَ في الجنَّةِ ، وكانَ أميرَ الكوفةِ[2] ، فقالَ ابنُ مسعودٍ : أعدْهُ على الأميرِ ، فلعلَّهُ لمْ يفهمْ ، فأعادَ وأعادَ الجوابَ ، فقالَ ابنُ مسعودٍ : أنا أقولُ : إنْ قُتِلَ فأصابَ الحقَّ . . فهوَ في الجنَّةِ ، فقال أبو موسىٰ : هوَ ما قالَ[3] .

وهكذا يكونُ إنصافُ طالبِ الحقِّ ، ولوْ ذكرَ الآنَ مثلُ هـٰذا لأقلِّ فقيهٍ . . لأنكرَهُ واستبعدَهُ ، وقالَ : لا يحتاجُ إلىٰ أنْ يقالَ : أصابَ الحقَّ ؛ فإنَّ ذلك معلومٌ لكلِّ أحدٍ[4] .

فانظرْ إلىٰ مناظري زمانِكَ الآنَ كيفَ يسوَدُّ وجْهُ أحدِهِمْ إذا اتضحَ الحقُّ علىٰ لسانِ خصمِهِ ، وكيفَ يخجلُ بهِ ، وكيفَ يجتهدُ في مجاحدتِهِ بأقصىٰ قدرتِهِ ، وكيفَ يذمُّ مَنْ أفحمَهُ طولَ عمرِهِ ، ثمَّ لا يستحيي مِنْ تشبيهِ نفسِهِ بالصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ في تعاونِهِمْ على النظرِ في الحقِّ !

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٦٠٧) .

(٢) أي : إن أبا موسى الأشعري كان أميراً على الكوفة .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٤٨) .

(٤) هـٰذا القيد الذي أتىٰ به ابن مسعود رضي الله عنه هو المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم علىٰ ما أخرجه البخاري : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا . . فهو في الجنة » . « إتحاف » (١/ ٢٩٠) .

السابعُ : ألا يمنعَ معينَهُ في النظرِ مِنَ الانتقالِ من دليلٍ إلىٰ دليلٍ ، ومِنْ إشكالٍ إلىٰ إشكالٍ :

فهكذا كانتْ مناظراتُ السلفِ ، ويُخرجُ مِنْ كلامِهِ جميعَ دقائقِ الجدلِ المبتدعةِ ، فما لهُ ولقولِهِ : هـٰذا لا يلزمُني ذكرُهُ ، وهـٰذا يناقضُ كلامَكَ الأوَّلَ فلا يقبلُ منكَ ؛ فإنَّ الرجوعَ إلى الحقِّ أبداً يكونُ مناقضاً للباطلِ ، ويجبُ قبولُهُ .

وأنتَ ترىٰ أنَّ جميعَ المجالسِ تنقضي في المدافعاتِ والمجادلاتِ ، حتَّىٰ يقيسُ المستدلُّ علىٰ أصلٍ بعلَّةٍ يظنُّها ، فيقالُ لهُ : وما الدليلُ علىٰ أنَّ الحكمَ في الأصلِ معلَّلٌ بهـٰذهِ العلةِ ؟ فيقولُ : هـٰذا ما ظهرَ لي ، فإنْ ظهرَ لكَ ما هوَ أوضحُ وأولىٰ منهُ . . فاذكرْهُ حتَّىٰ أنظرَ فيهِ ، فيُصِرُّ المعترضُ ويقولُ : فيهِ معانٍ سوىٰ ما ذكرتَهُ ، وقدْ عرفتُها ولا أذكرُها ؛ إذْ لا يلزمُني ذكرُها ، ويقولُ المستدلُّ : عليكَ إيرادُ ما تدعيهِ وراءَ هـٰذا ، ويصرُّ المعترضُ علىٰ أنَّهُ لا يلزمُهُ ، ويتوخَّىٰ مجالسَ المناظرةِ بهـٰذا الجنسِ مِنَ السؤالِ وأمثالِهِ .

ولا يعرفُ هـٰذا المسكينُ أنَّ قولَهُ : (إنِّي أعرفُ ولا أذكرُهُ إذْ لا يلزمُني) . . كذبٌ على الشرعِ ؛ فإنَّهُ إنْ كانَ لا يعرفُ معنىً وإنَّما يدعيهِ ليعجزَ خصمَهُ . . فهوَ فاسقٌ كذَّابٌ عصى اللهَ سبحانَهُ وتعالىٰ وتعرَّضَ لسخطِهِ بدعواهُ معرفةً هوَ خالٍ عنها ، وإنْ كانَ صادقاً . . فقدْ فسقَ بإخفائِهِ ما عرفَهُ

مِنْ أمرِ الشرْعِ وقدْ سألَهُ أخوهُ المسلمُ ليفهمَهُ وينظرَ فيهِ ، فإنْ كانَ قوياً . . رجعَ إليهِ ، وإنْ كانَ ضعيفاً . . أظهرَ لهُ ضعفَهُ ، وأخرجَهُ عنْ ظلمَةِ الجهلِ إلىٰ نورِ العلمِ .

ولا خلافَ أنَّ إظهارَ ما عُلِمَ منْ علْمِ الدينِ بعدَ السؤالِ عنهُ واجبٌ لازمٌ ، فمعنىٰ قولِهِ : (لا يلزمني) أي : في شرْعِ الجدلِ الذي أبدعناهُ بحكْمِ التشهِّي والرغبةِ في طريقِ الاحتيالِ والمصارعةِ بالكلامِ لا يلزمني ، وإلا . . فهوَ لازمٌ بالشرعِ ؛ فإنَّهُ بامتناعِهِ عنِ الذكرِ إمَّا كاذبٌ وإمَّا فاسقٌ .

فتفحَّصْ عنْ مشاوراتِ الصحابةِ ومفاوضاتِ السلفِ رضيَ اللهُ عنهُمْ : هلْ سمعتَ فيها ما يضاهي هـٰذا الجنسَ ؟ وهلْ منعَ أحدٌ منَ الانتقالِ منْ دليلٍ إلىٰ دليلٍ ، ومنْ قياسٍ إلىٰ أثرٍ ، ومنْ خبرٍ إلىٰ آيةٍ ؟!

بلْ جميعُ مناظراتِهمْ مِنْ هـٰذا الجنسِ ، إذْ كانوا يذكرونَ كلَّ ما يخطرُ لهُمْ كما يخطرُ ، وكانوا ينظرونَ فيهِ .

❁ ❁ ❁

الثامنُ : أنْ يناظرَ مَنْ يتوقَّعُ الاستفادةَ منهُ ممَّنْ هوَ مشتغلٌ بالعلمِ :

والغالبُ أنَّهُمْ يحترزونَ مِنْ مناظرةِ الفحولِ والأكابرِ ؛ خوفاً من ظهورِ الحقِّ علىٰ ألسنتِهِمْ ، فيرغبونَ فيمَنْ دونَهُمْ ؛ طمعاً في ترويجِ الباطلِ عليهِمْ .

ووراءَ هـٰذهِ شروطٌ دقيقةٌ كثيرةٌ ، ولكنْ في هـٰذهِ الشروطِ الثمانيةِ ما يهديكَ إلىٰ مَنْ يناظرُ للهِ ومَنْ يناظرُ لعلَّةٍ .

واعلمْ بالجملةِ : أنَّ مَنْ لا يناظرُ الشيطانَ وهوَ مستولٍ علىٰ قلبِهِ ، وهوَ أعدىٰ عدوٍّ لهُ ، ولا يزالُ يدعوهُ إلىٰ هلاكِهِ ، ثمَّ يشتغلُ بمناظرةِ غيرِهِ في مسائلَ المجتهدُ فيها مصيبٌ أو مساهمٌ للمصيبِ في الأجرِ . فهوَ ضُحْكَةٌ للشيطانِ ، وعبرةٌ للمخلصينَ ، ولذلكَ شَمِتَ الشيطانُ بهِ لِما غمسَهُ فيهِ مِنْ ظلماتِ الآفاتِ التي نعدِّدُها ونذكرُ تفاصيلَها ، فنسألُ اللهَ حسنَ العونِ والتوفيقِ .

بيان آفات المناظرة وما يتولّد منها من مهلكات الأخلاق

اعلمْ وتحقَّقْ : أنَّ المناظرةَ الموضوعةَ لقصدِ الغلبةِ والإفحامِ ، وإظهارِ الفضلِ والشرفِ عندَ الناسِ ، وقصدِ المباهاةِ والمماراةِ واستمالةِ وجوهِ الناسِ . . هيَ منبعُ جميعِ الأخلاقِ المذمومةِ عندَ اللهِ ، المحمودةِ عندَ عدوِّ اللهِ إبليسَ ، ونسبتُها إلى الفواحشِ الباطنةِ ؛ مِنَ الكبرِ ، والعجْبِ ، والحسدِ ، والمنافسةِ ، وتزكيةِ النفسِ ، وحبِّ الجاهِ ، وغيرِها . . نسبةُ شربِ الخمرِ إلى الفواحشِ الظاهرةِ ؛ مِنَ الزنا ، والقذفِ ، والقتلِ ، والسرقةِ .

وكما أنَّ الذي خُيِّرَ بينَ الشربِ وسائرِ الفواحشِ استصغرَ الشربَ فأقدمَ عليهِ ، فدعاهُ ذلكَ إلى ارتكابِ بقيةِ الفواحشِ في سكرِهِ[1] . . فكذلكَ مَنْ غلبَ عليهِ حبُّ الإفحامِ والغلبةِ في المناظرةِ وطلبُ الجاهِ والمباهاةُ بهِ . . دعاهُ ذلكَ إلىٰ إضمارِ الخبائثِ كلِّها في النفسِ ، وهيَّجَ فيهِ جميعَ الأخلاقِ المذمومةِ ، وهـٰذهِ الأخلاقُ ستأتي أدلَّةُ مذمَّتِها مِنَ الأخبارِ والآياتِ في ربعِ المهلكاتِ ، ولكنَّا نشيرُ الآنَ إلىٰ مجامعِ ما تهيِّجُهُ المناظرةُ :

فمنها الحسدُ : وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الحسدُ يأكُلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ »[2] .

---

(١) من زناً وقتل وغير ذلك ، حتىٰ سميت أمّ الخبائث كما في « النسائي » (٨/ ٣١٥) .

(٢) رواه أبو داوود (٤٩٠٣) ، وابن ماجه (٤٢١٠) .

ولا ينفكُّ المناظرُ عنِ الحسدِ ؛ فإنَّهُ تارةً يغلِبُ وتارةً يُغْلَبُ ، وتارةً يُحمَدُ كلامُهُ وأخرىٰ يُحمَدُ كلامُ غيرِهِ ؛ فما دامَ يبقىٰ في الدنيا واحدٌ يُذْكَرُ بقوَّةِ العلمِ والنظرِ ، أوْ يُظَنُّ أنَّهُ أحسنُ منهُ كلاماً وأقوىٰ نظراً . . فلا بدَّ أنْ يحسُدَهُ ، ويحبَّ زوالَ النعمِ عنهُ ، وانصرافَ الوجوهِ والقلوبِ عنهُ إليهِ .

والحسدُ نارٌ محرقةٌ ، فمَنْ بُلِيَ بهِ . . فهوَ في العذابِ الأليمِ الدائمِ في الدنيا ، ولَعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأعظمُ ، ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (خذوا العلمَ حيثُ وجدتموهُ ، ولا تقبلوا قولَ الفقهاءِ بعضِهِمْ في بعضٍ ؛ فإنَّهُمْ يتغايرونَ كما تتغايرُ التيوسُ في الزريبةِ)[1] .

❀ ❀ ❀

ومنها التكبُّرُ والترفُّعُ على الناسِ : فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تكبَّرَ . . وضعَهُ اللهُ ، ومَنْ تواضعَ . . رفعَهُ اللهُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حكايةً عنِ اللهِ تعالىٰ : « العظمةُ إزاري والكبرياءُ ردائي ، فَمَنْ نازعني فيهما . . قصمتُهُ »[3] .

ولا ينفكُّ المناظرُ عنِ التكبُّرِ على الأقرانِ والأمثالِ ، والترفُّعِ إلىٰ فوقِ قدرِهِ ، حتَّىٰ إنَّهم ليتقاتلونَ علىٰ مجلسٍ منَ المجالسِ يتنافسونَ فيهِ في

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢١٢٥) .
(٢) رواه ابن ماجه (٤١٧٦) بنحوه .
(٣) رواه مسلم (٢٦٢٠) ، وأبو داوود (٤٠٩٠) واللفظ له .

الارتفاعِ والانخفاضِ ، والقربِ مِنْ وسادةِ الصدْرِ والبعدِ منها ، والتقدُّمِ في الدخولِ عندَ مضايقِ الطرقِ .

وربَّما يتعلَّلُ الغبيُّ والمكَّارُ الخدَّاعُ منهُمْ بأنَّهُ يبغي صيانةَ عزِّ العلمِ ، وأنَّ المؤمنَ منهيٌّ عنْ إذلالِ نفسِهِ ، فيعبِّرُ عنِ التواضعِ الذي أثنى اللهُ سبحانَهُ عليهِ وسائرُ أنبيائِهِ بالذلِّ ، وعنِ التكبُّرِ الممقوتِ عندَ اللهِ بعزِّ الدينِ ؛ تحريفاً للاسمِ ، وإضلالاً للخلقِ بهِ ، كما فُعِلَ في اسمِ الحكمةِ والعلمِ وغيرِهما !!

ومنها الحقدُ : فلا يكادُ المناظرُ يخلو عنهُ ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ ليسَ بحقُودٍ »[1] .

ووردَ في ذمِّ الحقدِ ما لا يخفىٰ ، ولا ترىٰ مُناظراً يقدرُ علىٰ ألا يضمرَ حقداً علىٰ مَنْ يحرِّكُ رأسَهُ علىٰ كلامِ خصمِهِ ، ويتوقَّفُ في كلامِهِ فلا يقابلُهُ بحسْنِ الإصغاءِ ، بل يضطرُّ إذا شاهدَ ذلكَ إلىٰ إضمارِ الحقْدِ وتزيينِهِ في النفسِ ، وغايةُ تماسكِهِ الإخفاءُ بالنفاقِ ، ويترشَّحُ منهُ إلى الظاهرِ ـ لا محالةَ ـ في غالبِ الأمرِ .

وكيفَ ينفكُّ عنْ هـٰذا ولا يتصوَّرُ اتفاقُ جميعِ المستمعينَ علىٰ ترجيحِ

---

(١) وقد روى النسائي (٦/ ١١) : « ولا يجتمعان في قلب عبدٍ الإيمانُ والحسد » ، وقوله : « يجتمعان » علىٰ لغةٍ أو حذفٍ ، وأما الحديث بلفظ المؤلف « المؤمن ليس بحقود » . . فانظر « كشف الخفاء » (٢/ ٢٩٣) .

كلامِهِ ، واستحسانِ جميعِ أحوالِهِ في إيرادِهِ وإصدارِهِ ؟!

بلْ لوْ صدرَ مِنْ خصمِهِ أدنىٰ سببٍ فيهِ قلَّةُ مبالاةٍ بكلامِهِ . . انغرسَ في صدرِهِ حقدٌ لا تقلعُهُ يدُ الدهرِ إلىٰ آخرِ العمرِ .

❁ ❁ ❁

ومنها الغيبةُ : وقدْ شبهَهَا اللهُ تعالىٰ بأكلِ الميتةِ ، ولا يزالُ المناظرُ مثابراً علىٰ أكلِ الميتةِ ؛ فإنَّهُ لا ينفكُّ عنْ حكايةِ كلامِ خصمِهِ ومذمَّتِهِ ، وغايةُ تحفُّظِهِ أنْ يصدُقَ فيما يحكيهِ عليهِ ولا يكذبَ في الحكايةِ ، فيحكي عنهُ ـ لا محالةَ ـ ما يدلُّ علىٰ قصورِ كلامِهِ وعجزِهِ ونقصانِ فضلِهِ ، وهوَ الغيبةُ ، فأمَّا الكذبُ . . فبهتانٌ .

وكذلكَ لا يقدرُ علىٰ أنْ يحفظَ لسانَهُ عنِ التعرُّضِ لعِرْضِ مَنْ يُعْرِضُ عنْ كلامِهِ ويُصغي إلىٰ خصمِهِ ويقبلُ عليهِ ، حتىٰ ينسبُهُ إلى الجهلِ والحماقةِ وقلَّةِ الفهمِ والبلادةِ .

❁ ❁ ❁

ومنها تزكيةُ النفسِ : قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ .

وقيلَ لحكيمٍ : ما الصدقُ القبيحُ ؟ فقالَ : ثناءُ المرءِ علىٰ نفسِهِ .

ولا يخلو المناظرُ عنِ الثناءِ علىٰ نفسِهِ بالقوَّةِ والغلبةِ ، والتقدُّمِ بالفضلِ على الأقرانِ ، ولا ينفكُّ في أثناءِ المناظرةِ عنْ قولِهِ : لستُ ممَّنْ يخفىٰ عليهِ أمثالُ هـٰذهِ الأمورِ ، وأنا المتفنِّنُ في العلومِ ، والمستقلُّ بالأصولِ وحفظِ

الأحاديثِ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا يتمدَّحُ بهِ تارةً علىٰ سبيلِ الصلَفِ ، وتارةً للحاجةِ إلىٰ ترويجِ كلامِهِ ، ومعلومٌ أنَّ الصلَفَ والتمدُّحَ مذمومانِ شرعاً وعقلاً .

❁ ❁ ❁

ومنها التجسُّسُ وتتبُّعُ عوراتِ الناسِ : وقدْ قالَ تعالىٰ : ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ .

والمناظرُ لا ينفكُّ عنْ طلبِ عثراتِ أقرانِهِ وتتبُّعِ عوراتِ خصومِهِ ، حتَّىٰ إنَّهُ ليُخبَرُ بورودِ مناظرٍ إلىٰ بلدِهِ ، فيطلبُ مَنْ يَخْبُرُ بواطنَ أحوالِهِ ، ويستخرجُ بالسؤالِ مقابحَهُ ؛ حتَّىٰ يعدَّها ذخيرةً لنفسِهِ في إفضاحِهِ وتخجيلِهِ إذا مسَّتْ إليهِ حاجتُهُ ، حتَّىٰ إنَّهُ ليستكشفُ عنْ أحوالِ صباهُ وعنْ عيوبِ بدنِهِ ، فعساهُ يعثرُ علىٰ هفوةٍ أوْ علىٰ عيبٍ بهِ مِنْ قَرَعٍ أوْ غيرِهِ ، ثمَّ إذا أحسَّ بأدنىٰ غلبةٍ مِنْ جهتِهِ . . عرَّضَ بهِ إنْ كانَ متماسكاً ، ويُستحسنُ ذلكَ منهُ ، ويُعدُّ من لطائفِ التشبيبِ ، ولا يمتنعُ عنِ الإفصاحِ بهِ إنْ كانَ متبجِّحاً بالسفاهةِ والاستهزاءِ ؛ كما حُكِيَ عنْ قومٍ منْ أكابرِ المناظرينَ المعدودينَ مِنْ فحولِهِمْ .

❁ ❁ ❁

ومنها الفرحُ بمساءةِ الناسِ والغمُّ لمسارِّهِمْ : ومَنْ لا يحبُّ لأخيهِ المسلمِ ما يحبُّ لنفسِهِ . . فهوَ بعيدٌ مِنْ أخلاقِ المؤمنينَ ، وكلُّ مَنْ طلبَ المباهاةَ بإظهارِ الفضلِ . . يسرُّهُ ـ لا محالةَ ـ ما يسوءُ أقرانَهُ وأشكالَهُ الذينَ يسامونَهُ في الفضلِ ، ويكونُ التباغضُ بينهُمْ كما بينَ الضرائرِ ، فكما أنَّ إحدى

الضرائرِ إذا رأتْ صاحبتَها مِنْ بعيدٍ . . ارتعدتْ فرائصُها واصفرَّ لونُها ؛ فهكذا ترى المناظرَ إذا رأىٰ مُناظراً . . يَرْبَدُّ لونُهُ ويضطربُ عليهِ فكرُهُ ، وكأنَّهُ شاهدَ شيطاناً مارداً أو سَبُعاً ضارياً !

فأينَ الاستئناسُ والاسترواحُ الذي كانَ يجري بينَ علماءِ الدينِ عندَ اللقاءِ ، وما نُقِلَ عنهُمْ مِنَ المؤاخاةِ والتناصرِ والتساهمِ في السرَّاءِ والضرَّاءِ ؟! حتَّىٰ قالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (العلمُ بينَ أهلِ العقلِ والفضلِ رَحِمٌ متَّصِلٌ) .

فلا أدري كيفَ يدعي الاقتداءَ بمذهبِهِ جماعةٌ صارَ العلمُ بينهُمْ عداوةً قاطعةً ؟! فهلْ يتصوَّرُ أنْ يستتبَّ الأُنْسُ معَ طلبِ الغلبةِ والمباهاةِ ؟

هيهاتَ هيهاتَ ! فناهيكَ بالشيءِ شراً أَنْ يُلزمَكَ أخلاقَ المنافقينَ ، ويبرِئَكَ عنْ أخلاقِ المؤمنينَ والمتقينَ .

❀ ❀ ❀

ومنها النفاقُ : فلا يحتاجُ إلىٰ ذكرِ الشواهدِ في ذمِّهِ ، وهُمْ مضطرونَ إليهِ ؛ فإنَّهُمْ يلقونَ الخصومَ ومحبِّيهِمْ وأشياعَهُمْ ولا يجدونَ بُدّاً مِنَ التودُّدِ باللسانِ وإظهارِ الشوقِ والاعتدادِ بمكانِهِمْ وأحوالِهِمْ ، ويعلمُ ذلكَ المخاطَبُ والمخاطِبُ وكلُّ مَنْ يسمعُ ذلكَ منهُمْ أنَّ ذلكَ كذبٌ وزورٌ ونفاقٌ وفجورٌ ، وأنَّهمْ متوادُّونَ بالألسنةِ متباغضونَ بالقلوبِ ، نعوذُ باللهِ العظيمِ منهُ ، فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا تعلَّمَ الناسُ العلمَ وتركوا العملَ ،

وتحابُّوا بالألسُنِ وتباغضوا بالقلوبِ ، وتقاطعُوا في الأرحامِ . . لعنهُمُ اللهُ عندَ ذلكَ ، فأصمَّهُمْ وأعمىٰ أبصارَهُمْ » رواهُ الحسنُ[1] ، وقدْ صحَّ ذلكَ بمشاهدةِ الحالِ .

ومنها الاستكبارُ عنِ الحقِّ وكراهتُهُ والحرصُ على المماراةِ فيهِ : حتَّىٰ إنَّ أبغضَ شيءٍ إلى المناظرِ أنْ يظهرَ علىٰ لسانِ خصمِهِ الحقُّ ، ومهما ظهرَ . . تشمَّرَ لجحدِهِ وإنكارِهِ بأقصىٰ جهدِهِ ، وبذَلَ غايةَ إمكانِهِ في المخادعةِ والمكْرِ والحيلةِ لدفعِهِ ، ثمَّ تصيرُ المماراةُ فيهِ عادةً طبيعيةً ، فلا يسمعُ كلاماً إلا وينبعثُ مِنْ طبعِهِ داعيةُ الاعتراضِ عليهِ ، حتَّىٰ يغلبَ ذلكَ علىٰ قلبِهِ في أدلةِ القرآنِ وألفاظِ الشرعِ ، فيضربَ البعضَ منها بالبعضِ .

والمراءُ في مقابلةِ الباطلِ محذورٌ ؛ إذْ ندبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ تركِ المراءِ بالحقِّ على الباطلِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تركَ المِراءَ وهوَ مُبْطِلٌ . . بَنَى اللهُ لهُ بيتاً في رَبَضِ الجنةِ ، ومَنْ تركَ المراءَ وهوَ مُحِقٌّ . . بَنَى اللهُ لهُ بيتاً في أعلى الجنةِ »[2] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢٦٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٠٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/ ١٠٠) من حديث سلمان رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه ، والمراد بالحسن ـ والله أعلم ـ هو الحسن بن سفيان الشيباني صاحب « المسند » وغيره .

(٢) رواه الترمذي (١٩٩٣) ، وابن ماجه (٥١) .

وقدْ سوَّى اللهُ تعالىٰ بينَ مَنِ افترَىٰ على اللهِ كذباً وبينَ مَنْ كذَّبَ بالحقِّ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ .

❀ ❀ ❀

ومنها الرياءُ وملاحظةُ الخلقِ ، والجهدُ في استمالةِ قلوبِهِمْ وصرْفِ وجوهِهِم : والرياءُ هوَ الداءُ العضالُ الذي يدعو إلىٰ أكبرِ الكبائرِ ، كما سيأتي في كتابِ الرياءِ ، والمناظرُ لا يقصدُ إلا الظهورَ عندَ الخلقِ ، وإطلاقَ ألسنتِهِمْ بالثناءِ عليهِ .

فهـٰذهِ عشرُ خلالٍ مِنْ أمَّهاتِ الفواحشِ الباطنةِ ، سوىٰ ما يتفقُ لغيرِ المتماسكينَ منهمْ ؛ مِنَ الخصامِ المؤدِّي إلى الضربِ واللكْمِ ، وتمزيقِ الثيابِ ، والأخذِ باللِّحَىٰ ، وسبِّ الوالدَينِ ، وشتمِ الأستاذِينَ ، والقذْفِ الصريحِ ، فإنَّ أولئكَ ليسوا معدودينَ في زمرةِ الناسِ المعتبرينَ ، وإنَّما الأكابرُ والعقلاءُ منهُمْ همُ الذينَ لا ينفكونَ عنْ هـٰذهِ الخصالِ العشرِ .

نعمْ ، قدْ يسلَمُ بعضُهُمْ عنْ بعضِها معَ مَنْ هوَ ظاهرُ الانحطاطِ عنهُ ، أوْ ظاهرُ الارتفاعِ عليهِ ، أوْ هوَ بعيدٌ عنْ بلدِهِ وأسبابِ معيشتِهِ ، ولا ينفكُّ أحدٌ منهُمْ عنهُ معَ أشكالِهِ المقارنينَ لهُ في الدرجةِ .

ثمَّ يتشعَّبُ مِنْ كلِّ واحدةٍ مِنْ هـٰذهِ الخصالِ العشرِ عشرٌ أخرىٰ مِنَ الرذائلِ ، لمْ نطوِّلْ بذكرِها وتفصيلِ آحادها ؛ مثلُ الأنفةِ ، والغضبِ ،

والبغضاءِ ، والطمعِ ، وحبِّ طلبِ المالِ والجاهِ للتمكُّنِ مِنَ الغلبةِ ، والمباهاةِ ، والأَشَرِ ، والبَطَرِ ، وتعظيمِ الأغنياءِ والسلاطينِ ، والتردُّدِ إليهِمْ ، والأخذِ مِنْ حرامِهِمْ ، والتجمُّلِ بالخيولِ والمراكبِ والثيابِ المحظورةِ ، واستحقارِ الناسِ بالفخرِ والخيلاءِ ، والخوضِ فيما لا يعني ، وكثرةِ الكلامِ ، وخروجِ الخشيةِ والحرمةِ مِنَ القلبِ ، واستيلاءِ الغفلةِ عليهِ ، حتَّىٰ لا يدري المصلِّي منهُمْ في صلاتِهِ ما صلَّىٰ وما الذي يقرأُ ومَنْ الذي يناجيهِ ، ولا يحسُّ بالخشوعِ مِنْ قلبِهِ ، واستغراقِ العمرِ في العلومِ التي تعينُ في المناظرةِ معَ أنَّها لا تنفعُ في الآخرةِ ؛ مِنْ تحسينِ العبارةِ ، وتسجيعِ اللفظِ ، وحفظِ النوادرِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ أمورٍ لا تحصىٰ .

والمناظرونَ يتفاوتونَ فيها علىٰ حسَبِ درجاتِهِمْ ، ولهُمْ درجاتٌ شتَّىٰ ، ولا ينفكُّ أعظمُهُمْ ديناً وأكثرُهُمْ عقلاً عنْ جُمَلٍ مِنْ موادِّ هـٰذهِ الأخلاقِ ، وإنَّما غايتُهُ إخفاؤُها ومجاهدةُ النفسِ بها .

واعلمْ : أنَّ هـٰذهِ الرذائلَ لازمةٌ للمشتغلِ بالتذكيرِ والوعْظِ أيضاً إذا كانَ قصدُهُ طلبَ القبولِ وإقامةَ الجاهِ ونيلَ الثروةِ والعزَّةِ ، وهيَ لازمةٌ أيضاً للمشتغلِ بعلمِ المذهبِ والفتاوىٰ إذا كانَ قصدُهُ طلبَ القضاءِ وولايةَ الأوقافِ والتقدُّمَ على الأقرانِ .

وبالجملةِ : هيَ لازمةٌ لكلِّ مَنْ يطلبُ بالعلمِ غيرَ ثوابِ الآخرةِ ، فالعلمُ لا يهمِلُ العالِمَ ، بلْ يهلكُهُ هلاكَ الأبدِ ، أوْ يحييهِ حياةَ الأبدِ ، ولذلكَ قالَ

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لا ينفعُهُ اللهُ بعلمِهِ »[1] .

فلقدْ ضرَّهُ معَ أنَّهُ لمْ ينفعْهُ ، وليتَهُ نجا منهُ رأساً برأسٍ ؛ وهيهاتَ هيهاتَ ! فخطرُ العلْمِ عظيمٌ ، وطالبُهُ طالبُ آلةِ الملْكِ المؤبَّدِ والنعيمِ السرمَدِ ، فلا ينفكُّ عنِ المُلْكِ أوِ الهُلْكِ ، وهوَ كطالبِ الملْكِ في الدنيا ، فإنْ لمْ تتفقِ لهُ الإصابةُ في الأموالِ . . لمْ يطمعْ في السلامةِ منَ الأرذالِ[2] ، بلْ لا بدَّ مِنْ لزومِ أفضحِ الأحوالِ .

فإنْ قلتَ : في الرخصةِ في المناظرةِ فائدةٌ ، وهيَ ترغيبُ الناسِ في طلبِ العلمِ ؛ إذْ لولا حبُّ الرئاسةِ . . لاندرستِ العلومُ .

فقدْ صدقتَ فيما ذكرتَهُ مِنْ وجهٍ ، ولكنَّهُ غيرُ مفيدٍ ؛ إذْ لولا الوعدُ بالكرةِ والصولجانِ واللعبِ بالعصافيرِ . . ما رغِبَ الصبيانُ في المكتبِ[3] ، وذلكَ لا يدلُّ علىٰ أنَّ الرغبةَ فيهِ محمودةٌ ، ولولا حبُّ الرئاسةِ . . لاندرسَ العلمُ ،

---

(١) رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ١٨٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) .

(٢) **الأرذال** : الذين يعيشون سالمين من الأكدار ، لعدم توجه الأعين إليهم . « إتحاف » (١/ ٣٠٣) .

(٣) **الصولجان** : عصا يعطف طرفها ، يضرب بها الكرة على الدواب ، وهي لفظة فارسية معربة .

ولا يدلُّ ذلكَ علىٰ أنَّ طالبَ الرئاسةِ ناجٍ ، بلْ هوَ مِنَ الذينَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فيهِمْ : « إنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خَلاَقَ لهُمْ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هٰذا الدِّينَ بالرجلِ الفاجرِ »[2] .

فطالبُ الرئاسةِ في نفسِهِ هالكٌ ، وقدْ يصلحُ بسببِهِ غيرُهُ إنْ كانَ يدعو إلىٰ تركِ الدنيا ، وذلكَ فيمَنْ كانَ حالُهُ في ظاهرِ الأمرِ حالَ علماءِ السلفِ ، ولكنَّهُ يضمرُ قصدَ الجاهِ ؛ فمثالُهُ مثالُ الشمْعِ الذي يحترقُ في نفسِهِ ويستضيءُ بهِ غيرُهُ ؛ فصلاحُ غيرِهِ في هلاكِهِ[3] .

فأمَّا إذا كانَ يدعو إلىٰ طلبِ الدنيا . . فمثالُهُ مثالُ النارِ المحرقةِ التي تأكُلُ نفسَها وغيرَها .

فالعلماءُ ثلاثةٌ :

إمَّا مهلِكٌ نفسَهُ وغيرَهُ ، وهمُ المصرِّحونَ بطلبِ الدنيا والمقبلونَ عليها .

وإمَّا مسعِدٌ نفسَهُ وغيرَهُ ، وهمُ الداعونَ إلى اللهِ تعالى المتخلونَ عنِ الدنيا ظاهراً وباطناً .

وإمَّا مهلِكٌ نفسَهُ مسعِدٌ غيرَهُ ، وهوَ الذي يدعو إلى الآخرةِ وقدْ رفضَ

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٨٣٣) .

(٢) رواه البخاري (٣٠٦٢) ، ومسلم (١١١) .

(٣) وقد روى الطبراني في « المعجم الكبير » (٢/ ١٦٦) مرفوعاً : « مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسىٰ نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه » .

الدنيا في ظاهرِهِ ، وقصدُهُ في الباطنِ قبولُ الخلقِ وإقامةُ الجاهِ .

فانظرْ مِنْ أيِّ الأقسامِ أنتَ ، ومَنِ الذي اشتغلتَ بالاعتدادِ لهُ ، ولا تظنَّنَّ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقبلُ غيرَ الخالصِ لوجهِهِ تعالىٰ مِنَ العلمِ والعملِ ، وسيأتيكَ في كتابِ الرياءِ بلْ في جميعِ ربعِ المهلكاتِ ما ينفي عنكَ الريبةَ فيهِ ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

البابُ الخامِسُ
في آدابِ المتعلّمِ والمعلّمِ

أمَّا المتعلِّمُ : فآدابُهُ ووظائفُهُ الظاهرةُ كثيرةٌ ، ولكنْ تَنْظِمُ تفاريعَها عشرُ جملٍ :

الوظيفةُ الأولىٰ : تقديمُ طهارةِ النفْسِ عنْ رذائلِ الأخلاقِ ومذمومِ الأوصافِ :

إذِ العلمُ عبادةُ القلبِ ، وصلاةُ السرِّ ، وقربةُ الباطنِ إلى اللهِ تعالىٰ ، وكما لا تصحُّ الصلاةُ التي هيَ وظيفةُ الجوارحِ الظاهرةِ إلا بتطهيرِ الظاهرِ عنِ الأحداثِ والأخباثِ . . فكذلكَ لا تصحُّ عبادةُ الباطنِ وعمارةُ القلبِ بالعلمِ إلا بعدَ طهارتِهِ عنْ خبائثِ الأخلاقِ وأنجاسِ الأوصافِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بُنِيَ الدِّينُ على النظافةِ »[1] ، وهوَ كذلكَ باطناً وظاهراً .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ تنبيهاً للعقولِ علىٰ أنَّ الطهارةَ والنجاسةَ غيرُ مقصورةٍ على الظواهرِ المدركةِ بالحسِّ ، فالمشركُ قدْ يكونُ

---

(١) رواه الرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (١/ ١٧٦) بلفظ : « فإن الله بنى الإسلام على النظافة » ، وعند الترمذي (٢٧٩٩) : « إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة . . . » .

نظيفَ الثوبِ مغسولَ البدنِ ، ولكنَّهُ نجسُ الجوهرِ ؛ أي : باطنُهُ ملطَّخٌ بالخبائثِ .

والنجاسةُ عبارةٌ عمَّا يُجتنبُ ويُطلبُ البعدُ منهُ ، وخبائثُ صفاتِ الباطنِ أهمُّ بالاجتنابِ ؛ فإنَّها معَ خبثِها في الحالِ مهلكاتٌ في المآلِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تدخلُ الملائكةُ بيتاً فيهِ كلبٌ »[1] ، والقلبُ بيتٌ هوَ منزلُ الملائكةِ ومهبطُ أثرِهِمْ ومحلُّ استقرارِهِمْ ؛ والصفاتُ الرديئةُ مثلُ الغضبِ والشهوةِ ، والحقدِ والحسدِ ، والكبرِ والعجبِ ، وأخواتِها . . كلابٌ نابحةٌ ؛ فأنَّىٰ تدخلُهُ الملائكةُ وهوَ مشحونٌ بالكلابِ ، ونورُ العلمِ لا يقذفُهُ اللهُ في القلبِ إلا بواسطةِ الملائكةِ ؟! ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ ، وهٰكذا ما يرسلُ مِنْ رحمةِ العلومِ إلى القلوبِ إنَّما تتولاها الملائكةُ الموكَّلونَ بها ، وهمُ المقدَّسونَ المطهَّرونَ المبرَّؤونَ عنِ المذمومات ، فلا يلاحظونَ إلا طيِّباً ، ولا يَعْمُرُونَ بما عندَهُمْ مِنْ خزائنِ رحمةِ اللهِ إلا طيباً طاهراً[2] .

---

(١) رواه البخاري (٣٢٢٥) ، ومسلم (٢١٠٦) .

(٢) قال المؤلف رحمه الله تعالىٰ : (**فإن قلت** : كيف آمن من كفر وأطاع من عصىٰ واهتدىٰ من ضل ؛ إذ كانت الشياطين لا تفارق قلب الكافر والعاصي والضال بما يبثون فيه من الأخلاق المذمومة ، وأصنافُ الخير إنما ترد من الله عز وجل بواسطة الملائكة ، وهي لا تدخل موضعاً يحل فيه شيء مما ذكر ، وإذا لم تدخل . . لم يصل إلى الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه ، فعلىٰ هٰذا يجب أن يبقىٰ كل كافر علىٰ حاله ، ومن لم يخلق مؤمناً معصوماً . . فلا سبيل له إلى الإيمان علىٰ هٰذا المفهوم . **فالجواب** : إن للشياطينِ =

ولستُ أقولُ : المرادُ بلفظِ البيتِ هوَ القلبُ ، وبالكلبِ هوَ الغضبُ والصفاتُ المذمومةُ ، ولكنِّي أقولُ : هوَ تنبيهٌ عليهِ ، وفرقٌ بينَ تغييرِ الظواهرِ إلى البواطنِ وبينَ التنبُّهِ للبواطنِ مِنْ ذكرِ الظواهرِ معَ تقريرِ الظواهرِ ، ففارقَ الباطنيةَ بهـٰذهِ الدقيقةِ ، فإنَّ هـٰذا طريقُ الاعتبارِ ، وهوَ مسلكُ العلماءِ والأبرارِ ؛ إذْ معنى الاعتبارِ أنْ تعبرَ ممَّا ذكرَ إلىٰ غيرِهِ ، فلا تقتصرُ عليهِ ؛ كما يرى العاقلُ مصيبةً لغيرِهِ فيكونُ لهُ فيها عبرةٌ بأنْ يعبرَ منها إلى التنبُّهِ لكونِهِ أيضاً عرضةً للمصائبِ ، وكونِ الدنيا بصددِ الانقلابِ ؛ فعبورُهُ مِنْ غيرِهِ إلىٰ نفسِهِ ، ومِنْ نفسِهِ إلىٰ أصلِ الدنيا عبرةٌ محمودةٌ .

فاعبرْ أنتَ أيضاً مِنَ البيتِ الذي هوَ بناءُ الخلقِ إلى القلبِ الذي هوَ بيتٌ مِنْ بناءِ اللهِ تعالىٰ ، ومِنَ الكلبِ الذي ذُمَّ لصفتِهِ لا لصورتِهِ وهوَ ما فيهِ مِنْ سَبُعيَّةٍ ونجاسةٍ إلىٰ روحِ الكلبيةِ وهيَ السبُعيَّةُ .

واعلمْ : أنَّ القلبَ المشحونَ بالغضبِ ، والشَّرَهِ إلى الدنيا ، والتكالبِ عليها ، والحرصِ على التمزيقِ لأعراضِ الناسِ . . كلبٌ في المعنىٰ ، وقلبٌ في الصورةِ ، فنورُ البصيرةِ يلاحظُ المعانيَ دونَ الصورِ ؛ والصورُ في هـٰذا

= غفلات ، وللأخلاق المذمومة عزفات ، كما أن للملائكة غيبات ولتواتر الخير عليها فترات ، فإذا وجد الملك قلباً خالياً ولو زمناً فرداً . . حلَّ فيه ، وأراه ما عنده من الخير ، فإن صادف منه قبولاً ، ولما عَرَضَ عليه تشوُّفاً ونزوعاً . . أورد عليه ما يملؤه ويستغرق لبَّه ، وإن صادف منه ضجراً ، وسمع منه لجنود الشياطين استغاثةً ، وبالأخلاق الكلابية استعانةً . . رحل عنه وتركه) . « الإملاء » (ص٢٣) .

العالمِ غالبةٌ على المعاني ، والمعاني باطنةٌ فيها ، وفي الآخرةِ تتبعُ الصورُ المعانيَ ، وتغلبُ المعاني ، فلذلكَ يُحشرُ كلُّ شخْصٍ علىٰ صورتِهِ المعنويةِ ، فيُحشرُ الممزِّقُ لأعراضِ الناسِ كلباً ضارياً ، والشرِهُ إلىٰ أموالِهِمْ ذئباً عادياً ، والمتكبِّرُ عليهِمْ في صورةِ نمرٍ ، وطالبُ الرئاسةِ في صورةِ أسدٍ .

وقدْ وردتْ بذلكَ الأخبارُ ، وشهدَ بهِ الاعتبارُ عندَ ذوي البصائرِ والأبصارِ[1] ، وشهدَ به شواهدُ الرؤيا ؛ فإنَّ النائمَ لما بَعُدَ عنْ عالمِ المحسوساتِ . . قربَ منْ ذلك العالمِ ؛ إذِ النومُ أخو الموتِ ، فيرىٰ في النومِ الموصوفينَ بهـٰذهِ الصفاتِ علىٰ هـٰذهِ التي ذكرناها[2] .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : كمْ مِنْ طالبٍ رديءِ الأخلاقِ حصَّلَ العلومَ !

---

(١) فما جادت به قريحة المؤلف من لطائف إشارات النصوص دليلُ فهم واستبصار ، قال رحمه الله تعالىٰ : (ولا نكْرَ في ذلك إذا دلَّ عليه العلم وجملة الاستنباط ، ولم تمجه القلوب المستضاءة ، ولم تصادم به شيئاً من أركان الشريعة ، فلا تكن جاحداً ، ولا تجزع من تشنيع جاهل ولا من نفور مقلد ؛ فكثيراً ما ورد شرع مقرون بسبب ، فرأىٰ أهل الاعتبار وجه تعدِّيه عن سببه إلىٰ ما في معناه ومشابهٍ له من الجهة التي تصلح أن يعديها إليه ، ولولا ذلك . . لما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ربَّ مبلغ أوعىٰ من سامع ، وحامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه ») . « الإملاء » (ص٢٣) .

(٢) من قوله : (وشهد به شواهد) إلىٰ قوله : (التي ذكرناها) زيادة من (أ) ، ويؤكد نسبتها له ما في « كيمياء السعادة » (ص١٢٠) ، والله أعلم .

فهيهاتَ ما أبعدَكَ عَنِ العلْمِ الحقيقيِّ النافعِ في الآخرةِ الجالبِ للسعادةِ ؛ فإنَّ مِنْ أوائلِ ذلكَ العلمِ أنْ يظهرَ لهُ أنَّ المعاصيَ سمومٌ قاتلةٌ مهلكةٌ ، وهلْ رأيتَ مَنْ يتناولُ سمّاً معَ علمِهِ بكونِهِ سمّاً قاتلاً ؟!

إنَّما الذي تسمعُهُ مِنَ المترسِّمينَ حديثٌ تلقَّفُوهُ ، يوردونَهُ بألسنتِهِمْ مرَّةً ، ويرددونَهُ بقلوبِهِمْ أخرىٰ ، وليسَ ذلكَ مِنَ العلمِ في شيءٍ ؛ قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ العلمُ بكثرةِ الروايةِ ، إنَّما العلمُ نورٌ يُقذفُ في القلبِ)[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنما العلمُ الخشيةُ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾)[2] .

وكأنَّهُ إشارةٌ إلىٰ أخصِّ ثمراتِ العلمِ ، ولذلكَ قالَ بعضُ المحققينَ : معنىٰ قولِهِمْ : (تعلَّمْنا العلمَ لغيرِ اللهِ ، فأبى العلمُ أنْ يكونَ إلا للهِ)[3] : أنَّ العلمَ أبَىٰ وامتنعَ علينا ، فلمْ تنكشفْ لنا حقيقتُهُ ، وإنَّما حصلَ لنا حديثُهُ وألفاظُهُ .

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٨٦٧) وفيه : (ولكن العلم الخشية) كما هو في الخبر اللاحق .

(٢) وهو ـ كما سبق ـ لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وهو في « الحلية » (١/ ١٣١) ، وانظر « الدر المنثور » (٧/ ٢٠) .

(٣) هو قول سفيان الثوري كما صرح به الإمام الغزالي في كتاب (العزلة) .

فإنْ قلتَ : إنِّي أرىٰ جماعةً مِنَ الفقهاءِ المحقِّقينَ برَّزوا في الفروعِ والأصولِ ، وعُدُّوا مِنْ جملةِ الفحولِ ، وأخلاقُهُمْ ذميمةٌ لمْ يتطهَّروا منها .

فيقالُ : إذا عرفتَ مراتبَ العلومِ ، وعرفتَ علمَ الآخرةِ . . استبانَ لكَ أنَّ ما اشتغلوا بهِ قليلُ الغَناءِ مِنْ حيثُ كونُهُ علماً ، وإنَّما غناؤُهُ مِنْ حيثُ كونُهُ عملاً للهِ تعالىٰ ، إذا قُصِدَ بهِ التقرُّبُ إلى اللهِ تعالىٰ .

وقدْ سبقَ إلىٰ هـٰذا إشارةٌ ، وسيأتيكَ فيهِ مزيدُ بيانٍ وإيضاحٍ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ[1] .

❀ ❀ ❀

الوظيفةُ الثانيةُ : أنْ يقلِّلَ علائقَهُ مِنْ أشغالِ الدنيا ويبعدَ عَنِ الأهلِ والوطنِ :

فإنَّ العلائقَ شاغلةٌ وصارفةٌ ، وما جعلَ اللهُ لرجلٍ مِنْ قلبينِ في جوفِهِ ، ومهما توزعتِ الفكرةُ . . قَصُرَتْ عنْ درْكِ الحقائقِ ، ولذلكَ قيلَ : (العلمُ لا يعطيكَ بعضَهُ حتَّىٰ تعطيَهُ كُلَّكَ ، فإذا أعطيتَهُ كُلَّكَ . . فأنتَ مِنْ إعطائِهِ إيَّاكَ بعضَهُ علىٰ خطرٍ)[2] .

والفكرةُ المتوزِّعةُ علىٰ أمورٍ متفرِّقةٍ كجدولٍ تفرَّقَ ماؤُهُ ، فنَشِفَتِ الأرضُ بعضَهُ ، واختطفَ الهواءُ بعضَهُ ، فلا يبقىٰ منهُ ما يجتمعُ ويبلغُ المُزْدَرَعَ[3] .

❀ ❀ ❀

---

(١) في ذكر العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة .

(٢) الفقيه والمتفقه (٨٦٤) ، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٥٧٠) .

(٣) **المزدرع** : موضع الزراعة .

الوظيفةُ الثالثةُ : ألا يتكبَّرَ على العلمِ ولا يتأمَّرَ على المعلِّمِ :

بلْ يلقي إليهِ زمامَ أمرِهِ بالكلِّيَّةِ في كلِّ تفصيلٍ ، ويذعنُ لنصحِهِ إذعانَ المريضِ الجاهلِ للطبيبِ المشفقِ الحاذقِ .

وينبغي أنْ يتواضعَ لمعلِّمِهِ ويطلبَ الثوابَ والشرفَ بخدمتِهِ ، قالَ الشعبيُّ : صلَّىٰ زيدُ بنُ ثابتٍ علىٰ جنازةٍ ، فقُرِّبَتْ إليهِ بغلتُهُ ليركبَها ، فجاءَ ابنُ عباسٍ فأخذَ بركابِهِ ، فقالَ زيدٌ : خلِّ عنهُ يا بنَ عمِّ رسولِ اللهِ ، فقالَ ابنُ عباسٍ : هٰكذا أُمِرْنا أنْ نفعلَ بالعلماءِ والكبراءِ[1] ، فقبَّلَ زيدُ بنُ ثابتٍ يدَهُ وقالَ : هٰكذا أمرْنا أنْ نفعلَ بأهلِ بيتِ نبيِّنا محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ مِنْ أخلاقِ المؤمنِ التملُّقُ إلا في طلبِ العلمِ »[3] .

فلا ينبغي للطالبِ أنْ يتكبَّرَ على المعلِّمِ ، ومِنْ تكبُّرِهِ على المعلِّمِ أنْ يستنكفَ مِنَ الاستفادةِ إلا مِنَ المرموقينَ المشهورينَ ، وهوَ عينُ الحماقةِ ؛ فإنَّ العلمَ سببُ النجاةِ والسعادةِ ، ومَنْ يطلبُ مهرباً مِنْ سبُعٍ ضارٍ يفترسُهُ . . لمْ يفرِّقْ بينَ أنْ يرشدَهُ إلى الهربِ مشهورٌ أوْ خاملٌ ، وضراوةُ سباعِ

---

(١) **الكبراء** هنا : ذوو الأسنان والشيوخ .

(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٨٣٢) بتمامه ، وأصله عند الطبراني في « الكبير » (٥/ ١٠٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤٢٣) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٨٥٩) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١٤٧٣) .

النارِ بالجهَّالِ باللهِ تعالىٰ أشدُّ مِنْ ضراوةِ كلِّ سبعٍ .

فالحكمةُ ضالَّةُ المؤمنِ ، يغتنمُها حيثُ يظفرُ بها ، ويتقلَّدُ المنَّةَ لمَنْ ساقَها إليهِ كائناً مَنْ كانَ ، ولذلكَ قيلَ : [من الكامل]

اَلْعِلْمُ حَرْبٌ لِلْفَتَى ٱلْمُتَعَالِي كَٱلسَّيْلِ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ ٱلْعَالِي[1]

فلا يُنالُ العلْمُ إلا بالتواضعِ وإلقاءِ السمعِ ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ، ومعنىٰ كونِهِ ذا قلبٍ : أنْ يكونَ قابلاً للعلمِ فَهِماً ، ثمَّ لا تغنيهِ القدرةُ على الفهْمِ حتَّىٰ يُلْقِيَ السمعَ وهوَ شهيدٌ حاضرُ القلبِ ، يستقبلُ كلَّ ما يُلقىٰ إليهِ بحسْنِ الإصغاءِ والضراعةِ والشكرِ والفرحِ وقبولِ المنَّةِ .

فليكنِ المتعلِّمُ لمعلِّمِهِ كأرضٍ دَمْثَةٍ[2] نالتْ مطراً غزيراً ، فشربتْ بجميعِ أجزائِها ، وأذعنتْ بالكلِّيَّةِ لقبولِهِ ، ومهما أشارَ عليهِ المعلِّمُ بطريقٍ في التعلُّمِ . . فليقلِّدْهُ وليدعْ رأيَهُ ؛ فإنَّ خطأَ مرشدِهِ أنفعُ لهُ مِنْ صوابِهِ في نفسِهِ ؛ إذِ التجربةُ تُطلِعُ علىٰ دقائقَ يُستغربُ سماعُها معَ أنَّهُ يعظُمُ نفعُها ، فكمْ مِنْ مريضٍ محرورٍ يعالجُهُ الطبيبُ في بعضِ أوقاتِهِ بالحرارةِ ؛ ليزيدَ في قوَّتِهِ إلىٰ حدٍّ يحتملُ صدمةَ العلاجِ ، فيتعجَّبُ منهُ مَنْ لا خبرةَ لهُ .

---

(١) انظر « التبيان » (ص٦٣) ، و« المجموع » (١/ ٦٢) ، و« نشر طي التعريف » (ص٢٤٥) .

(٢) **الدمثة** : الأرض السهلة المنخفضة .

وقدْ نبَّهَ اللهُ تعالىٰ بقصَّةِ الخضرِ وموسىٰ عليهما السلامُ حيثُ قالَ الخضرُ : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۞ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ ، ثمَّ شرطَ عليهِ السكوتَ والتسليمَ فقالَ : ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ ، ثمَّ لمْ يصبرْ ولمْ يزلْ في مرادَّتِهِ إلىٰ أنْ كانَ ذلكَ سببَ فراقِ ما بينَهما .

وبالجملةِ : كلُّ متعلِّمٍ استبقىٰ لنفسِهِ رأياً واختياراً وراءَ اختيارِ المعلِّمِ . . فاحكمْ عليهِ بالإخفاقِ والخسرانِ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، فالسؤالُ مأمورٌ بهِ .

فاعلمْ : أنَّهُ كذلكَ ، ولكنْ فيما يأذنُ المعلِّمُ في السؤالِ عنهُ ؛ فإنَّ السؤالَ عمَّا لمْ تبلغْ رتبتُكَ إلىٰ فهمِهِ مذمومٌ ، ولذلكَ منعَ الخضرُ موسىٰ عليهما السلامُ عنِ السؤالِ ؛ أي : دَعِ السؤالَ قبلَ أوانِهِ ، فالمعلِّمُ أعلمُ بما أنتَ أهلٌ لهُ ، وبأوانِ الكشْفِ ، وما لمْ يدخلْ أوانُ الكشفِ في كلِّ درجةٍ مِنْ مراقي الدرجاتِ . . لا يدخلُ أوانُ السؤالِ عنهُ .

وقدْ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ مِنْ حقِّ العالمِ : ألا تكثرَ عليهِ بالسؤالِ ، ولا تعنِّتَهُ في الجوابِ ، ولا تلحَّ عليهِ إذا كسلَ ، ولا تأخذَ بثوبِهِ إذا نهضَ ، ولا تفشيَ لهُ سرّاً ، ولا تغتابَنَّ عندَهُ أحداً ، ولا تطلبَنَّ عَثْرَتَهُ ،

وإنْ زلَّ . . قبلتَ معذرتَهُ ، وعليكَ أنْ توقِّرَهُ وتعظِّمَهُ للهِ تعالىٰ ما دامَ يحفظُ أمرَ اللهِ تعالىٰ ، ولا تجلسْ أمامَهُ ، وإنْ كانتْ لهُ حاجةٌ . . سبقْتَ القومَ إلىٰ خدمتِهِ)[1] .

الوظيفةُ الرابعةُ : أنْ يحترزَ الخائضُ في العلمِ في مبدأِ الأمرِ عنِ الإصغاءِ إلى اختلافِ الناسِ ، سواءٌ كانَ ما خاضَ فيهِ مِنْ علومِ الدنيا أوْ مِنْ علومِ الآخرةِ :

فإنَّ ذلكَ يدهشُ عقلَهُ ويحيِّرُ ذهنَهُ ، ويفتِّرُ رأيَهُ ويؤيسُهُ عنِ الإدراكِ والاطلاعِ ، بلْ ينبغي أنْ يتقنَ أولاً الطريقةَ الحميدةَ الواحدةَ المرضيةَ عندَ أستاذِهِ ، ثمَّ بعدَ ذلكَ يصغي إلى المذاهبِ والشُّبَهِ .

وإنْ لمْ يكنْ أستاذُهُ مستقلاً باختيارِ رأيٍ واحدٍ وإنَّما عادتُهُ نقلُ المذاهبِ وما قيلَ فيها . . فليحذرْ منهُ ؛ فإنَّ إضلالَهُ أكثرُ مِنْ إرشادِهِ ، ولا يصلحُ الأعمىٰ لقودِ العميانِ وإرشادِهِمْ ، ومَنْ هـٰذا حالُهُ فهوَ بعدُ في عمى الحَيْرةِ وتيهِ الجهلِ .

ومنعُ المبتدىءِ عَنِ الشبهِ يضاهي منعَ الحديثِ العهدِ بالإسلامِ عنْ مخالطةِ الكفارِ ، وندبُ القويِّ إلى النظرِ في الاختلافاتِ يضاهي حثَّ القويِّ

---

(١) الفقيه والمتفقه (٨٥٦) بنحوه .

علىٰ مخالطةِ الكفارِ ، ولذلكَ يُمنعُ العاجزُ عنِ التهجُّمِ علىٰ صفِّ الكفارِ ، ويندبُ الشجاعُ لهُ .

ومِنَ الغفلةِ عنْ هـٰذهِ الدقيقةِ ظنَّ بعضُ الضعفاءِ أنَّ الاقتداءَ بالأقوياءِ فيما يُنقلُ عنهُمْ مِنَ المساهلاتِ جائزٌ ، ولمْ يدركْ أنَّ وظائفَ الأقوياءِ تخالفُ وظائفَ الضعفاءِ ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ : (مَنْ رآني في البدايةِ . . صارَ صدِّيقاً ، ومَنْ رآني في النهايةِ . . صارَ زنديقاً)[1] ؛ إذِ النهايةُ تردُّ الأعمالَ إلى الباطنِ ، وتسكِّنُ الجوارحَ إلا عنْ رواتبِ الفرائضِ ، فيتراءىٰ إلى الناظرِ أنَّهُ بطالةٌ وكسلٌ وإهمالٌ ، وهيهاتَ هيهاتَ ! فذلكَ مرابطةٌ للقلبِ في عينِ الشهودِ والحضورِ ، وملازمةٌ للذكرِ الذي هوَ أفضلُ الأعمالِ على الدوامِ .

وتشبُّهُ الضعيفِ بالقويِّ فيما يَرَىٰ مِنْ ظاهرِهِ أنَّهُ هفوةٌ يضاهي اعتذارَ مَنْ يُلقي نجاسةً يسيرةً في كوزِ ماءٍ ويتعلَّلُ بأنَّ أضعافَ هـٰذهِ النجاسةِ قدْ يُلقىٰ في البحرِ والبحرُ أعظمُ مِنَ الكوزِ ، فما جازَ للبحرِ . . فهوَ للكوزِ أجوزُ ، ولا يدري المسكينُ أنَّ البحرَ بقوَّتِهِ يحيلُ النجاسةَ ماءً ، فتنقلبُ عينُ النجاسةِ باستيلائِهِ إلىٰ صفتِهِ ، والقليلُ منَ النجاسةِ يغلبُ الكوزَ ويحيلُهُ إلىٰ صفتِهِ .

وبمثلِ هـٰذا جُوِّزَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما لمْ يُجوَّزْ لغيرِهِ ؛ حتَّىٰ أُبيحَ لهُ تِسْعُ نِسوةٍ[2] ؛ إذْ كانَ لهُ منَ القوَّةِ ما يتعدَّىٰ منهُ صفةُ العدلِ إلىٰ نسائِهِ

---

(١) ميزان العمل (ص٣٤٧) .

(٢) كما روى البخاري (٢٦٨) ، ولفظ (تسع نسوة) من رواية سعيد عن قتادة عن أنس عنده ، وفيه كذلك رواية (إحدىٰ عشرة) .

وإنْ كثرْنَ ، وأمَّا غيرُهُ . . فلا يقدرُ على بعضِ العدْلِ ، بلْ يتعدَّىٰ ما بينَهُنَّ مِنَ الضرارِ إليهِ ، حتَّىٰ ينجرَّ إلىٰ معصيةِ اللهِ تعالىٰ في طلبِ رضاهنَّ ، فما أفلحَ مَنْ قاسَ الملائكةَ بالحدَّادينَ .

الوظيفةُ الخامسةُ : ألا يدعَ طالبُ العلومِ فنّاً مِنَ العلومِ المحمودةِ ولا نوعاً مِنْ أنواعِها إلا وينظرُ فيهِ نظراً يطلعُ بهِ علىٰ مقصدِهِ وغايتِهِ :

ثمَّ إنْ ساعدَهُ العُمُرُ . . طلبَ التبحُّرَ فيهِ، وإلا . . اشتغلَ بالأهمِّ منهُ واستوفاهُ ، وتطرَّفَ مِنَ البقيةِ[1] ؛ فإنَّ العلومَ متعاونةٌ ، وبعضَها مرتبطٌ بالبعضِ .

ويستفيدُ منهُ في الحالِ الانفكاكَ عنْ عداوةِ ذلكَ العلمِ بسببِ جهلِهِ ؛ فإنَّ الناسَ أعداءُ ما جهلوا ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ .

وقالَ الشاعرُ[2] : [من الوافر]

وَمَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرّاً بِهِ ٱلْمَاءَ ٱلزُّلالا

فالعلومُ علىٰ درجاتِها : إمَّا سالكةٌ بالعبدِ إلى اللهِ تعالىٰ ، أوْ معينةٌ على السلوكِ نوعاً مِنَ الإعانةِ ، ولها منازلُ مرتَّبةٌ في القربِ والبعدِ مِنَ المقصودِ ، والقُوَّامُ بها حفظةٌ كحفّاظِ الرباطاتِ والثغورِ ، ولكلِّ واحدٍ رتبةٌ ، ولهُ

---

(١) أي : أخذ منها الطرف والنوادر المحتاج إليها في حال طلبه . « إتحاف » (١/ ٣٢١) .
(٢) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٢٢٨) .

بحسَبِ درجتِهِ أجرٌ في الآخرةِ إذا قصدَ بهِ وجهَ اللهِ تعالىٰ .

❀ ❀ ❀

الوظيفةُ السادسةُ : إنَّ العمرَ إذا كانَ لا يتسعُ لجميعِ العلومِ غالباً . . فالحزمُ أنْ يأخذَ مِنْ كلِّ شيءٍ أحسنَهُ :

ويكتفيَ منهُ بشمَّةٍ ، ويصرفَ جِمامَ قوَّتِهِ في الميسورِ مِنْ علمِهِ إلى استكمالِ العلمِ الذي هوَ أشرفُ العلومِ وهوَ علمُ الآخرةِ ؛ أعني : قسمي المعاملةِ والمكاشفةِ ، فغايةُ المعاملةِ المكاشفةُ ، وغايةُ المكاشفةِ معرفةُ اللهِ عزَّ وجلَّ .

ولستُ أعني بهِ الاعتقادَ الذي تلقَّنَهُ العاميُّ وراثةً أوْ تلقُّفاً ، ولا طريقَ تحريرِ الكلامِ والمجادلةِ في تحصينِ ذلكَ عنْ مراوغاتِ الخصومِ كما هوَ غايةُ المتكلِّمِ ، بلِ الذي أعنيهِ نوعُ يقينٍ هوَ ثمرةُ نورٍ يقذفُهُ اللهُ تعالىٰ في قلبِ عبدٍ طهَّرَ بالمجاهدةِ باطنَهُ عنِ الخبائثِ حتىٰ ينتهي إلىٰ رتبةِ إيمانِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ الذي لوْ وُزِنَ بإيمانِ العالمينَ . . لرجحَ ، كما شهدَ لهُ بهِ سيِّدُ البشرِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[1] ، فما عندي[2] أنَّ ما يعتقدُهُ العاميُّ ويرتِّبُهُ المتكلِّمُ الذي لا يزيدُ على العاميِّ إلا في صنعةِ الكلامِ ولأجلِهِ سمِّيتْ صناعتُهُ كلاماً . . كانَ يعجَزُ عنهُ عمرُ وعثمانُ وعليٌّ وسائرُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، حتَّىٰ كانَ يفضُلُهُمْ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ بالسرِّ الذي وَقَرَ في صدرِهِ .

---

(١) رواه مرفوعاً ابن عدي في « الكامل » (٤/ ٢٠١) ، والبيهقي موقوفاً علىٰ عمر رضي الله عنه في « الشعب » (٣٥) .

(٢) (ما) هنا نافية ؛ أي : ليس عندي .

والعجَبُ ممَّنْ يسمعُ مثلَ هـٰذهِ الأقوالِ مِنْ صاحبِ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ ثمَّ يزدري ما يسمعُهُ علىٰ وَفْقِهِ ، ويزعمُ أنَّهُ مِنْ ترَّهاتِ الصوفيةِ ، وأنَّ ذلكَ غيرُ معقولٍ .

فينبغي أنْ تتئِدَ في هـٰذا ، فعندَهُ ضيَّعْتَ رأسَ المالِ ، وكنْ حريصاً علىٰ معرفةِ ذلكَ السرِّ الخارجِ عنْ بضاعةِ الفقهاءِ والمتكلمينَ ، فلا يرشدُكَ إليهِ إلا حرصُكَ في الطلبِ .

وعلى الجملةِ : فأشرفُ العلومِ وغايتُها معرفةُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهيَ بحرٌ لا يُدركُ منتهىٰ غورِهِ ، وأقصىٰ درجاتِ البشرِ فيهِ رتبةُ الأنبياءِ ، ثمَّ الأولياءِ ، ثمَّ الذين يلونَهُمْ .

وقد رُوِيَ أنَّهُ رُئِيَ صورةُ حَكِيمينِ مِنَ الحكماءِ المتقدمينَ في مسجدٍ وفي يدِ أحدِهما رقعةٌ فيها : (إنْ أحسنْتَ كلَّ شيءٍ . . فلا تظنَّنَّ أنَّكَ أحسنْتَ شيئاً حتَّىٰ تعرفَ اللهَ تعالىٰ وتعلمَ أنَّه مسببُ الأسبابِ وموجدُ الأشياءِ) ، وفي يدِ الآخرِ : (كنتُ قبلَ أنْ أعرفَ اللهَ سبحانَهُ أشربُ وأظمأُ ، حتَّىٰ إذا عرفتُهُ . . رَوِيتُ بلا شرْبٍ) .

❀ ❀ ❀

الوظيفةُ السابعةُ : ألا يخوضَ في فنونِ العلمِ دفعةً ، بلْ يراعي الترتيبَ ، فيبدأُ بالأهمِّ فالأهمِّ ، ولا يخوضُ في فنٍّ حتَّىٰ يستوفيَ الفنَّ الذي قبلَهُ :

فإنَّ العلومَ مرتبةٌ ترتيباً ضرورياً ، وبعضُها طريقٌ إلىٰ بعضٍ ، والموفَّقُ

مراعي ذلكَ الترتيبِ والتدريجِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ أيْ : لا يجاوزونَ فنّاً حتّىٰ يحكموهُ علماً وعملاً .

وليكنْ قصدُهُ مِنْ كلِّ علمٍ يتحرَّاهُ الترقيَ إلىٰ ما فوقَهُ ، وينبغي ألا تحكمَ علىٰ علمٍ بالفسادِ لوقوعِ الاختلافِ بينَ أصحابِهِ فيهِ ، ولا بخطأِ واحدٍ أو آحادٍ فيهِ ، ولا بمخالفتِهِمْ موجَبَ العلمِ بالعملِ ، فترىٰ جماعةً تركوا النظرَ في العقليَّاتِ والفقهيَّاتِ متعلِّلينَ فيها بأنَّها لوْ كانَ لها أصلٌ . . لأدركَها أربابُها ، وقدْ مضىٰ كشفُ هـٰذِهِ الشبهِ في كتابِنا « مِعيارُ العلمِ » ، وترىٰ طائفةً يعتقدونَ بطلانَ الطبِّ لخطأٍ شاهدوه من طبيبٍ .

وطائفةً اعتقدوا صحَّةَ النجومِ لصوابٍ اتفقَ لواحدٍ ، وطائفةً اعتقدوا بطلانَهُ لخطأٍ اتفقَ لواحدٍ ، والكلُّ خطأٌ ، بلْ ينبغي أنْ يعرفَ الشيءَ في نفسِهِ ، فلا كلُّ علمٍ يستقلُّ بهِ كلُّ شخصٍ ، ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (لا تعرفِ الحقَّ بالرجالِ ، اعرفِ الحقَّ . . تعرفْ أهلَهُ) .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الثامنةُ : أنْ يعرفَ السببَ الذي بهِ يُدركُ شرفُ العلومِ ، وأنَّ ذلكَ يُرادُ بهِ شيئانِ :

أحدُهما : شرفُ الثمرةِ .

والثاني : وثاقةُ الدليلِ وقوَّتُهُ .

وذلكَ كعلْمِ الدينِ وعلْمِ الطبِّ ؛ فإنَّ ثمرةَ أحدِهما الحياةُ الأبديةُ ،

وثمرةَ الآخرِ الحياةُ الفانيةُ ، فيكونُ علمُ الدينِ أشرفَ .

ومثلُ علمِ الحسابِ وعلمِ النجومِ ؛ فإنَّ علمَ الحسابِ أشرفُ ؛ لوثاقةِ أدلتِهِ وقوَّتِها .

وإذا نُسبَ الحسابُ إلى الطبِّ . . كانَ الطبُّ أشرفَ باعتبارِ ثمرتِهِ ، والحسابُ أشرفَ باعتبارِ أدلَّتِهِ ، وملاحظةُ الثمرةِ أولىٰ ، ولذلكَ كانَ الطبُّ أشرفَ وإنْ كانَ أكثرُهُ بالتخمينِ .

وبهـٰذا يتبينُ أنَّ أشرفَ العلومِ العلمُ باللهِ عزَّ وجلَّ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ ، والعلمُ بالطريقِ الموصلِ إلىٰ هـٰذهِ العلومِ ، فإيَّاكَ وأنْ ترغبَ إلا فيهِ ، وأنْ تحرصَ إلا عليهِ .

الوظيفةُ التاسعةُ : أنْ يكونَ قصدُ المتعلِّمِ في الحالِ تحليةَ باطنِهِ وتجميلَهُ بالفضيلةِ ، وفي المآلِ القربَ مِنَ اللهِ سبحانَهُ والترقِّيَ إلىٰ جوارِ الملإِ الأعلىٰ مِنَ الملائكةِ والمقرَّبينَ :

ولا يقصدُ بهِ الرئاسةَ والمالَ والجاهَ ومماراةَ السفهاءِ ومباهاةَ الأقرانِ ، وإذا كانَ هـٰذا[1] مقصدَهُ . . طلبَ ـ لا محالةَ ـ الأقربَ إلىٰ مقصودِهِ ، وهوَ علمُ الآخرةِ ، ومعَ هـٰذا فلا ينبغي له أنْ ينظرَ بعينِ الحقارةِ إلىٰ سائرِ العلومِ ؛ أعني : علمَ الفتاوىٰ ، وعلمَ النحوِ واللغةِ المتعلِّقينِ بالكتابِ والسنةِ ، وغيرَ

(١) يعني : الوصول إلى الله تعالىٰ . « إتحاف » (١/٣٢٦) .

ذلكَ ممَّا أوردناهُ في المقدِّماتِ والمتمِّماتِ منْ ضروبِ العلومِ التي هيَ فرضُ كفايةٍ .

ولا تفهمَنَّ مِنْ غلوِّنا في الثناءِ علىٰ علمِ الآخرةِ تهجينَ هـٰذهِ العلومِ ؛ فالمتكفِّلونَ بالعلومِ كالمتكفِّلينَ بالثغورِ والمرابطينَ بها ، والغزاةِ المجاهدينَ في سبيلِ اللهِ ؛ فمنهُمُ المقاتلُ ، ومنهُمُ الرِّدْءُ ، ومنهُمُ الذي يسقيهِمُ الماءَ ، ومنهُمُ الذي يحفظُ دوابَّهُمْ ويتعهَّدُها ، ولا ينفكُّ واحدٌ منهُمْ عنْ أجرٍ إذا كانَ قصدُهُ إعلاءَ كلمةِ اللهِ تعالىٰ دونَ حيازةِ الغنائمِ ، فكذلكَ العلماءُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ .

والفضيلةُ نسبيَّةٌ ، واستحقارُنا للصيارفةِ عندَ قياسِهِمْ بالملوكِ لا يدلُّ علىٰ حقارتِهِمْ إذا قيسوا بالكنَّاسينَ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ ما نزلَ عنِ الرتبةِ القصوىٰ ساقطُ القدْرِ ، بلِ الرتبةُ العليا للأنبياءِ ، ثمَّ الأولياءِ ، ثمَّ العلماءِ الراسخينَ في العلمِ ، ثم للصالحينَ علىٰ تفاوتِ درجاتِهِمْ .

وبالجملةِ : مَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً . . يَرهُ ، ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً . . يَرهُ ، ومَنْ قصدَ اللهَ تعالىٰ بالعلمِ أيَّ علمٍ كانَ . . نفعَهُ ورفعَهُ لا محالةَ .

الوظيفةُ العاشرةُ : أنْ يعلمَ نسبةَ العلومِ إلى المقصدِ :

كيما يؤْثرَ الرفيعَ القريبَ على البعيدِ ، والمهمَّ علىٰ غيرِهِ ، ومعنى المهمِّ : ما يهمُّكَ ، ولا يهمُّكَ إلا شأنُكَ في الدنيا والآخرةِ ، وإذا لم يمكنِ الجمعُ بينَ ملاذِ الدنيا ونعيمِ الآخرةِ كما نطقَ بهِ القرآنُ وشهدَ لهُ مِنْ نورِ البصائرِ ما يجري مَجرى العيانِ . . فالأهمُّ ما يبقىٰ أبدَ الآبادِ ؛ وعندَ ذلكَ تصيرُ الدنيا منزلاً ، والبدنُ مركباً ، والأعمالُ سعياً إلى المقصدِ ، ولا مقصدَ إلا لقاءُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ففيهِ النعيمُ كلُّهُ ، وإنْ كانَ لا يَعرفُ في هـٰذا العالَمِ قدرَهُ إلا الأقلُّونَ .

والعلومُ بالإضافةِ إلىٰ سعادةِ لقاءِ اللهِ تعالىٰ والنظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ - أعني النظرَ الذي طلبَهُ الأنبياءُ وفهموهُ ، دونَ ما يسبقُ إلىٰ فهْمِ العوامِّ والمتكلمينَ ـ علىٰ ثلاثِ مراتبَ ، تفهمُها بالموازنةِ بمثالٍ :

وهوَ أنَّ العبدَ الذي عُلِّقَ عتقُهُ وتمكينُهُ منَ المُلْكِ بالحجِّ ، وقيلَ لهُ : إنْ حججْتَ وأتممتَ . . وصلتَ إلى العتْقِ والمُلْكِ جميعاً ، وإنِ ابتدأتَ بطريقِ الحجِّ والاستعدادِ لهُ وعاقَكَ في الطريقِ مانعٌ ضروريٌّ . . فلكَ العتْقُ والخلاصُ منْ شقاءِ الرقِّ فقطْ دونَ سعادةِ المُلْكِ . . فلهُ ثلاثةُ أصنافٍ مِنَ الشغلِ :

الأوَّلُ : تهيئةُ الأسبابِ بشراءِ الناقةِ وخرْزِ الراويةِ وإعدادِ الزادِ والراحلةِ .

والثاني : السلوكُ ومفارقةُ الوطنِ بالتوجُّهِ إلى الكعبةِ منزلاً بعدَ منزلٍ .

والثالثُ : الاشتغالُ بأعمالِ الحجِّ ركناً بعدَ ركنٍ .

ثمَّ بعدَ الفراغِ والنزوعِ عنْ هيئةِ الإحرامِ وطوافِ الوداعِ . . استحَقَّ التعرُّضَ للمُلْكِ والسلطنةِ ، ولهُ في كلِّ مقامٍ منازلُ ، مِنْ أوَّلِ إعدادِ الأسبابِ إلىٰ آخرِهِ ، ومِنْ أوَّلِ سلوكِ البوادي إلىٰ آخرِهِ ، ومِنْ أوَّلِ أركانِ الحجِّ إلىٰ آخرِهِ ، وليسَ قرْبُ مَنِ ابتدأَ بأركانِ الحجِّ مِنَ السعادةِ كقرْبِ مَنْ هوَ بعدُ في إعدادِ الزادِ والراحلةِ ، ولا كقربِ مَنِ ابتدأَ بالسلوكِ ، بلْ هوَ أقربُ منهُ .

فالعلومُ أيضاً ثلاثةُ أقسامٍ :

قسمٌ يجري مَجرىٰ إعدادِ الزادِ والراحلةِ وشراءِ الناقةِ : وهوَ علْمُ الطبِّ والفقهِ وما يتعلَّقُ بمصالحِ البدنِ في الدنيا .

وقسمٌ يجري مَجرىٰ سلوكِ البوادي وقطعِ العقباتِ : وهوَ تطهيرُ الباطنِ عنْ كدوراتِ الصفاتِ ، وطلوعُ تلكَ العقباتِ الشامخةِ التي عجَزَ عنها الأوَّلونَ والآخرونَ إلا الموفقينَ ، فهـٰذا سلوكُ الطريقِ ، وتحصيلُ علمِهِ كتحصيلِ علْمِ جهاتِ الطريقِ ومنازلِهِ ، وكما لا يغني علْمُ المنازلِ وطرقِ البوادي دونَ سلوكِها . . كذلكَ لا يغني علمُ تهذيبِ الأخلاقِ دونَ مباشرةِ التهذيبِ ، ولكنَّ المباشرةَ دونَ العلمِ غيرُ ممكنٍ .

وقسمٌ ثالثٌ يجري مَجرىٰ نفْسِ الحجِّ وأركانِهِ : وهوَ العلمُ باللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ وملائكتِهِ وأفعالِهِ وجميعِ ما ذكرناهُ في تراجمِ علمِ المكاشفةِ .

وهـٰهنا نجاةٌ وفوزٌ بالسعادةِ ، والنجاةُ حاصلةٌ لكلِّ سالكٍ للطريقِ إذا كانَ غرضُهُ المقصدَ الحقَّ وهوَ السلامةُ .

وأمَّا الفوزُ بالسعادةِ . . فلا ينالُهُ إلا العارفونَ باللهِ تعالىٰ ، فهمُ المقربونَ المنعَّمونَ في جوارِ اللهِ بالرَّوْحِ والريحانِ وجنَّةِ النعيمِ .

وأمَّا الممنوعونَ دونَ ذُروةِ الكمالِ . . فلهُمُ النجاةُ والسلامةُ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۞ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۞ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ .

وكلُّ مَنْ لمْ يتوجَّهْ إلى المقصدِ ، ولمْ ينتهضْ لهُ ، أوِ انتهضَ إلىٰ جهتِهِ لا علىٰ قصدِ الامتثالِ والعبوديةِ ، بلْ لغرضٍ عاجلٍ . . فهوَ منْ أصحابِ الشمالِ ومنَ الضالينَ ، فلهُ نُزُلٌ منْ حَميمٍ وتصليةُ جحيمٍ .

واعلمْ : أنَّ هـٰذا هوَ حقُّ اليقينِ عندَ العلماءِ الراسخينَ ؛ أعني أنهمْ أدركوهُ بمشاهدةٍ منَ الباطنِ هيَ أقوىٰ وأجلىٰ منْ مشاهدةِ الأبصارِ ، وترقَّوا فيهِ عنْ حدِّ التقليدِ بمجرَّدِ السماعِ ، وحالُهُمْ حالُ منْ أُخبرَ فصدَّقَ ، ثمَّ شاهدَ فتحقَّقَ ، وحالُ غيرِهِمْ حالُ مَنْ قَبِلَ بحسْنِ التصديقِ والإيمانِ ، ولمْ يحظَ بالمشاهدةِ والعِيانِ .

فالسعادةُ وراءَ علْمِ المكاشفةِ ، وعلْمُ المكاشفةِ وراءَ علمِ المعاملةِ التي هيَ سلوكُ طريقِ الآخرةِ ، وقطعُ عقباتِ الصفاتِ ، وسلوكُ طريقِ محوِ الصفاتِ المذمومةِ وراءَ علْمِ الصفاتِ ، وعلْمِ طريقِ المعالجةِ وكيفيةِ السلوكِ ، وذلكَ

وراءَ علْمِ سلامةِ البدنِ ومساعدةِ أسبابِ الصحةِ ، وسلامةُ البدنِ بالاجتماعِ والتظاهرِ والتعاونِ الذي يُتوصَّلُ بهِ إلى الملبسِ والمطعمِ والمسكنِ ، وهوَ منوطٌ بالسلطانِ وقانونِهِ في ضبْطِ الناسِ علىٰ نهْجِ العدلِ والسياسةِ في ناصيةِ الفقيهِ .

وأمَّا أسبابُ الصحةِ . . ففي ناصيةِ الطبيبِ ، ومَنْ قالَ : (العلمُ علمانِ : علمُ الأبدانِ ، وعلمُ الأديانِ) وأشارَ بهِ إلى الفقهِ . . أرادَ بهِ العلومَ الظاهرةَ الشائعةَ ، لا العلومَ العزيزةَ الباطنةَ[1] .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : لِمَ شبهتَ علمَ الفقهِ والطبِّ بإعدادِ الزادِ والراحلةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ الساعيَ إلى اللهِ تعالىٰ لينالَ قربَهُ هوَ القلبُ دونَ البدنِ ، ولستُ أعني بالقلبِ اللحْمَ المحسوسَ ، بلْ هوَ سرٌّ مِنْ أسرارِ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يدركُهُ الحسُّ ، ولطيفةٌ منْ لطائفِهِ تارةً يُعبَّرُ عنهُ بالروحِ ، وتارةً بالنفسِ المطمئنةِ ، والشرعُ يعبِّرُ عنهُ بالقلبِ ؛ لأنَّهُ المطيةُ الأولىٰ لذلكَ السرِّ ، وبواسطتِهِ صارَ جميعُ البدنِ مطيةً وآلةً لتلكَ اللطيفةِ .

وكشفُ الغطاءِ عَنْ ذلكَ السرِّ مِنْ علْمِ المكاشفةِ ، وهوَ مضنونٌ بهِ ، بلْ لا رخصةَ في ذكرِهِ ، وغايةُ المأذونِ فيهِ أنْ يقالَ : هوَ جوهرٌ نفيسٌ ودرٌّ عزيزٌ أشرفُ مِنْ هـٰذهِ الأجرامِ المرئيةِ ، وإنَّما هوَ أمْرٌ إلـٰهيٌّ ؛ كما قالَ تعالىٰ :

---

(١) والقول للإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ ، كما في « حلية الأولياء » (٩/ ١٤٢) .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ .

وكلُّ المخلوقاتِ منسوبةٌ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولكنَّ نسبتَهُ أشرفُ مِنْ نسبةِ سائرِ أعضاءِ البدنِ ، فللّٰهِ الخلْقُ والأمْرُ جميعاً ، والأمرُ أعلىٰ مِنَ الخلْقِ ، وهـٰذهِ الجوهرةُ النفيسةُ الحاملةُ لأمانةِ اللهِ تعالى المتقدمةُ بهـٰذهِ الرتبةِ على السماواتِ والأرضينَ والجبالِ إذْ أبَيْنَ أنْ يحملْنَها وأشفقْنَ منها . . هيَ مِنْ عالَمِ الأمرِ .

ولا تفهمْ مِنْ هـٰذا تعريضاً بقِدَمِهِ ، فالقائلُ بقِدَمِ الأرواحِ مغرورٌ جاهلٌ لا يدري ما يقولُ[1] .

فلنقبضْ عِنانَ البيانِ عنْ هـٰذا الفنِّ ، فهوَ وراءَ ما نحنُ بصددِهِ .

والمقصودُ : أنَّ هـٰذهِ اللطيفةَ هيَ الساعيةُ إلىٰ قرْبِ الربِّ ؛ لأنَّها مِنْ أمْرِ الربِّ ، فمنهُ مصدرُها ، وإليهِ مرجعُها ، وأمَّا البدنُ . . فمطيَّتُها التي تركبُها وتسعىٰ بواسطتِها ، فالبدنُ لها في طريقِ اللهِ تعالىٰ كالناقةِ للبدنِ في طريقِ الحجِّ ، وكالراويةِ الحاويةِ للماءِ الذي يفتقرُ إليهِ البدنُ .

فكلُّ علْمٍ مقصدُهُ مصلحةُ البدنِ . . فهوَ مِنْ جملةِ مصالحِ المطيَّةِ ، ولا يخفَىٰ أنَّ الطبَّ كذلكَ ؛ فإنَّه قدْ يُحتاجُ إليهِ في حفْظِ الصحةِ على البدنِ ، ولوْ كانَ الإنسانُ وحدَهُ . . لاحتاجَ إليهِ ، والفقهُ يفارقُهُ في أنَّهُ لوْ كانَ

---

(١) كالفلاسفة ومن علىٰ قدمهم . « إتحاف » (١/ ٣٣٢) .

الإنسانُ وحدَهُ . . ربَّما كانَ يستغني عنهُ ، ولكنَّهُ خُلِقَ علىٰ وجهٍ لا يمكنُهُ أنْ يعيشَ وحدَهُ ، إذْ لا يستقلُّ بالسعيِ في تحصيلِ طعامِهِ بالحراثةِ والزرْعِ والخبزِ والطبخِ ، وفي تحصيلِ الملبسِ والمسكنِ ، وفي إعدادِ آلاتِ ذلكَ كلِّهِ ، فاضطرَّ إلى المخالطةِ والاستعانةِ .

ومهما اختلطَ الناسُ وثارَتْ شهواتُهُمْ . . تجاذبوا أسبابَ الشهواتِ ، وتنازعوا وتقاتلوا ، وحصلَ مِنْ قتالِهِمْ هلاكُهُمْ بسببِ التنافسِ مِنْ خارجٍ ، كما يحصلُ هلاكُهُمْ بسببِ تضادِّ الأخلاطِ مِنْ داخلٍ ، وبالطبِّ يُحفظُ الاعتدالُ في الأخلاطِ المتنازعةِ مِنْ داخلٍ ، وبالسياسةِ والعدْلِ يُحفظُ الاعتدالُ في التنافسِ مِنْ خارجٍ ، وعلمُ طريقِ اعتدالِ الأخلاطِ طبٌّ ، وعلْمُ طريقِ اعتدالِ أحوالِ الناسِ في المعاملاتِ والأفعالِ فقْهٌ ، وكلُّ ذلكَ يحفظُ البدنَ الذي هوَ مطيةٌ .

فالمتجرِّدُ لعلْمِ الفقهِ أوِ الطبِّ إذا لمْ يجاهدْ نفسَهُ ولمْ يصلحْ قلبَهُ . . كالمتجرِّدِ لشراءِ الناقةِ وعلفِها وشراءِ الراويةِ وخرْزِها إذا لمْ يسلكْ باديةَ الحجِّ ، والمستغرقُ عمرَهُ في دقائقِ الكلماتِ التي تُحرَّرُ في مجادلاتِ الفقهِ . . كالمستغرقِ عمرَهُ في دقائقِ الأسبابِ التي بها تستحكمُ الخيوطُ التي تُخرزُ بها راويةُ الحجِّ .

ونسبةُ هؤلاءِ مِنَ السالكِ لطريقِ إصلاحِ القلبِ أوِ الواصلِ إلىٰ علْمِ المكاشفةِ . . كنسبةِ أولئكَ إلىٰ سالكي طريقِ الحجِّ أوْ مُلابسي أركانِهِ .

فتأملْ هـٰذا أولاً ، واقبلِ النصيحةَ مجَّاناً ممَّنْ قامَ عليهِ ذلكَ غالباً ولمْ يصلْ إليهِ إلا بعدَ جهْدٍ جهيدٍ ، وجَراءةٍ تامَّةٍ علىٰ مباينةِ الخلْقِ ؛ العامَّةِ والخاصَّةِ في النزوعِ مِنْ تقليدِهِمْ بمجرَّدِ الشهوةِ .

فهـٰذا القدْرُ كافٍ في وظائفِ المتعلِّمِ .

بيان وظائف المرشد المعلّم

اعلمْ : أنَّ للإنسانِ في علمِهِ أربعةَ أحوالٍ ، كما لهُ في اقتناءِ الأموالِ ؛ إذْ لصاحبِ المالِ حالُ استفادةٍ فيكونُ **مكتسباً** ، وحالُ ادخارٍ لما اكتسبَهُ فيكونُ بهِ **غنياً عنِ السؤالِ** ، وحالُ إنفاقٍ علىٰ نفسِهِ فيكونُ بهِ **منتفعاً** ، وحالُ بذْلٍ لغيرِهِ فيكونُ بهِ **سخيّاً متفضِّلاً** ، وهوَ أشرفُ أحوالِهِ .

فكذلكَ العلْمُ يقتنىٰ كالمالِ ، فلهُ حالُ طلبٍ واكتسابٍ ، وحالُ تحصيلٍ يغني عنِ السؤالِ ، وحالُ استبصارٍ وهو التفكُّرُ في المحصَّلِ والتمتُّعُ بهِ ، وحالُ تبصيرٍ وهوَ أشرفُ الأحوالِ .

فمَنْ علِمَ وعملَ وعلَّمَ فهوَ الذي يُدعَىٰ عظيماً في ملكوتِ السماءِ ؛ فإنَّهُ كالشمسِ تضيءُ لغيرِها وهيَ مضيئةٌ في نفسِها ، وكالمسكِ الذي يطيِّبُ غيرَهُ وهوَ طيِّبٌ .

والذي يعلِّمُ ولا يعملُ بهِ كالدفترِ الذي يفيدُ غيرَهُ وهوَ خالٍ عن العلْمِ ، وكالمِسَنِّ الذي يشحَذُ غيرَهُ ولا يقطعُ ، والإبرةِ التي تكسو غيرَها وهيَ عاريةٌ ، وذُبالةِ المصباحِ تضيءُ لغيرِها وهيَ تحترقُ ، كما قيلَ[1] : [من المنسرح]

صِرْتُ كَأَنِّي ذُبالَةٌ وُقِدَتْ ... تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَهْيَ تَحْتَرِقُ

---

(١) ديوان العباس بن الأحنف (ص٢٢١) .

ومهما اشتغلَ بالتعليمِ . . فقدْ تقلَّدَ أمراً عظيماً وخطراً جسيماً ، فليحفظْ آدابَهُ ووظائِفَهُ .

الوظيفةُ الأولىٰ : الشفقةُ على المتعلِّمينَ ، وأنْ يُجريَهُمْ مُجرىٰ بَنيهِ :

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما أنا لكُمْ مثلُ الوالدِ لولدِهِ »[1] ، فإنَّ قصدَهُ إنقاذُهُمْ مِنْ نارِ الآخرةِ ، وهوَ أهمُّ مِنْ إنقاذِ الوالدينِ ولدَهما مِنْ نارِ الدنيا .

ولذلكَ صارَ حقُّ المعلِّمِ أعظمَ مِنْ حقِّ الوالدينِ ؛ فإنَّ الوالدَ سببُ الوجودِ الحاضرِ والحياةِ الفانيةِ ، والمعلِّمَ سببُ الحياةِ الباقيةِ ، ولولا المعلِّمُ . . لساقَ ما حصلَ منْ جهةِ الأبِ إلى الهلاكِ الدائمِ ، وإنَّما المعلِّمُ هوَ المفيدُ للحياةِ الأخرويةِ الدائمةِ ؛ أعني معلِّمَ علومِ الآخرةِ ، أوْ علومِ الدنيا علىٰ قصْدِ الآخرةِ لا علىٰ قصْدِ الدنيا ، فأمَّا التعليمُ علىٰ قصْدِ الدنيا . . فهوَ هلاكٌ وإهلاكٌ ، نعوذُ باللهِ منهُ .

وكما أنَّ حقَّ أبناءِ الرجلِ الواحدِ أنْ يتحابُّوا ويتعاونوا على المقاصدِ كلِّها . . فكذلكَ حقُّ تلامذةِ الرجلِ الواحدِ التحابُّ والتوادُّ ، ولا يكونُ إلا كذلكَ إنْ كانَ مقصدُهُمُ الآخرةَ ، ولا يكونُ إلا التحاسدُ والتباغضُ إنْ كانَ مقصدُهُمُ الدنيا .

---

(١) رواه أبو داوود (٨) ، والنسائي (١/ ٣٨) ، وابن ماجه (٣١٣) .

فإنَّ العلماءَ وأبناءَ الآخرةِ مسافرونَ إلى اللهِ تعالىٰ ، وسالكونَ إليهِ الطريقَ مِنَ الدنيا ، وسِنُوها وشهورُها منازلُ الطريقِ ، والترافقُ في الطريقِ بينَ المسافرينَ إلى الأمصارِ سببُ التوادِّ والتحابِّ ، فكيفَ السفرُ إلى الفردوسِ الأعلىٰ والترافقُ في طريقِهِ ؟!

ولا ضيقَ في سعاداتِ الآخرةِ ، فلذلكَ لا يكونُ بينَ أبناءِ الآخرةِ تنازعٌ ، ولا سَعةَ في سعاداتِ الدنيا ، فلذلكَ لا ينفكُّ عنْ ضيقِ التزاحمِ .

والعادلونَ إلىٰ طلبِ الرئاسةِ بالعلومِ خارجونَ عنْ موجَبِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، وداخلونَ في مقتضىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ الثانيةُ : أنْ يقتديَ بصاحبِ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ :

فلا يطلبُ علىٰ إفاضةِ العلْمِ أجراً ، ولا يقصدُ بهِ جزاءً ولا شكراً ، بلْ يعلِّمُ لوجْهِ اللهِ تعالىٰ ، وطلباً للتقرُّبِ إليهِ ، ولا يرىٰ لنفسِهِ منَّةً عليهِمْ وإنْ كانتِ المنَّةُ لازمةً عليهِمْ ، بلْ يرى الفضلَ لهُمْ ؛ إذ هَدَفوا قلوبَهُمْ لأنْ تتقرَّبَ إلى اللهِ بزراعةِ العلومِ فيها[1] ، كالذي يعيرُكَ الأرضَ لتزرعَ فيها لنفسِكَ زراعةً ، فمنفعتُكَ بها تزيدُ علىٰ منفعةِ صاحبِ الأرضِ ، فكيفَ تقلِّدُهُ منَّةً وثوابُكَ في التعليمِ أكثرُ مِنْ ثوابِ المتعلِّمِ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ولولا المتعلِّمُ . . ما نلتَ هٰذا الثوابَ ؟!

---

(١) هدفوا هنا : رموا ، كأنهم ألقوها ابتغاء القرب منه سبحانه ، أو عرَّضوها لذلك .

فلا تطلبِ الأجرَ إلا مِنَ اللهِ تعالىٰ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ ؛ فإنَّ المالَ وما في الدنيا خادمُ البدنِ ، والبدنُ مركبُ النفسِ ومطيَّتُها ، والمخدومُ هوَ العلْمُ ؛ إذْ بهِ شرفُ النفسِ ، فمَنْ طلبَ بالعلمِ المالَ . . كانَ كمنْ مسحَ أسفلَ مداسِهِ ونعلِهِ بمحاسِنِهِ لينظفَهُ[1] ، فجعلَ المخدومَ خادماً والخادمَ مخدوماً ، وذلكَ هوَ الانتكاسُ علىٰ أمِّ الراسِ ، ومثلُهُ هوَ الذي يقومُ في العرْضِ الأكبرِ معَ المجرمينَ ناكسي رؤوسِهِمْ عندَ ربِّهِمْ .

وعلى الجملةِ : فالفضلُ والمنَّةُ للمعلِّمِ .

فانظرْ كيفَ انتهىٰ أمرُ الدينِ إلىٰ قومٍ يزعمونَ أنَّ مقصودَهُمُ التقرُّبُ إلى اللهِ تعالىٰ بما همْ فيهِ مِنْ علْمِ الفقهِ والكلامِ والتدريسِ فيهما وفي غيرِهما ؛ فإنَّهُمْ يبذلونَ المالَ والجاهَ ، ويتحمَّلونَ أصنافَ الذلِّ في خدمةِ السلاطينِ لاستطلاقِ الجِراياتِ[2] ، ولوْ تركوا ذلكَ . . لتُركوا ولمْ يُختَلَفْ إليهِمْ .

ثمَّ يتوقَّعُ المعلِّمُ مِنَ المتعلِّمِ أنْ يقومَ لهُ في كلِّ نائبةٍ ، وينصرَ وليَّهُ ، ويعاديَ عدوَّهُ ، وينتهضَ حماراً لهُ في حاجاتِهِ ، ومسخَّراً بينَ يديهِ في أوطارِهِ ، فإنْ قصَّرَ في حقِّهِ . . ثارَ عليهِ ، وصارَ مِنْ أعدىٰ أعدائِهِ ، فأخْسِسْ

---

(١) في (ج) : (كان كمن مسح أسفل نعله برِجْله من نجاسته لينظفه) ، وفي بعض نسخ الحافظ الزبيدي : (بوجهه) بدل (بمحاسنه) ، قال : (وإليه يعود معنى المحاسن) . « إتحاف » (١/ ٣٣٨) .

(٢) **الجراية** : ما يجري من الرواتب المعلومة على الإنسان من نقد وغلَّة وغير ذلك .

بعالمٍ يرضىٰ لنفسهِ بهـٰذهِ المنزلةِ ثمَّ يفرحُ بها ، ثمَّ لا يستحيي مِنْ أنْ يقولَ : غرضي مِنَ التدريسِ نشرُ العلمِ تقرُّباً إلى اللهِ تعالىٰ ونصرةً لدينِهِ !

فانظرْ إلى الأماراتِ حتَّىٰ ترىٰ صنوفَ الاغتراراتِ .

الوظيفةُ الثالثةُ : ألا يدَّخرَ مِنْ نصْحِ المتعلِّمِ شيئاً :

وذلكَ بأنْ يمنعَهُ مِنَ التصدِّي لرتبةٍ قبلَ استحقاقِها ، والتشاغلِ بعلْمٍ خفيٍّ قبلَ الفراغِ مِنَ الجليِّ ، ثمَّ ينبهَهُ علىٰ أنَّ الغرضَ بطلبِ العلومِ القربُ مِنَ اللهِ تعالىٰ دونَ الرئاسةِ والمباهاةِ والمنافسةِ ، ويقدِّمَ تقبيحَ ذلكَ في نفسِهِ بأقصىٰ ما يمكنُ ، فليسَ ما يصلحُهُ العالمُ الفاجرُ بأكثرَ ممَّا يفسدُهُ .

فإنْ علِمَ مِنْ باطنِهِ أنَّهُ لا يطلبُ العلْمَ إلا للدنيا . . نظرَ إلى العلْمِ الذي يطلبُهُ ، فإنْ كانَ هوَ علمَ الخلافِ في الفقهِ ، والجدلِ في الكلامِ ، والفتاوىٰ في الخصوماتِ والأحكامِ . . فيمنعُهُ مِنْ ذلكَ ؛ فإنَّ هـٰذهِ العلومَ ليستْ مِنْ علومِ الآخرةِ ولا مِنَ العلومِ التي قيلَ فيها : (تعلَّمْنا العلمَ لغيرِ اللهِ ، فأبى العلمُ أنْ يكونَ إلا للهِ) ، وإنَّما ذلكَ علْمُ التفسيرِ وعلمُ الحديثِ ، وما كانَ الأولونَ يشتغلونَ بهِ مِنْ علْمِ الآخرةِ ، ومعرفةِ أخلاقِ النفسِ وكيفيةِ تهذيبِها ، فإذا تعلَّمَهُ الطالبُ وقصدُهُ الدنيا . . فلا بأسَ أنْ يتركَهُ ؛ فإنَّهُ يتشمَّرُ لهُ طمعاً في الوعْظِ والاستتباعِ ، ولكنْ قد يتنبَّهُ في أثناءِ الأمرِ أوْ آخرِهِ ؛ إذْ فيهِ العلومُ المخوِّفةُ مِنَ اللهِ تعالىٰ المحقِّرةُ للدنيا المعظِّمةُ للآخرةِ ، وذلكَ يوشِكُ أنْ يردَّ إلى الصوابِ في الآخرةِ حتَّىٰ يتعظَ بما يعظُ بهِ غيرَهُ ، ويجري حُبُّ القبولِ

والجاهِ مَجرى الحَبِّ الذي يُنثرُ حوالَي الفخِّ ليُقتنصَ بهِ الطيرُ ، وقدْ فعلَ اللهُ ذلكَ بعبادِهِ ، إذْ خلقَ الشهوةَ ليصلَ الخلقُ بها إلىٰ بقاءِ النسلِ ، وخلقَ أيضاً حُبَّ الجاهِ ليكونَ سبباً لإحياءِ العلومِ ، وهـٰذا متوقَّعٌ في هـٰذهِ العلومِ .

فأمَّا الخلافُ المحضُ ومجادلةُ الكلامِ ومعرفةُ التفريعاتِ الغريبةِ . . فلا يزيدُ التجرُّدُ لها معَ الإعراضِ عنْ غيرِها إلا قسوةً في القلبِ ، وغفلةً عنِ اللهِ تعالىٰ ، وتمادياً في الضلالِ ، وطلباً للجاهِ ، إلا مَنْ تداركَهُ اللهُ تعالىٰ برحمتِهِ ، أوْ مزجَ بهِ غيرَهُ منَ العلومِ الدينيةِ ، ولا برهانَ علىٰ هـٰذا كالتجربةِ والمشاهدةِ .

فانظرْ واعتبرْ ، واستبصرْ لتشاهدَ تحقيقَ ذلكَ في العبادِ والبلادِ ، واللهُ المستعانُ .

وقدْ رُئِيَ سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ حزيناً ، فقيلَ لهُ : ما لكَ ؟ فقالَ : صرْنا مَتْجراً لأبناءِ الدنيا ، يلزَمُنا أحدُهُمْ ، حتَّىٰ إذا تعلَّمَ . . جُعِلَ عاملاً أوْ قاضياً أوْ قَهْرَماناً[1] .

الوظيفةُ الرابعةُ وهيَ مِنْ دقائقِ صناعةِ التعليمِ : أنْ يزجرَ المتعلِّمَ عنْ سوءِ الأخلاقِ بطريقِ التعريضِ ما أمكنَ :

ولا يصرِّحَ ، وبطريقِ الرحمةِ لا بطريقِ التوبيخِ ؛ فإنَّ التصريحَ يهتكُ

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٣) ، والقهرمان : المسيطر الحفيظ علىٰ من تحت يديه ، لفظة فارسية معربة .

حجابَ الهيبةِ ، ويورثُ الجرأةَ على الهجومِ بالخلافِ ، ويهيِّجُ الحرصَ على الإصرارِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ مرشدُ كلِّ معلِّمٍ : « لوْ مُنِعَ الناسُ عنْ فَتِّ البَعْرِ . . لَفَتُّوهُ وقالوا : ما نُهِينا عنهُ إلا وفيهِ شيءٌ ! »[1] .

وينبهُكَ علىٰ هـٰذا قصةُ آدمَ وحواءَ عليهما السلامُ وما نهيا عنهُ ، فما ذكرتِ القصَّةُ معكَ لتكونَ سمراً ، بلْ لتتنبَّهَ بها علىٰ سبيلِ العبرةِ .

ولأنَّ التعريضَ أيضاً يُميلُ النفوسَ الفاضلةَ والأذهانَ الذكيةَ إلى استنباطِ معانيهِ ، فيفيدُ فرحَ التفطُّنِ لمعناهُ رغبةً في العلمِ بهِ ؛ ليعلمَ أنَّ ذلكَ ممَّا لا يعزبُ عنْ فطنتِهِ .

الوظيفةُ الخامسةُ : أنَّ المتكفِّلَ ببعضِ العلومِ لا ينبغي أنْ يقبِّحَ في نفسِ المتعلِّمِ العلومَ التي وراءَهُ :

كمعلِّمِ اللغةِ ؛ إذْ عادتُهُ تقبيحُ الفقهِ ، ومعلِّمُ الفقهِ عادتُهُ تقبيحُ علْمِ الحديثِ والتفسيرِ ، وأنَّ ذلكَ نقلٌ محضٌ وسماعٌ صرْفٌ وهوَ شأنُ العجائزِ ، ولا نظرَ للعقلِ فيهِ ، ومعلِّمُ الكلامِ ينفِّرُ عنِ الفقهِ ويقولُ : ذلكَ فرعٌ ، وهوَ

---

(١) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١/ ٣٤١) : (قال العراقي : « لم أجده إلا من حديث الحسن مرسلاً وهو ضعيف ، رواه ابن شاهين » اهـ ، قلت : ووجدت بخط الداوودي ما نصه : ولفظ ابن شاهين : « لو منع الناس فتَّ الشوك . . لقالوا : فيه النَّدُّ » ، وفي المعنىٰ حديث أبي جحيفة : « لو نهيتم أن تأتوا الحجون . . لأتيتموها ») .

كلامٌ في حيضِ النِّسوانِ ، فأينَ ذلكَ مِنَ الكلامِ في صفةِ الرحمـٰنِ ؟!

فهـٰذهِ أخلاقٌ مذمومةٌ للمعلمينَ ينبغي أنْ تُجتنبَ ، بلِ المتكفِّلُ بعلْمٍ واحدٍ ينبغي أنْ يوسعَ على المتعلِّمِ طريقَ التعلُّمِ في غيرِهِ ، وإنْ كانَ متكفِّلاً بعلومٍ . . فينبغي أنْ يراعيَ التدريجَ في ترقيةِ المتعلِّمِ مِنْ رتبةٍ إلىٰ رتبةٍ .

❁ ❁ ❁

الوظيفةُ السادسةُ : أنْ يقتصرَ بالمتعلِّمِ علىٰ قدْرِ فهمِهِ :

فلا يُلقي إليهِ ما لا يبلغُهُ عقلُهُ فينفرَهُ أوْ يخبطَ عليهِ عقلَهُ ؛ اقتداءً في ذلكَ بسيِّدِ البشرِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « نحنُ ـ معاشرَ الأنبياءِ ـ أُمرنا أنْ نُنْزِلَ الناسَ منازلَهُمْ ، ونُكَلِّمَهُمْ علىٰ قَدْرِ عقولِهِمْ »[1] .

فليبثَّ إليهِ الحقيقةَ إذا علمَ أنَّهُ يستقلُّ بفهمِها .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أحدٌ يُحَدِّثُ قوماً بحديثٍ لا تبلغُهُ عقولُهُمْ إلا كانَ فتنةً علىٰ بعضِهِمْ »[2] .

---

(١) هما حديثان ، فروىٰ أبو داوود (٤٨٤٢) مرفوعاً : « أنزلوا الناس منازلهم » ، وروى العقيلي في « الضعفاء » (٤/ ١٥٣٤) : « إنا معشر الأنبياء كذلك أمرنا أن نكلم الناس علىٰ قدر عقولهم » ، ومعناه سبق في حديث البخاري (١٢٧) الموقوف علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (حدثوا الناس بما يعرفون . . .) .

(٢) رواه العقيلي في « الضعفاء » (٣/ ٩٣٧) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، ورواه مسلم في مقدمة « صحيحه » (١/ ١١) موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ وأشارَ إلىٰ صدرِهِ : (إنَّ هـٰهنا علوماً جمَّةً لوْ وجدتُ لها حَمَلَةً)[1] .

وصدقَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقلوبُ الأبرارِ قبورُ الأسرارِ ، فلا ينبغي أنْ يفشيَ العالمُ كلَّ ما يعلمُهُ إلىٰ كلِّ أحدٍ ، هـٰذا إذا كانَ يفهمُهُ المتعلِّمُ ولمْ يكنْ أهلاً للانتفاعِ بهِ ، فكيفَ فيما لا يفهمُهُ ؟!

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (لا تعلِّقوا الجوهرَ في أعناقِ الخنازيرِ ، فإنَّ الحكمةَ خيرٌ مِنَ الجوهرِ ، ومَنْ كرهَها . . فهوَ شرٌّ منَ الخنازيرِ)[2] .

ولذلكَ قيلَ : (كِلْ لكلِّ عبْدٍ بمعيارِ عقلِهِ ، وزِنْ لهُ بميزانِ فهمِهِ ؛ حتَّىٰ تسلَمَ منهُ وينتفعَ بكَ ، وإلا . . وقعَ الإنكارُ لتفاوتِ المعيارِ)[3] .

وسُئِلَ بعضُ العلماءِ عنْ شيءٍ فلمْ يجبْ ، فقالَ السائلُ : أما سمعتَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ كتمَ علماً نافِعاً . . جاءَ يومَ القيامةِ مُلْجماً بلجامٍ مِنْ نارٍ »[4] ؟ فقالَ : اتركِ اللجامَ واذهبْ ؛ فإنْ جاءَ مَنْ نفعَهُ وكتمْتُهُ . . فليلجمْني[5] .

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/ ٣٧٦) ضمن حديث كُميل المشهور والذي سبق ذكره ، وانظر « قوت القلوب » (١/ ١٣٤) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٥٦) ، وانظر « تاريخ دمشق » (٦٨/ ٦٣) ضمن حديث طويل .

(٣) هو من قول صاحب « القوت » (١/ ١٥٦) ، وأصله من قول يحيى بن معاذ عنده : (اغرف لكل واحد من نهره ، واسقه بكأسه) .

(٤) رواه ابن ماجه (٢٦٥) .

(٥) الذريعة (ص١٨١) .

وقولُ اللهِ تعالىٰ : ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ تنبيهٌ علىٰ أنَّ حفْظَ العلْمِ ممَّنْ يفسدُهُ ويضرُّهُ أولىٰ ، وليسَ الظلْمُ في إعطاءِ غيرِ المستحقِّ بأقلَّ مِنَ الظلمِ في منْعِ المستحقِّ ، كما قيلَ[1] : [من الطويل]

أَأَنْثُرُ دُرِّي بَيْنَ سَارِحَةِ ٱلنَّعَمْ ... وَأُصْبِحُ مَحْزُوناً بِرَاعِيَةِ ٱلْغَنَمْ
لِأَنَّهُمُ أَمْسَوْا بِجَهْلٍ لِقَدْرِهِ ... فَلاَ أَنَا أُضْحِي أَنْ أُطَوِّقَهُ ٱلْبَهَمْ
فَإِنْ لَطَفَ ٱللهُ ٱللَّطِيفُ بِلُطْفِهِ ... وَصَادَفْتُ أَهْلاً لِلْعُلُومِ وَلِلْحِكَمْ
نَشَرْتُ مُفِيداً وَٱسْتَفَدْتُ مَوَدَّةً ... وَإِلاَّ فَمَخْزُونٌ لَدَيَّ وَمُكْتَتَمْ
فَمَنْ مَنَحَ ٱلْجُهَّالَ عِلْماً أَضاعَهُ ... وَمَنْ مَنَعَ ٱلْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

الوظيفةُ السابعةُ : أنَّ المتعلِّمَ القاصرَ ينبغي أنْ يُلْقَىٰ إليهِ الجليُّ اللائقُ بهِ ، ولا يذكرُ لهُ أنَّ وراءَ هٰذا تدقيقاً وهوَ يدَّخِرُهُ عنهُ :

فإنَّ ذلكَ يفتِّرُ رغبتَهُ في الجليِّ ، ويشوِّشُ عليهِ قلبَهُ ، ويوهِمُ إليهِ البخلَ بهِ عنهُ ؛ إذْ يظنُّ كلُّ أحدٍ أنَّهُ أهلٌ لكلِّ علْمٍ دقيقٍ ، فما مِنْ أحدٍ إلا وهوَ راضٍ عنِ اللهِ سبحانَهُ في كمالِ عقلِهِ ، وأشدُّهُمْ حماقةً وأضعفُهُمْ عقلاً هوَ أفرحُهُمْ بكمالِ عقلِهِ .

وبهٰذا يُعلَمُ : أنَّ مَنْ تقيَّدَ مِنَ العوامِّ بقيدِ الشرعِ ، ورسخَتْ في نفسِهِ

(١) الأبيات للإمام الشافعي في « ديوانه » (ص١٢٨ـ ١٢٩) ، والأبيات الأربع الأولىٰ من (ب) و(ق) .

العقائدُ المأثورةُ عنِ السلفِ مِنْ غيرِ تشبيهٍ ومِنْ غيرِ تأويلٍ ، وحَسُنَ معَ ذلكَ سريرتُهُ ، ولمْ يحتملْ عقلُهُ أكثرَ مِنْ ذلكَ . . فلا ينبغي أنْ يشوِّشَ عليهِ اعتقادَهُ ، بلْ ينبغي أنْ يُخلَّىٰ وحرفتَهُ ؛ فإنَّهُ لوْ ذُكِرَ لهُ تأويلاتُ الظواهرِ . . انحلَّ عنهُ قيدُ العوامِّ ولمْ يتيسَّرْ قيدُهُ بقيدِ الخواصِّ ، فيرتفعُ السدُّ الذي بينَهُ وبينَ المعاصي ، وينقلبُ شيطاناً مريداً يهلكُ نفسَهُ وغيرَهُ .

بلْ لا ينبغي أنْ يُخاضَ بالعوامِّ في حقائقِ العلومِ الدقيقةِ ، بلْ يقتصرُ معهمْ علىٰ تعليمِ العباداتِ ، وتعليمِ الأمانةِ في الصناعةِ التي هوَ بصددِها ، ويملأُ قلوبَهُمْ مِنَ الرغبةِ والرهبةِ بالجنَّةِ والنارِ كما نطقَ بهِ القرآنُ ، ولا يحرِّكُ عليهِمْ شبهةً ؛ فإنَّهُ ربَّما تعلقَتِ الشبهةُ بقلبِهِ ويعسرُ عليهِ حلُّها ، فيشقَىٰ ويهلِكُ .

وبالجملةِ : لا ينبغي أنْ يفتحَ للعوامِّ بابَ البحثِ ؛ فإنَّهُ يعطِّلُ عليهِمْ صناعاتِهِمُ التي بها قوامُ الخلْقِ ، ودوامُ عيشِ الخواصِّ .

الوظيفةُ الثامنةُ : أنْ يكونَ المعلِّمُ عاملاً بعلمِهِ :

فلا يكذِّبُ قولَهُ فعلُهُ ؛ لأنَّ العلْمَ يُدركُ بالبصائرِ والعملَ يُدركُ بالأبصارِ ، وأربابُ الأبصارِ أكثرُ ، فإذا خالفَ العملُ العلمَ . . منعَ الرشدَ ، وكلُّ مَنْ تناولَ شيئاً وقالَ للناسِ : لا تتناولوهُ ؛ فإنَّهُ سمٌّ مهلكٌ . . سخرَ الناسُ بهِ واتهموهُ ، وزادَ حرصُهُمْ عليهِ ، فيقولونَ : لولا أنَّه أطيبُ الأشياءِ وألذُّها . . لما كانَ يستأثرُ بهِ !

ومَثلُ المعلِّمِ المرشدِ مِنَ المسترشدِ مثلُ النقْشِ مِنَ الطينِ والعودِ مِنَ الظلِّ ، فكيفَ ينتقشُ الطينُ بما لا نقشَ فيهِ ، ومتى استوى الظلُّ والعودُ أعوجُ ؟! ولذلكَ قيلَ[1] : [من الكامل]

لاَ تَنْـهَ عَـنْ خُلُـقٍ وَتَـأْتِـيَ مِثْلَـهُ عَـارٌ عَلَيْـكَ إِذَا فَعَلْـتَ عَظِيـمُ

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ .

ولذلكَ كانَ وِزْرُ العالِمِ في معاصيهِ أكبرَ مِنْ وزْرِ الجاهلِ ؛ إذْ يزِلُّ بزَلَّتِهِ عالَمٌ كثيرٌ ، فيقتدونَ بهِ ، و« مَنْ سَنَّ سُنَّةً سيِّئَةً . . فعليهِ وِزْرُها ووزْرُ مَنْ عمِلَ بها »[2] .

ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (قَصَمَ ظهري رجلانِ : عالمٌ متهتِّكٌ ، وجاهلٌ متنسِّكٌ ، فالجاهلُ يغرُّ الناسَ بتنسُّكِهِ ، والعالِمُ ينفِّرُهُمْ بتهتُّكِهِ)[3] ، واللهُ أعلمُ .

❋ ❋ ❋

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي في « ديوانه » (ص٤٠٤) ، وانظر « خزانة الأدب » (٨/ ٥٦٤) .

(٢) رواه مسلم (١٠١٧) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٤٠) بنحوه .

البَابُ السَّادِسُ
في آفاتِ العلم
وبيانِ علاماتِ علماءِ الآخرةِ وعلماءِ السّوءِ

قدْ ذكرْنا ما وردَ مِنْ فضائلِ العلْمِ والعلماءِ ، وقدْ وردَ في العلماءِ السوءِ تشديداتٌ عظيمةٌ دلَّتْ علىٰ أنَّهُمْ أشدُّ الخلْقِ عذاباً يومَ القيامةِ ، فمِنَ المهمَّاتِ العظيمةِ معرفةُ العلاماتِ الفارقةِ بينَ علماءِ الدنيا وعلماءِ الآخرةِ ، ونعني بعلماءِ الدنيا العلماءَ السوءَ الذينَ قصْدُهمْ مِنَ العلمِ التنعُّمُ بالدنيا ، والتوصُّلُ إلى الجاهِ والمنزلةِ عندَ أهلِها .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أشدَّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لمْ ينفعْهُ اللهُ بعلمِهِ »[1] .

ويروىٰ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه قالَ : « لا يكونُ المرْءُ عالماً حتَّىٰ يكونَ بعلْمِهِ عامِلاً »[2] .

---

(١) رواه الطبراني في « الصغير » (١/ ١٨٢) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٦٤٢) .

(٢) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (١٧) موقوفاً علىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه وبلفظ : (ولا تكون بالعلم عالماً حتىٰ تكون به عاملاً) ، قال الحافظ الزبيدي : (قال العراقي في « التخريج الكبير » : لم أجده مرفوعاً) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٣٤٨) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العلمُ علمانِ : علمٌ على اللسانِ فذلكَ حُجَّةُ اللهِ تعالىٰ على ابنِ آدمَ ، وعلمٌ في القلبِ فذلكَ العلمُ النافعُ »(١) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يكونُ في آخرِ الزمانِ عُبَّادٌ جُهَّالٌ وعلماءُ فُسَّاقٌ »(٢) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تتعلَّمُوا العلمَ لتُباهوا بهِ العلماءَ ، ولتماروا بهِ السفهاءَ ، ولتصرِفوا وجوهَ الناسِ إليكُمْ ، فَمَنْ فعلَ ذلكَ . . فهوَ في النارِ »(٣) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كتمَ علماً عندَهُ . . أَلْجمَهُ اللهُ بلجامٍ مِنْ نارٍ »(٤) .

وقالَ أيضاً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأَنا مِنْ غيرِ الدَّجَّالِ أخوفُ عليكُمْ منَ الدجَّالِ » فقيلَ : وما ذاكَ ؟ فقالَ : « مِنَ الأئمَّةِ المضلِّينَ »(٥) .

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٥/ ١٠٧ـ ١٠٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٥١) .

(٢) رواه الآجري في « أخلاق العلماء » (٦٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٣١) .

(٣) رواه ابن ماجه (٢٥٩) .

(٤) رواه ابن ماجه (٢٦٥) .

(٥) رواه أحمد في « مسنده » (٥/ ١٤٥) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنِ ٱزدادَ علماً ولمْ يَزْدَدْ هدَىً . . لمْ يزدَدْ مِنَ اللهِ إلا بُعْداً »[1] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (إلىٰ متىٰ تَصِفُونَ الطريقَ للمُدْلِجينَ وأنتمْ مقيمونَ معَ المتحيِّرينَ ؟!)[2].

فهـٰذا وغيرُهُ مِنَ الأخبارِ يدلُّ علىٰ عظيمِ خطرِ العلمِ ، وأنَّ العالِمَ إمَّا متعرِّضٌ لهلاكِ الأبدِ ، أوْ لسعادةِ الأبدِ ، وأنَّهُ بالخوضِ في العلْمِ قدْ حُرِمَ السلامةَ إنْ لمْ يدركِ السعادةَ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : إنَّ أخوفَ ما أخافُ علىٰ هـٰذهِ الأُمَّةِ المنافقُ العليمُ ، قالوا : وكيفَ يكونُ منافقاً عليماً ؟ قالَ : عليمَ اللسانِ جاهلَ القلبِ والعملِ[3] .

وقالَ الحسنُ : (لا تكنْ ممَّنْ يجمعُ علْمَ العلماءِ وطرائفَ الحكماءِ

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٨٨٧) ، قال الحافظ الزبيدي نقلاً عن الحافظ العراقي : (والمشهور أن هـٰذا الحديث من قول الحسن البصري) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٣٥١) .

(٢) اقتضاء العلم العمل (٦٠) ، **والمدلجون** : السائرون بالليل ، والمراد بهم : الزهاد والسالكون إلى الله تعالىٰ ، **والمتحيرون** : الواقفون .

(٣) أخرجه الضياء في « الأحاديث المختارة » (٢٣٦) ، وأصله عند « أحمد » (١/ ٢٢) .

ويجري في العملِ مَجرى السفهاء)[1] .

وقالَ رجلٌ لأبي هريرةَ : أريدُ أنْ أتعلَّمَ العلْمَ وأخافُ أنْ أضيِّعَهُ ، فقالَ : كفىٰ بتركِكَ العلْمَ إضاعةً لهُ[2] .

وقيلَ لإبراهيمَ بنِ عيينةَ : أيُّ الناسِ أطولُ ندامةً ؟ قالَ : أمَّا في عاجلِ الدنيا . . فصانعُ المعروفِ إلىٰ مَنْ لا يشكرُهُ ، وأمَّا عندَ الموتِ . . فعالِمٌ مفرِّطٌ .

وقالَ الخليلُ بنُ أحمدَ : (الرجالُ أربعةٌ : رجلٌ يدري ويدري أنَّهُ يدري ؛ فذلكَ عالمٌ فاتبعوهُ ، ورجلٌ يدري ولا يدري أنَّهُ يدري ؛ فذلكَ نائِمٌ فأيقظوهُ ، ورجلٌ لا يدري ويدري أنَّهُ لا يدري ؛ فذلكَ مسترشدٌ فعلِّموهُ، ورجلٌ لا يدري ولا يدري أنَّهُ لا يدري ؛ فذلكَ جاهلٌ فارفضوهُ)[3] .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ رحمهُ اللهُ : (يهتفُ العلمُ بالعملِ ، فإنْ أجابَهُ ، وإلا . . ارتحلَ)[4] .

وقال ابنُ المباركِ : (لا يزالُ المرءُ عالماً ما طلبَ العلمَ ، فإذا ظنَّ أنَّهُ قدْ علِمَ . . فقدْ جهلَ)[5] .

---

(١) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٦٢) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/٣٦٨) ، وفي « البيان والتبيين » (١/٢٥٧) : (وقال أبو هريرة النحوي) .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٥٣٨) بنحوه .

(٤) اقتضاء العلم العمل (٤١) .

(٥) أورده ابن قتيبة غير منسوب في « عيون الأخبار » (٢/١١٨) .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمهُ اللهُ : (إنِّي لأرحمُ ثلاثةً : عزيزَ قومٍ ذلَّ ، وغنياً افتقرَ ، وعالماً تلعبُ بهِ الدنيا)[1] .

وقالَ الحسنُ : (عقوبةُ العلماءِ موتُ القلبِ ، وموتُ القلبِ طلبُ الدنيا بعملِ الآخرةِ)[2] .

وأنشدوا[3] : [من الطويل]

عَجِبْتُ لِمُبْتاعِ ٱلضَّلالَةِ بِٱلْهُدَى ... وَمَنْ يَشْتَرِي دُنْياهُ بِالدِّينِ أَعْجَبُ

وَأَعْجَبُ مِنْ هَـٰذَيْنِ مَنْ بَاعَ دِينَهُ ... بِدُنْيَا سِوَاهُ فَهْوَ مِنْ ذَيْنِ أَعْجَبُ

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العالمَ لَيُعَذَّبُ عذاباً يَطِيفُ بهِ أهلُ النَّارِ ٱسْتِعْظاماً لشدَّةِ عذابِهِ »[4] ، أرادَ بهِ العالمَ الفاجرَ .

وقالَ أسامةُ بنُ زيدٍ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يُؤتَىٰ بالعالِمِ يومَ القيامةِ ، فيُلقَىٰ في النارِ ، فَتَنْدَلِقُ أقْتَابُهُ ، فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ بالرَّحَىٰ ، فيطيفُ بهِ أهلُ النارِ فيقولونَ : ما لكَ ؟ فيقولُ : كنتُ آمرُ بالخيرِ ولا آتيهِ ، وأنهَىٰ عنِ الشرِّ وآتيهِ »[5] .

---

(١) المدخل إلى السنن الكبرى (٥٧٦) وله روايات في المرفوع .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٦٩٦)، وابن المبارك في « الزهد » (١٥١٤) .

(٣) البيتان لمالك بن دينار ، انظر « ربيع الأبرار » (٤/ ١٨٥) ، و« وفيات الأعيان » (٦/ ١٧٠) ، و« حياة الحيوان » (١/ ٤٢٢) ، و« زهر الأكم » (١/ ٢٨٨) .

(٤) قال الحافظ الزبيدي : (قال العراقي : لم أجده بهـٰذا اللفظ ، وهو بمعنىٰ حديث أسامة بن زيد الآتي بعده) .

(٥) رواه البخاري (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) ، **والأقتاب** : الأمعاء .

وإنَّما يُضاعفُ عذابُ العالمِ في معصيتِهِ لأنَّهُ عصَىٰ عنْ علمٍ ، ولذلكَ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ ؛ لأنَّهمْ جحدُوا بعدَ العلمِ .

وجعلَ اليهودَ شرّاً مِنَ النصارىٰ معَ أنَّهُمْ ما جعلوا للهِ سبحانَهُ ولداً ولا قالوا : إنَّهُ ثالثُ ثلاثةٍ ، ولكنْ أنكروا بعدَ المعرفةِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾[1] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ في قصَّةِ بَلْعَامَ بنِ باعوراءَ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ حتَّىٰ قالَ : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ ، وكذلكَ العالمُ الفاجرُ ، فإنَّ بَلْعَامَ أوتيَ كتابَ اللهِ تعالىٰ ، فأخلدَ إلى الشهواتِ ، فشُبِّهَ بالكلبِ ؛ أي : سواءٌ أُوتيَ الحكمةَ أوْ لمْ يُؤتَ . . فهوَ يلهثُ إلى الشهواتِ .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مثلُ علماءِ السوءِ كمثلِ صخرةٍ وقعتْ علىٰ فمِ النهرِ ، لا هيَ تشربُ الماءَ ، ولا هيَ تتركُ الماءَ يخلصُ إلى الزرعِ ، ومثلُ علماءِ السوءِ مثلُ قناةِ الحُشِّ ، ظاهرُها جَصٌّ وباطنُها نتنٌ ، ومثلُ القبورِ ، ظاهرُها عامرٌ وباطنُها عظامُ الموتىٰ)[2] .

---

(١) أي : يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم بأنه رسول الله دون أدنىٰ ريبة .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤١) .

فهـٰذهِ الأخبارُ والآثارُ تبيِّنُ أنَّ العالمَ الذي هوَ مِنْ أبناءِ الدنيا أخسُّ حالاً وأشدُّ عذاباً مِنَ الجاهلِ، وأنَّ الفائزينَ المقرَّبينَ همْ علماءُ الآخرةِ، ولهمْ علاماتٌ:

فمنها: ألا يطلبَ الدنيا بعلمِهِ: فإنَّ أقلَّ درجاتِ العالِمِ أنْ يدركَ حقارةَ الدنيا وخسَّتَها وكدورتَها وانصرامَها، وعِظَمَ الآخرةِ ودوامَها وصفاءَ نعيمِها وجلالةَ ملكِها، ويعلمَ أنَّهما متضادتانِ، وأنَّهما كالضرَّتينِ؛ مهما أرضيتَ إحداهما.. أسخطتَ الأخرىٰ، وأنَّهما ككفَّتي الميزانِ؛ مهما رجحتْ إحداهما.. خفَّتِ الأخرىٰ، وأنَّهما كالمشرقِ والمغربِ؛ مهما قربتَ مِنْ أحدِهما.. بعدتَ عنِ الآخرِ، وأنَّهما كقدحينِ أحدُهما مملوءٌ، والآخرُ فارغٌ؛ فبقدْرِ ما تصبُّ منهُ في الآخرِ حتَّىٰ يمتلىءَ.. يفرُغُ الآخرُ.

فإنَّ مَنْ لا يعلمُ حقارةَ الدنيا وكدورتَها وامتزاجَ لذَّتِها بألمِها ثمَّ انصرامَ ما يصفو منها.. فهوَ فاسدُ العقلِ؛ فإنَّ المشاهدةَ والتجربةَ ترشدُ إلىٰ ذلكَ، فكيفَ يكونُ مِنَ العلماءِ مَنْ لا عقلَ لهُ؟!

ومَنْ لا يعلمُ عِظَمَ أمرِ الآخرةِ ودوامَها.. فهوَ كافرٌ مسلوبُ الإيمانِ، فكيفَ يكونُ مِنَ العلماءِ مَنْ لا إيمانَ لهُ؟!

ومَنْ لا يعلمُ مضادَّةَ الدنيا للآخرةِ، وأنَّ الجمعَ بينَهما طمعٌ في غيرِ مطمعٍ.. فهوَ جاهلٌ بشرائعِ الأنبياءِ كلِّهِمْ، بلْ هوَ كافرٌ بالقرآنِ كلِّهِ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ، فكيفَ يُعدُّ مِنْ زمرةِ العلماءِ؟!

ومَنْ علمَ هـٰذا كلَّهُ، ثمَّ لمْ يؤثرِ الآخرةَ على الدنيا.. فهوَ أسيرُ

الشيطانِ ، قدْ أهلكتْهُ شهوتُهُ ، وغلبتْ عليهِ شِقوتُهُ ، فكيفَ يُعدُّ مِنْ حزبِ العلماءِ مَنْ هـٰذهِ درجتُهُ ؟!

وفي أخبارِ داوودَ عليهِ السلامُ حكايةً عنِ اللهِ تعالىٰ : (إنَّ أدنىٰ ما أصنعُ بالعالِمِ إذا آثرَ شهوتَهُ علىٰ محبَّتي أنْ أحرمَهُ لذيذَ مناجاتي ، يا داوودُ ؛ لا تسألنْ عنِّي عالماً قدْ أسكرَتْهُ الدنيا فيصدَّكَ عنْ طريقِ محبَّتي ، أولئكَ قطَّاعُ الطريقِ علىٰ عبادي ، يا داوودُ ؛ إذا رأيتَ لي طالباً . . فكنْ لهُ خادماً ، يا داوودُ ؛ مَنْ رَدَّ إليَّ هارباً . . كتبتُهُ جِهْبذاً ، ومَنْ كتبتُهُ جِهْبذاً . . لمْ أعذبْهُ أبداً)[1] .

ولذلكَ قالَ الحسنُ رحمهُ اللهُ : (عقوبةُ العلماءِ موتُ القلبِ ، وموتُ القلْبِ طلبُ الدنيا بعملِ الآخرةِ)[2] .

ولذلكَ قالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ الرازيُّ : (إنَّما يذهبُ بهاءُ العلمِ والحكمةِ إذا طُلِبَ بهما الدنيا)[3] .

وقالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ رحمَهُ اللهُ : (إذا رأيتمُ العالمَ يغشَى الأمراءَ . . فهوَ لصٌّ)[4] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤١) ، والقطعة الأخيرة روىٰ بنحوها أحمد في « الزهد » (٩٧٧).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (١١٦٥) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » (٤٧٦) منسوباً لأحد الحكماء .
(٤) رواه ابن الطيوري في « الطيوريات » (٦٩٠) من طريق سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا رأيتمُ العالمَ محبّاً للدنيا . . فاتهموهُ علىٰ دينِكُمْ ؛ فإنَّ كلَّ محبٍّ يخوضُ فيما أحبَّ)[1] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ رحمهُ اللهُ : (قرأتُ في بعضِ الكتبِ السالفةِ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : إنَّ أهونَ ما أصنعُ بالعالمِ إذا أحبَّ الدنيا أنْ أخرجَ حلاوةَ مناجاتي مِنْ قلبِهِ)[2] .

وكتبَ رجلٌ إلىٰ أخٍ لهُ : إنَّكَ قدْ أوتيتَ علماً ، فلا تطفِئَنَّ نورَ علمِكَ بظلمةِ الذنوبِ فتبقىٰ في الظلمةِ يومَ يسعىٰ أهلُ العلمِ في نورِ علمِهِمْ[3] .

وكانَ يحيىٰ بنُ معاذٍ الرازيُّ رحمهُ اللهُ يقولُ لعلماءِ الدنيا : (يا أصحابَ العلمِ ؛ قصورُكُمْ قَيْصَرِيَّةٌ ، وبيوتُكُمْ كِسْرَوِيَّةٌ ، وأثوابُكُمْ طاهِرِيَّةٌ[4] ، وأخفافُكُمْ جالُوتِيَّةٌ ، ومراكبُكُمْ قارونِيَّةٌ ، وأوانيكُمْ فِرعَونِيَّةٌ ، ومآتمُكُمْ جاهليَّةٌ ، ومذاهبُكُمْ شيطانيَّةٌ ، فأينَ الشريعةُ المحمديةُ ؟!)[5] .

قالَ الشاعرُ[6] : [من الوافر]

وَراعِي ٱلشَّاةِ يَحْمِي ٱلذِّئْبَ عَنْهَا فَكَيْفَ إِذا ٱلرُّعاةُ لَها ذِئابُ

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١١٧٤) من قول جعفر بن محمد بنحوه .
(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٢/ ٣٦٠) بنحوه .
(٣) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٩/ ١٤٦) .
(٤) طاهرية : منسوبة إلىٰ عبد الله بن طاهر بن الحسين الوزير ، وكان يتغالىٰ في الثياب . « إتحاف » (١/ ٣٥٨) .
(٥) رواه الحافظ السلفي في « معجم السفر » (٨٠٤) .
(٦) سراج الملوك (١/ ٢١١) .

وقالَ آخرُ[1] : [من الرجز]

يـا مَعْشَـرَ ٱلْقُـرَّاءِ يـا مِلْـحَ ٱلْبَلَـدْ ما يُصْلِحُ ٱلْمِلْحَ إذا ٱلْمِلْحُ فَسَدْ

وقيـلَ لبعـضِ العـارفيـنَ : أتـرىٰ أنَّ مَـنْ تكـونُ المعـاصـي قـرَّةَ عينِـهِ لا يعرفُ اللهَ ؟ قالَ : ما أشكُّ أنَّ مَنْ تكونُ الدنيا عندَهُ آثرَ مِنَ الآخرةِ أنَّهُ لا يعرفُ اللهَ تعالىٰ ، وهـٰذا دونَ ذلكَ بكثيرٍ[2] .

ولا تظنَّنَّ أنَّ تركَ المالِ يكفي في اللحوقِ بعلماءِ الآخرةِ ؛ فإنَّ الجاهَ أضرُّ مِنَ المالِ ، ولذلكَ قالَ بشرٌ : (« حدَّثَنا » بابٌ مِنْ أبوابِ الدنيا ، فإذا سمعتَ الرجلَ يقولُ : « حدَّثَنا » . . فإنَّما يقولُ : أَوْسِعوا لي)[3] .

ودفنَ بشْرُ بنُ الحارثِ بضعةَ عشرَ ما بينَ قمطرٍ وقوصرةٍ مِنَ الكتبِ، وكانَ يقولُ : (أنا أشتهي أنْ أحدِّثَ، ولوْ ذهبتْ عني شهوةُ الحديثِ . . لحدَّثْتُ)[4] .

وقالَ هوَ وغيرُهُ : (إذا اشتهيتَ أنْ تحدِّثَ . . فلا تحدِّثْ ، وإذا لمْ تشتهِ . . فحدِّثْ)[5] .

وهـٰذا لأنَّ التلذُّذَ بجاهِ الإفادةِ ومنصبِ الإرشادِ أعظمُ لذَّةً مِنْ كلِّ تنعُّمٍ في الدنيا ، فمنْ أجابَ شهوتَهُ فيهِ . . فهوَ مِنْ أبناءِ الدنيا ، ولذلكَ قالَ

---

(١) عجائب المقدور (٤٨٥) .
(٢) حلية الأولياء (٦/ ٢٧٩) بنحوه .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٣٥) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٥٦) .
(٥) قوت القلوب (١/ ١٥٦) ، وشرف أصحاب الحديث (٢٣٠) بنحوه .

الثوريُّ : (فتنةُ الحديثِ أشدُّ مِنْ فتنةِ الأهلِ والمالِ والولدِ ، وكيفَ لا تُخافُ فتنتُهُ وقدْ قيلَ لسيِّدِ المرسلينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ ؟!)[1] .

وقالَ سهلٌ رحمهُ اللهُ : (العلْمُ كلُّهُ دنيا ، والآخرةُ منهُ العملُ بهِ ، والعملُ كلُّهُ هباءٌ إلا الإخلاصَ)[2] .

وقالَ : (الناسُ كلُّهمْ موتىٰ إلا العلماءَ ، والعلماءُ سُكارىٰ إلا العاملينَ ، والعاملونَ مغرورونَ إلا المخلصينَ ، والمخلِصُ علىٰ وجلٍ حتَّىٰ يختمَ لهُ بهِ)[3] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : (إذا طلبَ الرجلُ الحديثَ أوْ تزوَّجَ أوْ سافرَ في طلبِ المعاشِ . . فقدْ ركنَ إلى الدنيا)[4] .

وإنَّما أرادَ بهِ طلبَ الأسانيدِ العاليةِ ، أو طلبَ الحديثِ الذي لا يحتاجُ إليهِ في طريقِ الآخرةِ .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (كيفَ يكونُ مِنْ أهلِ العلمِ مَنْ مصيرُهُ إلىٰ آخرتِهِ وهوَ مقبلٌ علىٰ دنياهُ ؟! وكيفَ يكونُ مِنْ أهلِ العلمِ مَنْ يطلبُ الكلامَ ليخبرَ بهِ لا ليعملَ بهِ ؟!)[5] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٥٦) .
(٢) اقتضاء العلم العمل (٢٠) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٨) ، واقتضاء العلم العمل (٢٢) بنحوه .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٣٥) .
(٥) سنن الدارمي (٣٨٠) ضمن حديث طويل عنه عليه السلام .

وقالَ صالحُ بنُ حسانَ البصريُّ : (أدركتُ الشيوخَ وهمْ يتعوَّذونَ باللهِ مِنَ الفاجرِ العالمِ بالسنةِ)[1] .

وروىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ طلبَ عِلماً ممَّا يُبْتَغَىٰ بهِ وجهُ اللهِ تعالىٰ لِيُصِيبَ بهِ عرضاً مِنَ الدنيا . . لمْ يَجِدْ عَرْفَ الجنةِ يومَ القيامَةِ »[2] .

وقدْ وصفَ اللهُ تعالىٰ علماءَ السوءِ بأكْلِ الدنيا بالعلمِ ، ووصفَ علماءَ الآخرةِ بالخشوعِ والزهدِ ؛ فقالَ عزَّ وجلَّ في علماءِ الدنيا : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ، وقالَ تعالىٰ في علماءِ الآخرةِ : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[3] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (العلماءُ يُحشرونَ في زمرةِ الأنبياءِ ، والقضاةُ يُحشرونَ في زمرةِ السلاطينِ)[4] .

وفي معنى القضاةِ : كلُّ فقيهٍ قصْدُهُ طلبُ الدنيا بعلمِهِ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤١) .

(٢) رواه أبو داوود (٣٦٦٤) ، وابن ماجه (٢٥٢) .

(٣) وتمام الأولىٰ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ، والثانية : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٥٧) .

وروىٰ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أوحَى اللهُ عزَّ وجَلَّ إلىٰ بعضِ الأنبياءِ : قُلْ للذينَ يتفقَّهونَ لغيرِ الدِّينِ ، ويتعلَّمُونَ لغيرِ العملِ ، ويطلبونَ الدنيا بعملِ الآخرةِ ، يلبَسُونَ للناسِ مُسُوكَ الكِباشِ وقلوبُهُمْ كقلوبِ الذئابِ ، ألسِنتُهُمْ أحْلَىٰ مِنَ العسلِ ، وقلوبُهُمْ أمرُّ مِنَ الصَّبِرِ ، إيَّايَ يخادعونَ ، وبي يستهزئونَ ، لأفتحَنَّ لهُمْ فتنةً تَذَرُ الحليمَ حَيرانَ »[1] .

وروى الضحّاكُ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا ، قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علماءُ هـٰذهِ الأمَّةِ رجلانِ :

رجلٌ آتاهُ اللهُ علماً ، فبَذَلَهُ للناسِ ، ولمْ يأخذْ عليهِ طَمَعاً ، ولمْ يشترِ بهِ ثمناً ؛ فذلكَ يُصلِّي عليهِ طيرُ السماءِ وحيتانُ الماءِ ودوابُّ الأرضِ والكرامُ الكاتبُونَ ، يقدَمُ على اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ سَيِّداً شريفاً حتَّىٰ يرافِقَ المرسلينَ .

ورجلٌ آتاهُ اللهُ علماً في الدنيا ، فضَنَّ بهِ علىٰ عبادِ اللهِ ، وأخذَ عليهِ طَمَعاً ، واشترىٰ بهِ ثمناً ؛ فذلكَ يأتي يومَ القيامَةِ مُلْجَماً بلجامٍ مِنْ نارٍ ، ينادي مُنادٍ علىٰ رُؤوسِ الخلائِقِ : هـٰذا فلانُ بنُ فلانٍ ، آتاهُ اللهُ علماً في

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٣٩) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١٠٦٨) ، وأصله عند الترمذي (٢٤٠٤) ، **والمسوك** : جمع مَسْك ، وهو الجلد ؛ إشارة إلىٰ لبس الصوف .

الدنيا فضَنَّ بِهِ عَلىٰ عبادِ اللهِ ، وأخذَ بهِ طمعاً ، واشترىٰ بهِ ثمناً ، فيُعذَّبُ حتَّىٰ يفرغَ مِنْ حسابِ الناسِ »[1] .

وأشدُّ مِنْ هـٰذا ما رُوِيَ أنَّ رجلاً كانَ يخدمُ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فجعلَ يقولُ : (حدَّثَنِي موسىٰ صفيُّ اللهِ ، حدَّثَنِي موسىٰ نجيُّ اللهِ ، حدَّثَني موسىٰ كليمُ اللهِ) حتىٰ أَثْرَىٰ وكثرَ مالُه ، ففقدَهُ موسىٰ عليهِ السلامُ ، فجعلَ يسألُ عنهُ فلا يحسُّ لهُ خبراً ، حتَّىٰ جاءَهُ رجلٌ ذاتَ يومٍ وفي يدِهِ خنزيرٌ وفي عنقِهِ حبلٌ أسودُ ، فقالَ لهُ موسىٰ عليهِ السلامُ : أتعرفُ فلاناً ؟ قالَ : نعمْ ، هوَ هـٰذا الخنزيرُ ، فقالَ موسىٰ : يا ربِّ ؛ أسألُكَ أنْ تردَّهُ إلىٰ حالِهِ حتَّىٰ أسألَهُ بِمَ أصابَهُ هـٰذا ؟ فأوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إليهِ : لوْ دعوتَني بالذي دعاني بهِ آدمُ فمَنْ دونَهُ . . ما أجبتُكَ فيهِ ، ولكنْ أخبرُكَ لمَ صنعتُ هـٰذا بهِ : لأنَّهُ كانَ يطلبُ الدنيا بالدينِ[2] .

وأغلظُ مِنْ هـٰذا ما رويَ عنْ معاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ موقوفاً ومرفوعاً في روايةٍ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مِنْ فتنةِ العالمِ أنْ يكونَ الكلامُ أحبَّ إليهِ مِنَ الاستماعِ ، وفي الكلامِ تنميقٌ وزيادةٌ ، ولا يُؤْمَنُ علىٰ صاحبِهِ الخطأُ ، وفي الصمتِ سلامةٌ وعلمٌ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يَخْزُنُ علمَهُ فلا يحبُّ أنْ يوجدَ عندَ غيرِهِ ؛ فذلكَ في الدَّرْكِ الأوَّلِ مِنَ النارِ ، ومنَ العلماءِ مَنْ يكونُ في علمِهِ بمنزلةِ السلطانِ ، فإنْ رُدَّ عليهِ شيءٌ مِنْ علمِهِ ، أو

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧١٨٣) .

(٢) تاريخ دمشق (٦١/ ١٥٢) ، وقوت القلوب (١/ ١٤٤) .

تُهُوونَ بشيءٍ مِنْ حقِّهِ.. غضبَ ؛ فذلكَ في الدركِ الثاني مِن النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يجعلُ عِلْمَهُ وغرائبَ حَدِيثِهِ لأهلِ الشرفِ واليسارِ ولا يرىٰ أهلَ الحاجَةِ لهُ أهلاً ؛ فذلكَ في الدركِ الثالثِ مِنَ النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ ينصبُ نفسَهُ للفتيا فيفتي بالخطأِ ، واللهُ تعالىٰ يبغضُ المتكلِّفينَ ؛ فذلكَ في الدركِ الرابعِ مِنَ النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يتكلَّمُ بكلامِ اليهودِ والنصارىٰ ليغْزُرَ بهِ علمُهُ ؛ فذلكَ في الدركِ الخامسِ مِنَ النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يتخذُ علمَهُ مروءةً ونُبْلاً وذكراً في الناسِ ؛ فذلكَ في الدركِ السادسِ مِنَ النارِ ، ومِنَ العلماءِ مَنْ يستفِزُّهُ الزهْوُ والعُجْبُ ، فإنْ وعظَ.. عَنَّفَ ، وإنْ وُعِظَ.. أَنِفَ ؛ فذلكَ في الدركِ السابعِ مِنَ النارِ .

وعليكَ بالصمتِ ؛ فبهِ تغلبُ الشيطانَ ، وإيَّاكَ أنْ تضحكَ مِنْ غيرِ عَجَبٍ ، أوْ تمشيَ في غيرِ أرَبٍ »[1] .

وفي خبرٍ آخرَ : « إنَّ العبدَ ليُنْشَرُ لهُ مِنَ الثناءِ ما بينَ المشرقِ

---

(١) قال أبو طالب في « القوت » (١/ ١٤٤) : (وقد روينا في مقامات علماء السوء حديثاً شديداً نعوذ بالله من أهله ، ونسأله ألا يبلونا بمقام منه ، فروويناه مرة مسنداً من طريق ، وروويناه موقوفاً علىٰ معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وأنا أذكره موقوفاً أحب إلي ، حدثونا عن منذر بن علي ، عن أبي نعيم الشامي ، عن محمد بن زياد ، عن معاذ بن جبل يقول فيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووافقته أنا علىٰ معاذ) وذكره بلفظه هنا ، وأصله عند ابن المبارك في « الزهد » (٤٨) ، وانظر « جامع بيان العلم وفضله » (٩١٠ ، ٩١١) .

والمغربِ ، وما يزنُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ »[1] .

ورُوِيَ أنَّ الحسنَ انصرفَ مِنْ مجلسِهِ ، فحملَ إليهِ رجلٌ مِنْ خراسانَ كيساً فيهِ خمسةُ آلافِ درهمٍ وعشرةُ أثوابٍ مِنْ رقيقِ البزِّ وقالَ : يا أبا سعيدٍ ؛ هـٰذهِ نفقةٌ وهـٰذهِ كُسوةٌ ، فقالَ الحسنُ : عافاكَ اللهُ تعالىٰ ، ضُمَّ إليكَ نفقتَكَ وكُسْوتَكَ ، فلا حاجةَ لنا بذلكَ ؛ إنَّهُ مَنْ جلسَ مثلَ مجلسي هـٰذا وقَبِلَ مِنَ الناسِ مثلَ هـٰذا . . لقيَ اللهَ تعالىٰ يومَ القيامةِ ولا خلاقَ لهُ[2] .

ورويَ عنْ جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ موقوفاً ومرفوعاً إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « لا تجلسوا عندَ كلِّ عالمٍ إلا عالمٍ يدعوكُمْ مِنْ خمسٍ إلىٰ خمسٍ : مِنَ الشكِّ إلى اليقينِ ، ومِنَ الرياءِ إلى الإخلاصِ ، ومِنَ الرغبةِ إلى الزهدِ ، ومِنَ الكِبْرِ إلى التواضعِ ، ومِنَ العداوةِ إلى النصيحةِ »[3] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ

---

(١) كذا أورده في « القوت » (١/ ١٤٤) ، وفي « البخاري » (٤٧٢٩) ، ومسلم (٢٧٨٥) مرفوعاً : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، قال : اقرؤوا : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ » .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤٤) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٧٢) ، وارتضىٰ أبو طالب وقفه في « القوت » (١/ ١٤٤) علىٰ جابر رضي الله عنه ، وقال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١/ ٣٦٧) بعد أن جمع له طرقاً : (فبهـٰذه الطرق يتقوىٰ جانب الرفع) .

وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ الآيةَ ، فعرَّفَ أهلَ العلمِ بإيثارِ الآخرةِ على الدنيا .

❁ ❁ ❁

ومنها : **ألا يخالفَ فعلُهُ قولَهُ** : بلْ لا يأمرُ بالشيءِ ما لمْ يكنْ هوَ أولَ عاملٍ بهِ .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ .

وقالَ تعالىٰ في قصَّةِ شعيبٍ : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا۟﴾ ، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ .

وقالَ تعالىٰ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : « يا بنَ مريمَ ؛ عظْ نفسَكَ ، فإنِ اتعظتَ . . فعظِ الناسَ ، وإلا . . فاستحيِ منِّي »[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي بأقوامٍ تُقْرَضُ شفاهُهُمْ بمقاريضَ مِنْ نارٍ ، فقلتُ : مَنْ أنتُمْ ؟ فقالوا : إنَّا كنَّا نأمرُ بالخيرِ ولا نأتيهِ ، وننهىٰ عنِ الشرِّ ونأتِيهِ »[2] .

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٣٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٨٢) .

(٢) رواه أحمد في « مسنده » (٣/ ١٢٠) بنحوه ، وفي (ج) : (نأمر بالخير ولا نفعله ، وننهىٰ عن الشر ونفعله) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلاكُ أمَّتِي عالمٌ فاجرٌ وعابدٌ جاهلٌ ، وشرُّ الشِّرارِ شرارُ العلماءِ ، وخيرُ الخِيارِ خيارُ العلماءِ »[١] .

وقالَ الأوزاعيُّ رحمهُ اللهُ : (شكتِ النواويسُ[٢] ما تجدُ مِنْ نَتنِ جيفِ الكفارِ ، فأوحى اللهُ إليها : بطونُ علماءِ السوءِ أنتنُ ممَّا أنتُمْ فيهِ)[٣] .

وقالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمهُ اللهُ : (بلغني أنَّ الفسقةَ مِنَ العلماءِ يُبدأُ بهِمْ يومَ القيامةِ قبلَ عبدةِ الأوثانِ)[٤] .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (ويلٌ لمنْ لا يعلمُ مرَّةً ، وويلٌ لمنْ يعلَمُ ولا يعملُ سبعَ مرَّاتٍ)[٥] .

وقالَ الشعبيُّ : (يطَّلِعُ قومٌ مِنْ أهلِ الجنَّةِ علىٰ قومٍ مِنْ أهلِ النارِ فيقولونَ لهُمْ : ما أدخلَكُمُ النارَ وإنَّما أدخلَنا اللهُ الجنَّةَ بفضْلِ تأديبِكُمْ وتعليمِكُمْ ؟

---

(١) علقه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٦٢) من حديث ابن وهب مرفوعاً ، والشطر الثاني منه عند الدارمي في « سننه » (٣٨٢) ، قال الحافظ الزبيدي : (ومن الشواهد للجملة الأولىٰ ما أورده صاحب « القوت » (١/ ١٤٠) : « وروينا عن عمر وغيره : كم من عالم فاجر وعابد جاهل ، فاتقوا الفاجر من العلماء ، والجاهل من المتعبدين ») ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٣٦٩) .

(٢) **النواويس** : جمع ناووس ، وهي المقابر .

(٣) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٦٣) .

(٤) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١٦٤) .

(٥) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ٢١١) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢١٢) .

فقالوا : إنَّا كنَّا نأمرُ بالخيرِ ولا نفعلُهُ)[1] .

وقالَ حاتِمٌ الأصمُّ رحمهُ اللهُ : (ليسَ في القيامةِ أشدَّ حسرةً مِنْ رجلٍ علَّمَ الناسَ علماً فعملوا بهِ ولمْ يعملْ هوَ بهِ ، ففازوا بسببِهِ وهلكَ هوَ)[2] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (إنَّ العالمَ إذا لم يعملْ بعلمِهِ . . زلَّتْ موعظتُهُ عنِ القلوبِ كما يزلُّ القَطْرُ عنِ الصفا)[3] .

وأنشدوا[4] : [من البسيط]

يَا وَاعِظَ ٱلنَّاسِ قَدْ أَصْبَحْتَ مُتَّهَماً ... إِذْ عِبْتَ مِنْهُمْ أُمُوراً أَنْتَ تَأْتِيهَا

أَصْبَحْتَ تَنْصَحُهُمْ بِٱلْوَعْظِ مُجْتَهِداً ... فَٱلْمُوبِقَاتُ لَعَمْرِي أَنْتَ جانِيها

تَعِيبُ دُنْيا وَناساً راغِبِينَ بِها ... وَأَنْتَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ رَغْبَةً فِيها

وقال آخرُ[5] : [من الكامل]

لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : (مررتُ بحَجَرٍ مكتوبٍ عليهِ : اقلبني . . تعتبرْ ، فقلبتُهُ ، فإذا عليهِ مكتوبٌ : أنتَ بما تعلَمُ لا تعملُ ، فكيفَ تطلبُ علْمَ ما لمْ تعلَمْ ؟!)[6] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٦٤) .

(٢) أخرج بنحوه ابن عساكر في « تاريخه » (٥١/ ١٣٧ـ ١٣٨) .

(٣) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (٩٧) .

(٤) البيت الأول لأبي العتاهية في «ديوانه» (ص٤٢٥) ، ولم نقف على نسبة البيتين الأخيرين.

(٥) البيت لأبي الأسود الدؤلي في « ديوانه » (ص٤٠٤)، وانظر «خزانة الأدب» (٨/ ٥٦٤).

(٦) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٣٥٨) بنحوه .

وقالَ ابنُ السماكِ رحمهُ اللهُ : (كمْ مِنْ مذكِّرٍ باللهِ ناسٍ للهِ ، وكمْ منْ مخوِّفٍ باللهِ جريءٌ على اللهِ ، وكمْ منْ مقرِّبٍ إلى اللهِ بعيدٌ منَ اللهِ ، وكمْ منْ داعٍ إلى اللهِ فارٌّ منَ اللهِ ، وكمْ منْ تالٍ لكتابِ اللهِ منسلخٌ منْ آياتِ اللهِ !)[1] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : (لقدْ أعربْنا في كلامِنا فلمْ نلحَنْ ، ولحنَّا في أعمالِنا فلمْ نعربْ)[2] .

وقالَ الأوزاعيُّ : (إذا جاءَ الإعرابُ . . ذهبَ الخشوعُ)[3] .

وروىٰ مكحولٌ عَنْ عبدِ الرحمٰنِ بنِ غَنْمٍ أنَّهُ قالَ : حدَّثني عشرةٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالُوا : كنَّا ندرسُ العلمَ في مسجدِ قُباءَ ، إذْ خرجَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « تعلَّمُوا ما شئتُمْ أنْ تعلَّمُوا ، فلنْ يأْجُرَكُمُ اللهُ حتَّىٰ تعملُوا »[4] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (مثلُ الذي يتعلَّمُ العلْمَ ولا يعملُ بهِ كمثلِ امرأةٍ زنتْ في السرِّ فحمَلَتْ ، فظهرَ حملُها فافتضحتْ ، فكذلكَ مَنْ لا يعملُ بعلمِهِ يفضحُهُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ يومَ القيامةِ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ)[5] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٤٥١) .
(٢) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (١٥١) بنحوه .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٦٦) بنحوه .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٣٦) ، والخطيب في « اقتضاء العلم العمل » (٨) ، وأوقفه الدارمي في « سننه » (٢٦٦) علىٰ معاذ رضي الله عنه .
(٥) نسبه الحافظ الزبيدي لصاحب « القوت » نقلاً .

وقال معاذٌ رحمهُ اللهُ : (احذروا زَلَّةَ العالِمِ ؛ لأنَّ قدرَهُ عندَ الخلْقِ عظيمٌ فيتبعونَهُ علىٰ زلَّتِهِ) .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا زلَّ العالِمُ . . زلَّ بزلَّتِهِ عالَمٌ مِنَ الخلقِ)[1] .

وقالَ : (ثلاثٌ بهنَّ ينهدمُ الزمانُ : إحداهنَّ زلَّةُ العالِمِ)[2] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : (سيأتي على الناسِ زمانٌ تملُحُ فيهِ عذوبةُ القلوبِ ، فلا ينتفعُ يومئذٍ بالعلمِ عالمُهُ ولا متعلِّمُهُ ، فتكونُ قلوبُ علمائِهِمْ مثلَ السباخِ مِنْ ذواتِ الملْحِ ، ينزلُ عليها قطْرُ السماءِ فلا يوجدُ لها عذوبةٌ ، وذلكَ إذا مالتْ قلوبُ العلماءِ إلىٰ حبِّ الدنيا وإيثارِها على الآخرةِ ، فعندَ ذلكَ يسلبُها اللهُ تعالىٰ ينابيعَ الحكمةِ ، ويطفىءُ مصابيحَ الهدىٰ مِنْ قلوبِهِمْ ، فيخبرُكَ عالمُهُمْ حينَ تلقاهُ أنَّهُ يخشى اللهَ بلسانِهِ والفجورُ بيِّنٌ في عملِهِ ، فما أخصبَ الألسنَ يومئذٍ وما أجدبَ القلوبَ ! فواللهِ الذي لا إلـهَ إلا هوَ ؛ ما ذلكَ إلا لأنَّ المعلمينَ علَّموا لغيرِ اللهِ ، والمتعلِّمينَ تعلَّموا لغيرِ اللهِ تعالىٰ)[3] .

وفي الإنجيلِ مكتوبٌ : (لا تطلبوا علمَ ما لمْ تعلموا حتَّىٰ تعملوا بما علِمتُمْ)[4] .

وقالَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ: (إنَّكمْ في زمانٍ مَنْ تركَ فيهِ عُشرَ ما يعلمُ . . هلكَ،

---

(١) روىٰ بنحوه علىٰ لسان سيدنا عيسىٰ عليه السلام ابنُ المبارك في « الزهد » (١٤٧٤) .
(٢) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٨٦٧) .
(٣) انظر « الإتحاف » (١/ ٣٧٤) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٣٨) .

وسيأتي زمانٌ مَنْ عملَ فيهِ بعُشْرِ ما يعلَمُ . . نجا، وذلكَ لكثرةِ البطَّالينَ)[1] .

واعلمْ : أنَّ مثلَ العالمِ مثلُ القاضي ، وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القضاةُ ثلاثةٌ : قاضٍ قَضَىٰ بالحقِّ وهوَ يعلمُ ، فذاكَ في الجنةِ ، وقاضٍ قَضَىٰ بالجورِ وهوَ يعلمُ أوْ لا يعلمُ ، فهوَ في النارِ ، وقاضٍ قضىٰ بغيرِ ما أمرَ اللهُ بهِ ، فهوَ بالنارِ »[2] .

وقالَ كعبٌ رحمهُ اللهُ : (يكونُ في آخرِ الزمانِ علماءُ يزهِّدونَ الناسَ في الدنيا ولا يزهدونَ ، ويخوِّفونَ الناسَ ولا يخافونَ ، وينهَوْنَ عنْ غشيانِ الولاةِ ويأتونَهُمْ ، ويؤثرونَ الدنيا على الآخرةِ ، يأكلونَ بألسنتِهِمْ ، يقرِّبونَ الأغنياءَ دونَ الفقراءِ ، يتغايرونَ على العلمِ كما تتغايرُ النساءُ على الرجالِ ، يغضبُ أحدُهُمْ علىٰ جليسِهِ إذا جالسَ غيرَهُ)[3] ، أولئكَ الجبَّارونَ أعداءُ الرحمٰنِ .

وقدْ رُوِيَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ الشيطانَ ربَّما يسبقُكُمْ بالعلمِ » ، فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : « يقولُ : اطلبِ العلمَ ولا تعملْ حتَّىٰ تعلمَ ، فلا يزالُ للعلمِ قائلاً وللعملِ مسوِّفاً حتَّىٰ يموتَ وما عملَ »[4] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٨) ، وروي مرفوعاً كذلك كما في « الترمذي » (٢٢٦٧) .
(٢) رواه الترمذي (١٣٢٢) ، وأبو داوود (٣٥٧٣) ، وابن ماجه (٢٣١٥) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٤٠) .
(٤) رواه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١/ ١٣٢) بنحوه ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٣٧٦) .

وقالَ سَرِيٌّ السقَطيُّ : (اعتزلَ للتعبُّدِ رجلٌ كانَ حريصاً علىٰ طلبِ علْمِ الظاهرِ ، فسألتُهُ فقالَ : رأيتُ في النومِ قائلاً يقولُ لي : إلىٰ كمْ تضيِّعُ العلمَ ضيَّعَكَ اللهُ ! فقلتُ : إنِّي لأحفظُهُ ، فقالَ : إنَّ حفظَ العلمِ العملُ بهِ ، فتركتُ الطلبَ وأقبلتُ على العملِ)[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ليسَ العلمُ بكثرةِ الروايةِ ، إنَّما العلمُ الخشيةُ)[2] .

وقالَ الحسنُ : (اعلموا ما شئتُمْ أنْ تعلموا ، فواللهِ ؛ لا يأجرُكُمُ اللهُ حتَّىٰ تعملوا ، فإنَّ السفهاءَ همتُهُمُ الروايةُ ، والعلماءَ همتُهُمُ الرعايةُ)[3] .

وقالَ مالكٌ رحمهُ اللهُ : (إنَّ طلبَ العلمِ لحسنٌ ، وإنَّ نشرَهُ لحسنٌ إذا صحَّتْ فيهِ النيةُ ، ولكنِ انظرْ ما يلزمُكَ مِنْ حينِ تصبحُ إلىٰ حينِ تمسي ، فلا تؤثرنَّ عليهِ شيئاً)[4] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (أُنزلَ القرآنُ ليُعملَ بهِ ، فاتخذتُمْ دراستَهُ عملاً ، وسيأتي قومٌ يثقفونَهُ مثلَ القناةِ ، ليسوا بخيارِكُمْ ، والعالِمُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٣٣) .
(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٨٦٧) .
(٣) روي هٰذا الخبر مرفوعاً وموقوفاً ومقطوعاً ، وانظر « القوت » (١/ ١٣٣) ، و« الإتحاف » (١/ ٣٧٧) .
(٤) ما رواه الأكابر عن مالك (٣٧) ، وانظر « قوت القلوب » (١/ ١٣٥) ، و« حلية الأولياء » (٦/ ٣١٩) .

الذي لا يعملُ كالمريضِ الذي يصفُ الدواءَ ، والجائع الذي يصفُ لذائذَ الأطعمةِ ولا يجدُها ، وفي مثلِهِ قولُهُ تعالىٰ : ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾)[1] .

وفي الخبرِ : « مِمَّا أخافُ علىٰ أُمتي زَلَّةُ عالمٍ وجدالُ منافقٍ في القرآنِ »[2] .

❀ ❀ ❀

ومنها : أنْ تكونَ عنايتُهُ بتحصيلِ العلمِ النافعِ في الآخرةِ : المرغِّبِ في الطاعةِ ، مجتنباً للعلوم التي يقلُّ نفعُها ، ويكثرُ فيها الجدالُ والقيلُ والقالُ .

فمثالُ مَنْ يعرضُ عَنْ علْمِ الأعمالِ ويشتغلُ بالجدالِ مثالُ رجلٍ مريضٍ بهِ عللٌ كثيرةٌ ، وقدْ صادفَ طبيباً حاذقاً في وقتٍ ضيِّقٍ يُخشىٰ فواتُهُ ، فاشتغلَ بالسؤالِ عنْ خاصيَّةِ العقاقيرِ والأدويةِ وغرائبِ الطبِّ ، وتركَ مهمَّهُ الذي هوَ مؤاخذٌ بهِ ، وذلكَ محضُ السفهِ .

وقدْ رُوِيَ : أنَّ رجلاً جاءَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : علِّمني مِنْ غرائبِ العلْمِ ، فقالَ لهُ : « ما صنعتَ في رأسِ العلمِ ؟ » فقالَ : وما رأسُ العلمِ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلْ عرفتَ الربَّ تعالىٰ؟» قالَ : نعمْ ، قالَ : « فما صنعتَ في حقِّهِ ؟ » قالَ : ما شاءَ اللهُ ، فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هل عرفتَ الموتَ ؟ » قالَ : نعمْ ، قال : « فما أعْدَدْتَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤٥) ، ورواه بنحوه الآجريُّ في « أخلاق حملة القرآن » (٣١) عن الفضيل بن عياض .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٣٨) .

لهُ ؟ » قالَ : ما شاءَ اللهُ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اذهبْ فأحْكِمْ ما هنالكَ ، ثمَّ تعالَ . . نُعَلِّمْكَ مِنْ غرائبِ العلمِ »[1] .

بلْ ينبغي أنْ يكونَ التعلُّمُ مِنْ جنسِ ما رُويَ عن حاتِمٍ الأصمِّ تلميذِ شقيقٍ البلخيِّ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ قالَ لهُ شقيقٌ : منذُ كمْ صحبتني ؟ قالَ حاتِمٌ : منذُ ثلاثٍ وثلاثينَ سنةً ، قالَ : فما تعلمتَ منِّي في هـٰذهِ المدَّةِ ؟ قالَ : ثمانُ مسائلَ ، قالَ شقيقٌ لهُ : إنّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، ذهبَ عمري معكَ ولمْ تتعلَّمْ إلا ثمانيَ مسائلَ ! قالَ : يا أستاذُ ؛ لمْ أتعلَّمْ غيرَها ، وإني لا أحبُّ أنْ أكذبَ ، فقالَ : هاتِ هـٰذهِ الثمانيَ مسائلَ حتَّىٰ أسمعَها ، قالَ حاتِمٌ :

أمَّا الأولىٰ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُ كلَّ واحدٍ يحبُّ محبوباً فهوَ معَ محبوبِهِ إلى القبرِ ، فإذا وصلَ إلى القبرِ . . فارقَهُ ، فجعلتُ الحسناتِ محبوبي ، فإذا دخلتُ القبرَ . . دخلَ محبوبي معي .

فقالَ : أحسنتَ يا حاتِمُ ، **فما الثانيةُ** ؟ فقالَ : نظرتُ في قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ ، فعلمتُ أنَّ قولَهُ سبحانَهُ هوَ الحقُّ ، فأجهدتُ نفسي في دفعِ الهوىٰ حتَّى استقرَّتْ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ .

الثالثةُ : أنِّي نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُ كلَّ مَنْ معَهُ شيءٌ لهُ قيمةٌ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٤) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٢٢٢) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٣٧٩) .

ومقدارٌ عندَهُ رفعَهُ وحفِظَهُ ، ثمَّ نظرتُ في قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ ، فكلَّما وقعَ معي شيءٌ لهُ قيمةٌ ومقدارٌ . . وجهتُهُ إلى اللهِ ليبقىٰ لي عندَهُ محفوظاً .

الرابعةُ : أنِّي نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُ كلَّ واحدٍ منهُمْ يرجعُ إلى المالِ والحسبِ والشرفِ والنسبِ ، فنظرتُ فيها فإذا هيَ لا شيءَ ، ثمَّ نظرتُ إلىٰ قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ ، فعملتُ في التقوىٰ حتَّىٰ أكونَ عندَ اللهِ كريماً .

الخامسةُ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ وهُمْ يطعنُ بعضُهُمْ في بعضٍ ويلعنُ بعضُهُمْ بعضاً ، وأصلُ هـٰذا كلِّه الحسدُ ، ثم نظرتُ إلىٰ قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، فتركتُ الحسدَ واجتنبتُ الخلقَ ، وعلمتُ أنَّ القسْمَ مِنْ عندِ اللهِ سبحانَهُ ، فتركتُ عداوةَ الخلْقِ عنِّي .

السادسةُ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ يبغي بعضُهُمْ علىٰ بعضٍ ، ويقاتلُ بعضُهُمْ بعضاً ، فرجعتُ إلىٰ قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ ، فعاديتُهُ وحدَهُ ، واجتهدتُ في أخْذِ حذري منهُ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ شهدَ عليهِ أنَّهُ عدوٌّ لي ، فتركتُ عداوةَ الخلْقِ غيرَهُ .

السابعةُ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُ كلَّ واحدٍ منهُمْ يطلبُ هـٰذهِ الكسرةَ ، فيذلُّ نفسَهُ فيها ، ويدخلُ فيما لا يحلُّ لهُ ، ثمَّ نظرتُ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، فعلمتُ أنِّي واحدٌ مِنْ

هـٰذهِ الدوابِّ التي على اللهِ رزقُها ، فاشتغلتُ بما للهِ تعالىٰ عليَّ ، وتركتُ ما لي عندَهُ .

الثامنةُ : نظرتُ إلىٰ هـٰذا الخلقِ ، فرأيتُهُمْ كلَّهُمْ متوكِّلينَ علىٰ مخلوقٍ ؛ هـٰذا علىٰ ضيعَتِهِ ، وهـٰذا علىٰ تجارتِهِ ، وهـٰذا علىٰ صناعتِهِ ، وهـٰذا علىٰ صحَّةِ بدنِهِ ، وكلُّ مخلوقٍ متوكِّلٌ علىٰ مخلوقٍ مثلِهِ ، فرجعتُ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ﴾ ، فتوكلتُ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، فهوَ حسبي .

قالَ شقيقٌ : يا حاتِمُ ؛ وفَّقَكَ اللهُ تعالىٰ ، فإنِّي نظرتُ في علومِ التوراةِ والإنجيلِ والزبورِ والقرآنِ العظيمِ ، فوجدْتُ جميعَ أنواعِ الخيرِ والديانةِ ، وهيَ تدورُ علىٰ هـٰذهِ الثمانِ مسائلَ ، فمَنِ استعملَها . . فقدِ استعملَ الكتبَ الأربعةَ[1] .

فهـٰذا الفنُّ مِنَ العلمِ لا يهتمُّ بإدراكِهِ والتفطُّنِ لهُ إلاَّ علماءُ الآخرةِ ، أمَّا علماءُ الدنيا . . فيشتغلونَ بما يتيسَّرُ بهِ اكتسابُ المالِ والجاهِ ، ويهملونَ أمثالَ هـٰذهِ العلومِ التي بها بعثَ اللهُ الأنبياءَ كلَّهُمْ عليهِمُ السلامُ .

وقالَ الضحَّاكُ بنُ مزاحمٍ : (أدركتُهُمْ وما يتعلَّمُ بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ إلا الورعَ ، وهمُ اليومَ ما يتعلَّمونَ إلاَّ الكلامَ)[2] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٧٩) بنحوها .

(٢) قوت القلوب (١/ ٩٦) .

ومنها : أَنْ يكونَ غيرَ مائلٍ إلى الترفُّهِ في المطعمِ والمشربِ ، والتنعمِ في الملبسِ ، والتجمُّلِ في الأثاثِ والمسكنِ : بلْ يؤثرُ الاقتصادَ في جميعِ ذلكَ ، ويتشبَّهُ فيهِ بالسلفِ رحمهُمُ اللهُ تعالىٰ ، ويميلُ إلى الاكتفاءِ بالأقلِّ في جميعِ ذلكَ ، وكلَّما زادَ إلىٰ طرفِ القلَّةِ ميلُهُ . . ازدادَ مِنَ اللهِ قربُهُ ، وارتفعَ في علماءِ الآخرةِ حزبُهُ .

ويشهدُ لذلكَ ما حُكِيَ عنْ أبي عبدِ اللهِ الخوَّاصِ وكانَ مِنْ أصحابِ حاتمٍ الأصمِّ ، قالَ : دخلتُ معَ حاتمٍ الرَّيَّ ومعنا ثلاثُ مئةٍ وعشرونَ رجلاً نريدُ الحجَّ وعليهِمُ الزُّرَنْبانِقاتُ[1] ، وليسَ معَهُمْ جِرابٌ ولا طعامٌ ، فدخلْنا علىٰ رجلٍ مِنَ التجَّارِ متقشِّفٍ يحبُّ المساكينَ ، فأضافَنا تلكَ الليلةَ ، فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . قالَ لحاتمٍ : ألكَ حاجةٌ ؟ فإنِّي أريدُ أنْ أعودَ فقيهاً لنا هوَ عليلٌ ، قالَ حاتمٌ : عيادةُ المريضِ فيها فضلٌ ، والنظرُ إلى الفقيهِ عبادةٌ ، وأنا أيضاً أجيءُ معكَ ، وكانَ العليلُ محمدَ بنَ مقاتلٍ قاضيَ الرَّيِّ ، فلمَّا جئنا إلى البابِ . . فإذا هوَ يشرقُ حسناً ، فبقيَ حاتمٌ متفكراً يقولُ : بابُ عالمٍ علىٰ هٰذهِ الحالِ !

ثمَّ أذنَ لهُمْ فدخلوا ، فإذا دارٌ حسناءُ قوراءُ ، واسعةٌ نزهَةٌ ، وإذا بزَّةٌ وأمتعةٌ وستورٌ ، فبقيَ حاتمٌ متفكِّراً ، ثمَّ دخلوا إلى المجلسِ الذي هوَ فيهِ ، فإذا بفُرُشٍ وطيئَةٍ وهوَ راقدٌ عليها ، وعندَ رأسِهِ غلامٌ وبيدِهِ مِذبَّةٌ ، فقعدَ الزائرُ عندَ رأسِهِ وسألَ عنْ حالِهِ وحاتمٌ قائمٌ ، فأومأَ إليهِ ابنُ مقاتلٍ أنِ

---

(١) **الزرنبانقات** : جُبَب الصوف .

اجلسْ ، فقالَ: لا أجلسُ ، فقالَ : لعلَّ لكَ حاجةً ، قالَ : نعمْ ، فقالَ : وما هيَ ؟ قال : مسألةٌ أسألُكَ عنها ، قال: سلني، قالَ : قمْ فاستوِ جالساً حتَّىٰ أسألَكَ ، فاستوىٰ جالساً .

قالَ حاتمٌ : علمُكَ هـٰذا مِنْ أينَ أخذتَهُ ؟ قالَ : مِنَ الثقاتِ حدَّثوني بهِ ، قالَ : عمَّنْ ؟ قالَ : عَنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : وأصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عمَّنْ ؟ قالَ : عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عمَّنْ ؟ قالَ : عَنْ جبريلَ عليهِ السلامُ عَنِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ .

قالَ حاتمٌ : ففيما أدّاهُ جبريلُ عليهِ السلامُ عَنِ اللهِ تعالىٰ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأدّاهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلىٰ أصحابِهِ ، وأصحابُهُ إلى الثقاتِ ، وأدَّاهُ الثقاتُ إليكَ : هلْ سمعتَ فيهِ : مَنْ كانَ في دارِهِ أميراً وكانتْ سعتُهُ أكثرَ . كانَ لهُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ المنزلةُ أكبرَ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فكيف سمعتَ ؟ قالَ : سمعتُ : أنَّهُ مَنْ زهدَ في الدنيا ورغبَ في الآخرةِ وأحبَّ المساكينَ وقدَّمَ لآخرتِهِ . كانتْ لهُ عندَ اللهِ المنزلةُ .

قالَ لهُ حاتمٌ : فأنتَ بمنِ اقتديتَ ؟ أبالنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأصحابِهِ رضيَ اللهُ عنهُمْ والصالحينَ ، أمْ بفرعونَ ونمروذَ أوَّلِ مَنْ بَنَىٰ بالجصِّ والآجرِّ ؟!

يا علماءَ السوءِ ؛ مثلُكُمْ يراهُ الجاهلُ المتكالبُ على الدنيا الراغبُ فيها

فيقولُ : العالمُ علىٰ هـٰذهِ الحالةِ ، لا أكونُ أنا شرّاً منهُ ! وخرجَ مِنْ عندِهِ .

فازدادَ ابنُ مقاتلٍ مرضاً .

وبلغَ أهلَ الرَّيِّ ما جرىٰ بينَهُ وبينَ ابنِ مقاتلٍ ، فقالوا لهُ : إنَّ الطَّنافِسيَّ بقزوينَ أكثرُ توسُّعاً منهُ ، فسارَ حاتمٌ إليهِ متعمداً ، فدخلَ عليهِ ، فقالَ : رحمَكَ اللهُ ؛ أنا رجلٌ أعجميٌّ أحبُّ أنْ تعلِّمَني مبتدأَ ديني ومفتاحَ صلاتي كيفَ أتوضأُ للصلاةِ ، قال : نعمْ وكرامةً ، يا غلامُ ؛ هاتِ إناءً فيه ماءٌ ، فأُتيَ بهِ ، فقعدَ الطنافسيُّ فتوضَّأَ ثلاثاً ثلاثاً ثمَّ قالَ : هـٰكذا فتوضَّأْ .

فقالَ حاتمٌ : مكانَكَ حتَّىٰ أتوضَّأَ بينَ يديكَ فيكونَ أوكدَ لما أريدُ ، فقامَ الطنافسيُّ وقعدَ حاتمٌ فتوضأَ ، ثمَّ غسلَ ذراعيهِ أربعاً أربعاً ، فقالَ لهُ الطنافسيُّ : يا هـٰذا ؛ أسرفتَ ، قالَ لهُ حاتمٌ : في ماذا ؟ قالَ : غسلتَ ذراعيكَ أربعاً .

فقالَ حاتمٌ : يا سبحانَ اللهِ العظيمِ ! أنا في كفٍّ مِنْ ماءٍ أسرفْتُ ، وأنتَ في جميعِ هـٰذا كلِّهِ لمْ تسرفْ ؟!

فعلمَ الطنافسيُّ أنَّهُ قصدَ ذلكَ دونَ التعلُّمِ ، فدخلَ إلى البيتِ فلمْ يخرجْ إلى الناسِ أربعينَ يوماً .

فلمَّا دخلَ حاتمٌ بغدادَ . . اجتمعَ إليهِ أهلُ بغدادَ ، فقالوا : يا أبا عبدِ الرحمـٰنِ ؛ أنتَ رجلٌ ألْكنُ أعجميٌّ وليسَ يكلِّمُكَ أحدٌ إلا قطعتَهُ !

قالَ : معي ثلاثُ خصالٍ بهنَّ أظهرُ علىٰ خصمي : أفرحُ إذا أصابَ

خصمِي ، وأحزنُ إذا أخطأَ ، وأحفظُ نفسي ألاَّ أجهلَ عليهِ .

فبلغَ ذلكَ أحمدَ ابنَ حنبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : سبحانَ اللهِ ، ما أعقلَهُ ! قوموا بنا إليهِ .

فلما دخلوا عليهِ . . قالَ لهُ : يا أبا عبدِ الرحمٰنِ ؛ ما السلامةُ مِنَ الدنيا ؟ قال : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ لا تسلَمُ مِنَ الدنيا حتَّىٰ يكونَ معكَ أربعُ خصالٍ : تغفرُ للقومِ جهلَهُمْ ، وتمنعُ جهلَكَ منهُمْ ، وتبذلُ لهُمْ شيئَكَ ، وتكونُ مِنْ شيئِهِمْ آيساً ، فإذا كنتَ هٰكذا . . سلمتَ .

ثمَّ سارَ إلى المدينةِ ، فاستقبلَهُ أهلُ المدينةِ ، فقالَ : يا قومِ ؛ أيَّةُ مدينةٍ هٰذهِ ؟ قالوا : مدينةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : فأينَ قصْرُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ أصلِّيَ فيهِ ؟ قالوا : ما كانَ لهُ قصرٌ ، إنَّما كانَ لهُ بيتٌ لاطِئٌ بالأرضِ ، قالَ : فأينَ قصورُ أصحابِهِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ؟ قالوا : ما كانَ لهمْ قصورٌ ، إنَّما كانَ لهُمْ بيوتٌ لاطئَةٌ بالأرضِ .

فقالَ حاتمٌ : يا قومُ ؛ فهٰذهِ مدينةُ فرعونَ !

فأخذوهُ وذهبوا بهِ إلى السلطانِ ، وقالوا : هٰذا العجميُّ يقولُ : هٰذهِ مدينةُ فرعونَ ، قالَ الوالي : ولِمَ ذلكَ ؟ قالَ حاتمٌ : لا تعجَلْ عليَّ ، أنا رجلٌ أعجميٌّ غريبٌ ، دخلتُ البلدَ فقلتُ : مدينةُ مَنْ هٰذهِ ؟ فقالوا : مدينةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقلتُ : فأينَ قصرُهُ . . . وقصَّ القصَّةَ ، ثمَّ قالَ : وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ، فأنتمْ

بمَنْ تأسَّيتُمْ ؟ أبرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أمْ بفرعونَ أوَّلِ مَنْ بنىٰ بالجصِّ والآجرِّ ؟! فخلوا عنهُ وتركوه[1] .

فهـٰذهِ حكايةُ حاتِمِ الأصمِّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ ، وسيأتي مِنْ سيرةِ السلفِ في البذاذةِ وتركِ التجمُّلِ ما يشهدُ لذلكَ في مواضعِهِ .

والتحقيقُ فيهِ : أنَّ التزيُّنَ بالمباحِ ليسَ بحرامٍ ، ولكنَّ الخوضَ فيهِ يوجبُ الأنْسَ بهِ حتَّىٰ يشقَّ تركُهُ ، واستدامةُ الزينةِ لا تمكنُ إلا بمباشرةِ أسبابٍ في الغالبِ يلزمُ مِنْ مراعاتِها ارتكابُ المعاصي ؛ مِنَ المداهنةِ ، ومراعاةِ الخلْقِ ومراءاتِهِمْ ، وأمورٍ أخرَ هيَ محظورةٌ ، والحزمُ اجتنابُ ذلكَ ؛ لأنَّ مَنْ خاضَ في الدنيا لا يسلمُ منها ألْبتةَ ، ولوْ كانتِ السلامةُ مبذولةً معَ الخوضِ فيها . . لكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يبالغُ في تركِ الدنيا ، حتَّىٰ نزعَ القميصَ المُطَرَّزَ بالعَلَمِ[2] ، ونزعَ خاتمَ الذهبِ في أثناءِ الخطبةِ[3] ، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممَّا سيأتي بيانُهُ .

وقد حُكِيَ أنَّ يحيىٰ بنَ يزيدَ النوفليَّ كتبَ إلىٰ مالكِ بنِ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا :

---

(١) رواها أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٨٠) .

(٢) فقد روى البخاري (٣٧٣) ، ومسلم (٥٥٦) واللفظ له : أن النبي صلى الله عليه وسلم صلىٰ في خميصة لها أعلام وقال : « شغلتني أعلام هـٰذه ، فاذهبوا بها إلىٰ أبي جهم وأتوني بأنبجانية » .

(٣) ففي « البخاري » (٥٨٦٧) ، و« مسلم » (٢٠٩١) : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس خاتماً من ذهب ، فنبذه فقال : « لا ألبسه أبداً » فنبذ الناس خواتيمهم .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وصَلَّى اللهُ على رَسُولِه مُحَمَّدٍ في الأَولينَ والآخِرينَ

مِنْ يحيىٰ بنِ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ إلىٰ مالكِ بنِ أنسٍ .

أمَّا بعدُ :

فقدْ بلغني أنَّكَ تلبسُ الدِّقاقَ ، وتأكُلُ الرُّقاقَ[1] ، وتجلسُ على الوطاءِ ، وتجعلُ علىٰ بابِكَ حاجباً ، وقدْ جلستَ مجلسَ العلمِ ، وضُرِبَتْ إليكَ المطيُّ ، وارتحلَ إليكَ الناسُ ، واتخذوكَ إماماً ، ورضوا بقولِكَ ، فاتقِ اللهَ تعالىٰ يا مالكُ ، وعليكَ بالتواضعِ .

كتبتُ إليكَ بالنصيحةِ منِّي كتاباً ما اطلعَ عليهِ إلا اللهُ تعالىٰ ، والسلامُ .

فكتبَ إليهِ مالكٌ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ

مِنْ مالكِ بنِ أنسٍ إلىٰ يحيىٰ بنِ يزيدَ ، سلامُ اللهِ عليكَ .

أمَّا بعدُ :

فقدْ وصلَ إليَّ كتابُكَ ، فوقعَ منِّي موقعَ النصيحةِ في الشفقةِ والأدبِ ، أمتعَكَ اللهُ بالتقوىٰ ، وجزاكَ بالنصيحةِ خيراً ، وأسألُ اللهَ تعالى التوفيقَ ،

---

(١) **الدقاق** : الثياب الرفيعة ، وهي دق الثياب من كتان وقطن ، **والرقاق** : بضم الراء ، الخبز المرقق الذي عجن من دقيق منخول . « إتحاف » (١/ ٣٨٥) .

ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ .

فأمَّا ما ذكرتَ لي أنِّي آكلُ الرُّقاقَ وألبسُ الدِّقاقَ وأحتجبُ وأجلسُ على الوطاء . . فنحنُ نفعلُ ذلكَ ونستغفرُ اللهَ تعالىٰ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ ، وإنِّي لأعلمُ أنَّ تركَ ذلكَ خيرٌ مِنَ الدخولِ فيهِ ، ولا تدعْنا منْ كتابِكَ ، فلسنا ندعُكَ مِنْ كتابِنا ، والسلامُ .

فانظرْ إلىٰ إنصافِ مالكٍ إذِ اعترفَ أنَّ تركَ ذلكَ خيرٌ منَ الدخولِ فيهِ ، وأفتىٰ بأنَّهُ مباحٌ ، وقدْ صدقَ فيهما جميعاً .

ومثلُ مالكٍ في منصبِهِ إذا سمحتْ نفسُهُ بالإنصافِ والاعترافِ في مثلِ هٰذهِ النصيحةِ . . فتقوىٰ أيضاً نفسُهُ على الوقوفِ علىٰ حدودِ المباحِ ، حتَّىٰ لا يحملُهُ ذلكَ على المراءاةِ والمداهنةِ ، والتجاوزِ إلى المكروهاتِ ، وأمَّا غيرُهُ . . فلا يقدرُ عليهِ .

فالتعريجُ على التنعُّمِ في المباحِ خطرٌ عظيمٌ ، وهوَ بعيدٌ مِنَ الخوفِ والخشيةِ ، وخاصِّيَّةُ علماءِ اللهِ تعالىٰ الخشيةُ ، وخاصِّيَّةُ الخشيةِ التباعدُ مِنْ مظانِّ الخطرِ .

❀ ❀ ❀

ومنها : أنْ يكونَ منقبضاً عنِ السلاطينِ : فلا يدخلُ عليهِمْ ألبتةَ ما دامَ يجدُ إلى الفرارِ عنهُمْ سبيلاً ، بلْ ينبغي أنْ يحترزَ مِنْ مخالطتِهِمْ وإنْ جاؤُوا إليهِ ؛ فإنَّ الدنيا حلوةٌ خَضِرَةٌ ، وزمامُها بأيدي السلاطينِ ، والمخالطُ لهُمْ

لا يخلو عَنْ تكلُّفٍ في طلبِ مرضاتِهِمْ واستمالةِ قلوبِهِمْ معَ أنَّهُمْ ظلَمةٌ ، ويجبُ علىٰ كلِّ متديِّنٍ الإنكارُ عليهِمْ ، وتضييقُ صدورِهِمْ بإظهارِ ظلمِهِمْ وتقبيحِ فعلِهِمْ .

فالداخلُ عليهِمْ إمَّا أنْ يلتفتَ إلىٰ تجمُّلِهِمْ فيزدريَ نعمةَ اللهِ عليهِ ، أوْ يسكتَ عنِ الإنكارِ عليهِمْ فيكونَ مداهناً لهُمْ ، أوْ يتكلَّفَ في كلامِهِ كلاماً لمرضاتِهِمْ وتحسينِ حالِهِمْ وذلكَ هوَ البَهْتُ الصريحُ ، أوْ أنْ يطمعَ في أنْ ينالَ مِنْ دنياهُمْ ، وذلكَ هوَ السُّحْتُ .

وسيأتي في كتابِ الحلالِ والحرامِ ما يجوزُ أنْ يُؤخذَ مِنْ أموالِ السلاطينِ وما لا يجوزُ مِنَ الإدرارِ والجوائزِ وغيرِها .

وعلى الجملةِ : فمخالطتُهُمْ مفتاحٌ للشُّرورِ ، وعلماءُ الآخرةِ طريقُهُمُ الاحتياطُ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ بَدَا . . جَفا ـ يعني : مَنْ سكنَ البادية . . جفا ـ ومَنِ اتبعَ الصيدَ . . غَفَلَ ، ومَنْ أتى السلطانَ . . افتُتِنَ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « سيكونُ عليكُمْ أمراءُ تعرفونَ منهمْ وتنكرونَ ، فمَنْ أنكرَ . . فقدْ بَرِيءَ ، ومَنْ كرِهَ . . فقدْ سَلِمَ ، ولكنْ مَنْ رَضِيَ وتابعَ . . أبعدَهُ اللهُ تعالىٰ » ، قيلَ : أفلا نقاتِلُهُمْ؟ قال : « لا ، ما صلَّوا »[2] .

---

(١) رواه أبو داوود (٢٨٥٩) .

(٢) رواه مسلم (١٨٥٤) .

وقالَ سفيانُ : (في جهنَّمَ وادٍ لا يسكنُهُ إلا القُرَّاءُ الزوَّارونَ للملوكِ)[1] .

وقالَ حذيفةُ : إيَّاكُمْ ومواقفَ الفتنِ ، قيلَ : وما هيَ؟ قالَ : أبوابُ الأمراءِ ، يدخلُ أحدُكُمْ على الأميرِ فيصدِّقُهُ بالكذبِ ، ويقولُ فيهِ ما ليسَ فيهِ[2] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العلماءُ أمناءُ الرسلِ علىٰ عبادِ اللهِ تعالىٰ ما لمْ يُخالطوا السلطانَ ، فإذا فعلوا ذلكَ . . فقدْ خانوا الرسلَ ، فاحذروهُمْ واعْتزلُوهُمْ » ، رواهُ أنسٌ[3] .

وقيلَ للأعمشِ : لقدْ أحييتَ العلمَ لكثرةِ مَنْ يأخُذُهُ عنكَ ، فقالَ : لا تعجلوا ؛ ثلثٌ يموتونَ قبلَ الإدراكِ ، وثلثٌ يلزمونَ أبوابَ السلاطينِ فهُمْ شرُّ الخلقِ ، والثلثُ الباقي لا يفلحُ منهُمْ إلا القليلُ[4] .

ولذلكَ قالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (إذا رأيتمُ العالمَ يغشى الأمراءَ فاحترزوا منهُ ؛ فإنَّه لصٌّ)[5] .

---

(١) رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٠٩٧) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ٣١٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٧٧) .

(٣) رواه العقيلي كما في « جامع بيان العلم وفضله » (١١١٣) ، والديلمي كما في « مسند الفردوس » (٤٢١٠) ، وقال الحافظ المناوي في « فيض القدير » (٤/ ٣٨٣) نقلاً عن السيوطي : (قوله ـ أي ابن الجوزي ـ : « موضوع » ممنوع ، وله شواهد فوق الأربعين ، فنحكم له علىٰ مقتضىٰ صناعة الحديث بالحسن) .

(٤) أورده ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١١٥) .

(٥) وهٰذا الذي ذكره المصنف عن سعيد بن المسيب فقد ورد مرفوعاً عن أبي هريرة بلفظ : =

وقالَ الأوزاعيُّ : (ما منْ شيءٍ أبغضَ إلى اللهِ تعالىٰ منْ عالمٍ يزورُ عاملاً)[١] .

وقالَ رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شرارُ العلماءِ الذينَ يأتونَ الأمراءَ ، وخيارُ الأمراءِ الذينَ يأتونَ العلماءَ »[٢] .

وقالَ مكحولٌ الدمشقيُّ رحمهُ اللهُ : (مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وتفقَّهَ في الدينِ ثمَّ صحبَ السلطانَ تملُّقاً إليهِ وطمعاً فيما لديهِ . . خاضَ في نارِ جهنَّمَ بعدَدِ خُطاهُ)[٣] .

وقالَ سُحنونٌ : (ما أسمجَ بالعالمِ أنْ يُؤتىٰ إلىٰ مجلسِهِ فلا يوجدُ ، فيُسألُ عنهُ ، فيُقالُ : إنَّهُ عندَ الأميرِ !)[٤] .

= « إذا رأيتم العالم يخالط السلطان مخالطة كثيرة . . فاعلم أنه لص » أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » (١٠٧٧) . « إتحاف » (١/ ٣٨٩) .

(١) وشاهده من حديث أبي هريرة رفعه ، أخرجه ابن ماجه : « إن أبغض الخلق إلى الله العالم يزور العمال » . « إتحاف » (١/ ٣٨٩) ، وهـٰذا الذي ذكره قد رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٨٢٢) ، والرافعي في « التدوين في أخبار قزوين » (٣/ ٤٥٠) .

(٢) عند ابن ماجه (٢٥٦) : « وإن من أبغض القراء إلى الله الذين يزورون الأمراء » ، وفي « الحلية » (٣/ ٢٤٣) من كلام سلمة بن دينار : (إن خير الأمراء من أحب العلماء ، وإن شر العلماء من أحب الأمراء) .

(٣) وهـٰذا قد روي مرفوعاً من حديث معاذ ، أخرجه أبو الشيخ في كتاب « الثواب » له ، وكذا الحاكم في « تاريخه » بلفظ : « إذا قرأ الرجل القرآن وتفقه في الدين ثم أتىٰ باب السلطان تملقاً إليه ، وطمعاً لما في يديه . . خاض بقدر خطاه في نار جهنم » . « إتحاف » (١/ ٣٩٠) .

(٤) ذكره ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١١١٧) .

قالَ : وكنتُ أسمعُ أنَّهُ يُقالُ : (إذا رأيتمُ العالمَ يحبُّ الدنيا . . فاتهمُوهُ علىٰ دينِكُمْ) حتَّىٰ جرَّبْتُ ذلكَ ؛ إذْ ما دخلتُ قطُّ علىٰ هـٰذا السلطانِ إلا وحاسبتُ نفسي بعدَ الخروجِ ، فأرىٰ عليها الدَّرَكَ[1] ، وأنتمْ ترَوْنَ ما ألقاهُ بهِ مِنَ الغلظةِ والفظاظةِ وكثرةِ المخالفةِ لهواهُ ، ولوددتُ أنْ أنجوَ مِنَ الدخولِ عليهِ كفافاً ، معَ أنِّي لا آخذُ منهُ شيئاً ، ولا أشربُ لهُ شربةَ ماءٍ ، ثمَّ قالَ : وعلماءُ زمانِنا شرٌّ مِنْ علماءِ بني إسرائيلَ ؛ يخبرونَ السلطانَ بالرُّخَصِ وبما يوافقُ هواهُ ، ولوْ أخبروهُ بالذي عليهِ وفيهِ نجاتُهُ . . لاستثقلَهُمْ ، وكَرِهَ دخولَهُمْ عليهِ ، وكانَ ذلكَ نجاةً لهُمْ عندَ ربِّهِمْ[2] .

وقالَ الحسنُ : (كانَ فيمنْ كانَ قبلَكُمْ رجلٌ لهُ قِدَمٌ في الإسلامِ وصحبةٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ قالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ : عنىٰ بهِ سعدَ بنَ أبي وقاصٍ رضيَ اللهُ عنهُ ـ قالَ : وكانَ لا يغشى السلاطينَ ، وينفرُ عنهُمْ ، فقالَ لهُ بنوهُ : يأتي هؤلاءِ مَنْ ليسَ هوَ مثلَكَ في الصحبةِ والقِدَمِ في الإسلامِ ، فلوْ أتيتَهُمْ !

فقالَ : يا بَنِيَّ ؛ آتي جيفةً قدْ أحاطَ بها قومٌ ؟! واللهِ ؛ لئنِ استطعتُ لا شاركتهُمْ فيها .

قالوا : يا أبانا ؛ إذاً نهلِكَ هزالاً .

---

(١) **الدرك** : التبعة وما يلحق منها .

(٢) ترتيب المدارك (١/ ٣٥٧) .

قالَ : يا بَنِيَّ ؛ لأنْ أموتَ مؤمناً مهزولاً أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أموتَ منافقاً سميناً[1] .

قالَ الحسنُ : (خصمَهُمْ واللهِ ؛ إذْ علِمَ أنَّ الترابَ يأكلُ اللحمَ والسِمَنَ ، دونَ الإيمانِ)[2] .

وفي هٰذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ الداخلَ على السلطانِ لا يسلَمُ مِنَ النفاقِ ألبتةَ ، وهوَ مضادٌّ للإيمانِ .

وقالَ أبو ذرٍّ لسلمةَ : (يا سلمةُ ؛ لا تغشَ أبوابَ السلاطينِ ؛ فإنَّك لا تصيبُ مِنْ دنياهُمْ شيئاً إلا أصابوا مِنْ دينِكَ أفضلَ منهُ)[3] .

وهٰذهِ فتنةٌ عظيمةٌ للعلماءِ ، وذريعةٌ صعبةٌ للشيطانِ عليهِمْ ، لا سيما مَنْ لهُ لهجةٌ مقبولةٌ وكلامٌ حلْوٌ ، إذْ لا يزالُ الشيطانُ يُلقي إليهِ أنَّ في وعظِكَ لهُمْ ودخولِكَ عليهِمْ ما يزجرُهُمْ عنِ الظلْمِ ويقيمُ شعائرَ الشرعِ ، إلىٰ أنْ يخيِّلَ إليهِ أنَّ الدخولَ عليهِمْ مِنَ الدينِ ، ثمَّ إذا دخلَ . . لمْ يلبثْ أنْ يتلطَّفَ في الكلامِ ويداهنَ ، ويخوضَ في الثناءِ والإطراءِ ، وفيهِ هلاكُ الدينِ .

---

(١) فلم يزل رضي الله عنه في حال التقشف والصبر حتىٰ لحق بربه معتزلاً في قصره بالعقيق في سنة خمس وخمسين على المشهور ، وحمل على الأعناق ودفن بالبقيع ، وهو آخر العشرة موتاً ، فهو قدوةٌ من ابتلي في حاله بالتلوين ، وحجةٌ من تحصن بالوحدة والعزلة من التفتين . « إتحاف » (١/ ٣٩١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « العزلة » (٢٠٢) ، وحكى البلاذري في « أنساب الأشراف » (١٢/ ٣٨٩) هٰذا عن إياس بن قتادة ، وهو تابعي .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٨٨٧) .

وكانَ يُقالُ : (العلماءُ إذا علموا . . عملوا ، فإذا عملوا . . شُغلوا ، فإذا شُغلوا . . فُقدوا ، فإذا فُقدوا . . طُلبوا ، فإذا طُلبوا . . هَربوا)[1] .

وكتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى الحسنِ رحمَهُما اللهُ : أما بعدُ : فأشرْ عليَّ بقومٍ أستعينُ بهِمْ علىٰ أمرِ اللهِ تعالىٰ .

فكتبَ إليهِ : أمَّا أهلُ الدينِ . . فلنْ يريدوكَ ، وأمَّا أهلُ الدنيا . . فلنْ تريدَهُمْ ، ولكنْ عليكَ بالأشرافِ ؛ فإنَّهُمْ يصونونَ شرفَهُمْ أنْ يدنِّسوهُ بالخيانةِ[2] .

هـٰذا في عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمَهُ اللهُ ، وكانَ أزهدَ أهلِ زمانِهِ ، فإذا كانَ شرطُ أهلِ الدينِ الهربَ منهُ . . فكيفَ يستتبُّ طلبُ غيرِهِ ومخالطتُهُ ؟!

ولمْ يزلِ السلفُ العلماءُ مثلُ الحسنِ والثوريِّ وابنِ المباركِ والفضيلِ وإبراهيمَ بنِ أدهمَ ويوسفَ بنِ أسباطٍ يتكلَّمونَ في علماءِ الدنيا مِنْ أهلِ مكَّةَ والشامِ وغيرِهِمْ ؛ إمَّا لميلِهِمْ إلى الدنيا ، وإما لمخالطتِهِمُ السلاطينَ .

❀ ❀ ❀

ومنها : ألا يكونَ مسارعاً إلى الفتوىٰ : بلْ يكونُ متوقِّفاً ومحترزاً ما وجدَ إلى الخلاصِ سبيلاً ، فإنْ سُئِلَ عمَّا يعلمُهُ تحقيقاً بنصِّ كتابِ اللهِ أو بنصِّ

---

(١) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٥/ ٢٣٤) عن يزيد بن ميسرة رحمه الله تعالىٰ ، ومعنىٰ (شغلوا) أي : بالله تعالىٰ ، وهو نتيجة العمل الصادق ، و(هربوا) أي : من الخلق ؛ سلامة لدينهم وجمعاً لخواطر قلوبهم . « إتحاف » (١/ ٣٩١) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٣٤) .

حديثٍ أوْ إجماعٍ أوْ قياسٍ جليٍّ . . أفتىٰ ، وإنْ سُئِلَ عمَّا يشكُّ فيهِ . . قال : (لا أدري) ، وإنْ سُئِلَ عمَّا يظنُّهُ باجتهادٍ وتخمينٍ . . احتاطَ ودفعَ عنْ نفسِهِ وأحالَ علىٰ غيرِهِ إنْ كانَ في غيرِهِ غُنيةٌ .

هـٰذا هوَ الحزمُ ؛ لأنَّ تقلُّدَ خطرِ الاجتهادِ عظيمٌ .

وفي الخبرِ : (العلمُ ثلاثةٌ : كتابٌ ناطقٌ ، وسنةٌ قائمةٌ ، ولا أدري)[1] .

وقالَ الشعبيُّ : (لا أدري نصفُ العلمِ)[2] .

ومَنْ سكتَ حيثُ لا يدري للهِ تعالىٰ . . فليسَ بأقلَّ أجراً ممَّنْ نطقَ ؛ لأنَّ الاعترافَ بالجهْلِ أشدُّ على النفسِ ، وهـٰكذا كانتْ عادةُ الصحابةِ والسلفِ رضيَ اللهُ عنهُمْ .

كانَ ابنُ عمرَ إذا سُئِلَ عنِ الفتوىٰ . . قالَ : اذهبْ إلىٰ هـٰذا الأميرِ الذي تقلَّدَ أمورَ الناسِ فضَعْها في عنقِهِ[3] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ الذي يفتي الناسَ في كلِّ ما يستفتونَهُ لَمجنونٌ)[4] .

---

(١) هو من كلام ابن عمر رضي الله عنهما ، رواه عنه الطبراني في « الأوسط » (١٠٠٥) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٣٨٧) .
(٢) رواه الدارمي في « سننه » (١٨٦) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٣١) .
(٤) رواه الدارمي في « سننه » (١٧٦) .

وقالَ : (جُنَّةُ العالِمِ لا أدري ، فإذا أخطأها . . أصيبتْ مقاتلُهُ)[1] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : (ليسَ شيءٌ أشدَّ على الشيطانِ مِنْ عالمٍ يتكلَّمُ بعلْمٍ ويسكتُ بعلْمٍ ، يقولُ : انظروا إلىٰ هـٰذا ، سكوتُهُ أشدُّ عليَّ مِنْ كلامِهِ)[2] .

ووصفَ بعضُهُمُ الأبدالَ فقالَ : (أكْلُهُمْ فاقةٌ ، وكلامُهُمْ ضرورةٌ)[3] أي : ما يتكلمونَ حتَّىٰ يُسألوا ، فإذا سُئِلوا ووجدوا مَنْ يكفيهِمْ . . سكتوا ، فإنِ اضطروا . . أجابوا ، وكانوا يعدُّون الابتداءَ قبلَ السؤالِ مِنَ الشهوةِ الخفيَّةِ للكلامِ .

ومرَّ عليٌّ وعبدُ اللهِ رضيَ اللهُ عنهُما برجلٍ يتكلَّمُ على الناسِ ، فقالا : (هـٰذا يقولُ : اعرفوني)[4] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إنَّما العالمُ الذي إذا سُئِلَ عنِ المسألةِ فكأنَّما يقلَعُ ضرسَهُ)[5] .

---

(١) رواه الصنعاني في « الأمالي في آثار الصحابة » (١٦٢) ، وهو مروي عن غيره من السلف .

(٢) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٨/ ٢٦) بنحوه .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٤) ، والواصف هو فزارة الشامي كما جاء في غير هـٰذا الموضع .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٥٥) ، وعبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه .

(٥) قوت القلوب (١/ ١٥٥) ، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٤٥٩) بنحوه .

وكانَ ابنُ عمرَ يقولُ : (تريدونَ أنْ تجعلونا جسراً تعبرونَ علينا إلىٰ جهنَّمَ ؟!)[١] .

وقالَ أبو حفصٍ النيسابوريُّ : (العالمُ هوَ الذي يخافُ عندَ السؤالِ أنْ يُقالَ لهُ يومَ القيامةِ : مِنْ أينَ أجبتَ ؟)[٢] .

وكانَ إبراهيمُ التيميُّ إذا سُئِلَ عنْ مسألةٍ . . يبكي ويقولُ : لمْ تجدوا غيري حتَّى احتجتُمْ إليَّ ؟[٣] .

وكانَ أبو العاليةِ الرياحيُّ وإبراهيمُ والثوريُّ وابنُ أدهمَ يتكلَّمونَ على الاثنينِ والثلاثةِ والنفرِ اليسيرِ ، فإذا كثروا . . انصرفوا[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما أدري أعزيرٌ نبيٌّ أمْ لا ، وما أدري أتُبَّعٌ ملعونٌ أمْ لا ، وما أدري ذو القرنين نبيٌّ أمْ لا »[٥] .

ولمَّا سُئِلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ خيرِ البقاعِ في الأرضِ وشرِّها ، قالَ : « لا أدري » ، حتَّىٰ نزلَ عليهِ جبريلُ عليهِ السلامُ ، فسألَهُ عنْ ذلكَ ، فقالَ : لا أدري ، إلىٰ أنْ أعْلَمَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ خيرَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٥٥) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٥٥) بنحوه .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٥) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٥٥) ، وإبراهيم هو النخعي .
(٥) رواه أبو داوود (٤٦٧٤) ، والجملة الأخيرة عند الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١٤) .

البقاعِ المساجدُ ، وشرَّهَا الأَسْواقُ[١] .

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما يُسألُ عنْ عشرِ مسائلَ ، فيجيبُ عنْ واحدةٍ ويسكتُ عنْ تسعٍ[٢] .

وكانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما يجيبُ عنْ تسعٍ ويسكتُ عنْ واحدةٍ[٣] .

وكانَ في الفقهاءِ مَنْ يقولُ : (لا أدري) أكثرَ مِنْ أنْ يقولَ : (أدري) ؛ منهمْ سفيانُ الثوريُّ ، ومالكُ بنُ أنسٍ ، وأحمدُ ابنُ حنبلٍ ، والفضيلُ بنُ عياضٍ ، وبشرُ بنُ الحارثِ[٤] .

وقالَ عبدُ الرحمٰنِ بنُ أبي ليلىٰ : (أدركتُ في هٰذا المسجدِ مئةً وعشرينَ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما منهُمْ أحدٌ يُسألُ عنْ حديثٍ أوْ فتوىٰ إلا وَدَّ أنَّ أخاهُ كفاهُ ذلكَ)[٥] .

وفي لفظٍ آخرَ : (كانتِ المسألةُ تعرضُ علىٰ أحدِهِمْ فيردُّها إلى الآخرِ ، ويردُّها الآخرُ إلى الآخرِ ، حتَّىٰ تعودَ إلى الأولِ) .

ورُويَ أنَّ أصحابَ الصُّفَّةِ أُهديَ إلىٰ واحدٍ منهمْ رأسٌ مشويٌّ وهوَ في

---

(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (١٥٩٩) ، والطبراني في « الأوسط » (٧١٣٦) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٣١) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٣١) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٣١) .
(٥) تاريخ دمشق (٣٦/ ٨٧) ، وكذا في « قوت القلوب » (١/ ١٣١) .

غايةِ الضرِّ ، فأهداهُ إلىٰ آخرَ ، وأهداهُ الآخرُ إلىٰ آخرَ ، وهٰكذا دارَ بينهُمْ حتَّىٰ رجعَ إلى الأولِ[1] .

فانظرِ الآنَ كيفَ انعكسَ أمرُ العلماءِ ، فصارَ المهروبُ عنهُ مطلوباً ، والمطلوبُ مهروباً عنهُ .

ويشهدُ لحسنِ الاحترازِ مِنْ تقلُّدِ الفتوىٰ ما رُوِيَ مسنداً أنَّهُ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يفتي الناسَ إلا ثلاثةٌ : أميرٌ ، أوْ مأمورٌ ، أوْ متكلِّفٌ »[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : (كانَ الصحابةُ يتدافعونَ أربعةَ أشياءَ : الإمامةَ ، والوصيةَ ، والوديعةَ ، والفتيا)[3] .

وقالَ بعضُهُمْ : (كانَ أسرعُهُمْ إلى الفتيا أقلَّهُمْ علماً ، وأشدُّهُمْ دفعاً لها أورعَهُمْ)[4] .

وكانَ شغلُ الصحابةِ والتابعينَ رضيَ اللهُ عنهُمْ في خمسةِ أشياءَ : قراءةِ القرآنِ ، وعمارةِ المساجدِ ، وذكرِ اللهِ تعالىٰ ، والأمرِ بالمعروفِ ، والنهيِ عنِ المنكرِ ؛ وذلكَ لما سمعوهُ مِنْ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كلُّ كلامِ ابنِ آدمَ

---

(١) وإنما أورد المصنف هٰذه القصة هنا ليقاس عليه أمر الفتوىٰ حتىٰ يعيدها إلى الآخر . « إتحاف » (١/ ٣٩٨) .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ١٣١) حيث قال : (وقد روينا مسنداً) وذكره ، وقد رواه بنحوه أحمد في « المسند » (٦/ ٢٢) ، والطبراني في « الكبير » (١٨/ ٧٦) ، وأوله : « لا يقصُّ إلا أمير . . . » ، وله روايات أخرىٰ .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٣٢) .

(٤) جامع بيان العلم وفضله (١٥٢٥) ، وكذا في « قوت القلوب » (١/ ١٣٢) .

عليهِ لا لهُ إلا ثلاثةً : أمرٌ بمعروفٍ، أوْ نهيٌ عنْ منكرٍ ، أوْ ذكرُ اللهِ تعالىٰ»[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ الآيةَ .

ورأىٰ بعضُ العلماءِ بعضَ أصحابِ الرأيِ مِنْ أهلِ الكوفةِ في المنامِ ، فقالَ : ما رأيتَ فيما كنتَ عليهِ منَ الفتيا والرأيِ ؟ فكرهَ وجهَهُ وأعرضَ عنهُ ، وقالَ : ما وجدناهُ شيئاً ، وما حمدْنا عاقبتَهُ[2] .

وقالَ أبو حَصِينٍ : (إنَّ أحدَهُمْ ليفتي في مسألةٍ لوْ وردتْ علىٰ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ لجمعَ لها أهلَ بدرٍ !)[3] .

فلمْ يزلِ السكوتُ دأبَ أهلِ العلمِ إلا عندَ الضرورةِ ، وفي الخبرِ : « إذا رأيتمُ الرجلَ قدْ أُوتيَ صمتاً وزهداً . . فاقتربُوا منهُ ؛ فإنَّهُ يُلَقَّى الحكمةَ »[4] .

وقيلَ : العالمُ : إمَّا عالمُ عامَّةٍ ، وهوَ المفتي ، وهُمْ أصحابُ الأساطينِ ، أوْ عالمُ خاصَّةٍ ، وهوَ العالمُ بالتوحيدِ وأعمالِ القلوبِ ، وهُمْ أصحابُ الزوايا المنفردونَ[5] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٤١٢) ، وابن ماجه (٣٩٧٤) بنحوه .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٣٢) بنحوه .

(٣) رواه البيهقي في « المدخل » (٨٠٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٨/ ٤١٠) .

(٤) رواه ابن ماجه (٤١٠١) .

(٥) قوت القلوب (١/ ١٤٢) ، **والأساطين** : جمع أسطوانة ، وهي هنا السارية تكون في المسجد .

وكانَ يُقالُ : (مثلُ أحمدَ ابنِ حنبلٍ مثلُ دِجلةَ ، كلُّ أحدٍ يغترفُ منها ، ومثلُ بشْرِ بنِ الحارثِ مثلُ بئرٍ عذبةٍ مغطَّاةٍ ، لا يقصدُها إلا واحدٌ بعدَ واحدٍ)[١] .

وكانوا يقولونَ : فلانٌ عالمٌ ، وفلانٌ متكلِّمٌ ، وفلانٌ أكثرُ كلاماً ، وفلانٌ أكثرُ علماً[٢] .

وقالَ أبو سليمانَ : (المعرفةُ إلى السكوتِ أقربُ منها إلى الكلامِ)[٣] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إذا كثرَ العلمُ . . قلَّ الكلامُ)[٤] .

وكتبَ سلمانُ إلىٰ أبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُما وكانَ قدْ آخىٰ بينَهُما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[٥] : (يا أخي ؛ بلغني أنَّكَ أُقعدتَ طبيباً تداوي المرضىٰ ، فانظرْ فإنْ كنتَ طبيباً . . فتكلَّمْ ؛ فإنَّ كلامَكَ شفاءٌ ، وإنْ كنتَ مُتَطَبِّباً . . فاللهَ اللهَ ، لا تقتلْ مسلماً) ، فكانَ أبو الدرداءِ يتوقَّفُ بعدَ ذلكَ إذا سُئِلَ[٦] .

وكان أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ إذا سُئِلَ يقولُ : (سَلُوا مولانا الحسنَ)[٧] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤٢) .
(٢) قوت القلوب (١/ ٤٢) ، وإنما أراد التفرقة بين العلم والكلام .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٤٢) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٤٢) ، وفي (هـ) زيادة : (إذا كثر الكلام . . قل العلم) .
(٥) كما جاء ذلك في « البخاري » (١٩٦٨) .
(٦) قوت القلوب (١/ ١٤٧) .
(٧) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٤٥) .

وكانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما إذا سئلَ يقولُ: (سَلُوا جابرَ بنَ زيدٍ)[1].

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما يقولُ : (سَلُوا سعيدَ بنَ المسيَّبِ)[2] .

وحُكِيَ أنَّهُ روىٰ صحابيٌّ في حضرةِ الحسنِ عشرينَ حديثاً ، فسُئِلَ عنْ تفسيرِها فقالَ : ما عندي إلا ما رويتُ ، فأخذَ الحسنُ في تفسيرِها حديثاً حديثاً ، فتعجَّبوا مِنْ حسنِ حفظِهِ وحسنِ تفسيرِهِ ، فأخذَ الصحابيُّ كفّاً مِنْ حصىً ورماهُمْ بهِ وقالَ: تسألوني عنِ العلمِ وهٰذا الحبرُ بينَ أظهرِكُمْ ؟![3].

❀ ❀ ❀

ومنها : أنْ يكونَ أكثرُ اهتمامِهِ بعلمِ الباطنِ ومراقبةِ القلبِ ، ومعرفةِ طريقِ الآخرةِ وسلوكِهِ[4] ، وصدقِ الرجاءِ في انكشافِ ذلكَ : منَ المجاهدةِ والمراقبةِ ؛ فإنَّ المجاهدةَ تفضي إلى المشاهدةِ في دقائقِ علومِ القلوبِ وتتفجرُ بها ينابيعُ الحكمةِ مِنَ القلبِ ، وأمَّا الكتبُ والتعليمُ.. فلا تفي بذلكَ ، بلِ الحكمةُ الخارجةُ عنِ الحصْرِ والعدِّ إنَّما تنفتحُ بالمجاهدةِ والمراقبةِ ، ومباشرةِ الأعمالِ الظاهرةِ والباطنةِ ، والجلوسِ معَ اللهِ تعالىٰ في الخلوةِ معَ حضورِ القلبِ بصافي الفكرِ ، والانقطاعِ إلى اللهِ تعالىٰ عمَّا سواهُ ، فذلكَ مفتاحُ الإلهامِ ، ومنبعُ الكشْفِ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤٧) .

(٢) رواه ابن سعد في « طبقاته » (٧/ ١٤٠) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٤٧) بنحوه .

(٤) بواسطة مرشد كامل أو عارف حاذق يستفيد ذلك بمجالسته . « إتحاف » (١/ ٤٠٢) .

فكمْ مِنْ متعلِّمٍ طالَ تعلُّمُهُ ولمْ يقدِرْ علىٰ مجاوزةِ مسموعِهِ بكلمةٍ ، وكمْ مِنْ مقتصرٍ على المهمِّ في التعلُّمِ ومتوفِّرٍ على العملِ ومراقبةِ القلْبِ فَتَحَ اللهُ لهُ مِنْ لطائفِ الحكمِ ما تحارُ فيهِ عقولُ ذوي الألبابِ !

ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ عملَ بما علمَ . . وَرَّثَهُ اللهُ علْمَ ما لمْ يعلمْ »[1] .

وفي بعضِ الكتبِ السالفةِ : (يا بني إسرائيلَ ؛ لا تقولوا : العلمُ في السماءِ مَنْ ينزلُ بهِ ، ولا في تُخُومِ الأرضِ مَنْ يصعدُ بهِ ، ولا مِنْ وراءِ البحارِ مَنْ يعبرُ يأتي بهِ ، العلْمُ مجعولٌ في قلوبِكُمْ ، تأدَّبوا بين يديَّ بآدابِ الروحانيينَ ، وتخلَّقُوا لي بأخلاقِ الصدِّيقينَ . . أُظهِرِ العلمَ في قلوبِكُمْ حتَّىٰ يغطيَكُمْ ويغمرَكُمْ)[2] .

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ رحمهُ اللهُ : (خرجَ العلماءُ والعبَّادُ والزهَّادُ مِنَ الدنيا وقلوبُهُمْ مقفلةٌ، ولمْ تُفتحْ إلا قلوبُ الصدِّيقينَ والشهداءِ، ثمَّ تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ الآيةَ)[3] .

ولولا أنَّ إدراكَ قلبِ مَنْ لهُ قلبٌ بالنورِ الباطنِ حاكمٌ علىٰ علْمِ الظاهرِ . . لما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ٱسْتَفْتِ قلبَكَ وإنْ أفتوكَ وأفتوكَ وأفتوكَ »[4] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٤) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٣٧) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٢) .
(٤) رواه أحمد في « مسنده » (٤/ ٢٢٨)، وهٰذا مخصوص لمن كان له قلب وألقىٰ سمعه ، =

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فيما يرويهِ عنْ ربِّهِ: «لا يزالُ العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّىٰ أحبَّهُ، فإذا أحببتُهُ.. كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ بهِ...» الحديثَ[1].

فكمْ مِنْ معانٍ دقيقةٍ مِنْ أسرارِ القرآنِ تخطرُ علىٰ قلْبِ المتجرِّدِينَ للذكرِ والفكرِ تخلو عنها كتبُ التفاسيرِ ولا يطلعُ عليها أفاضلُ المفسرينَ! وإذا انكشفَ ذلكَ للمريدِ المراقبِ وعُرِضَ على المفسرينَ[2].. استحسنوهُ، وعلموا أنَّ ذلكَ مِنْ تنبيهاتِ القلوبِ الزكيةِ، وألطافِ اللهِ تعالىٰ بالهممِ العاليةِ المتوجهةِ إليهِ، وكذلكَ في علومِ المكاشفةِ وأسرارِ علومِ المعاملةِ ودقائقِ خواطرِ القلوبِ؛ فإنَّ كلَّ علْمٍ مِنْ هٰذهِ العلومِ بحرٌ لا يُدركُ عمقُهُ، وإنَّما يخوضُهُ كلُّ طالبٍ بقدْرِ ما رُزِقَ منهُ، وبحسَبِ ما وُفِّقَ لهُ مِنْ حُسْنِ العملِ.

وفي وصفِ هؤلاءِ العلماءِ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في حديثٍ طويلٍ: (القلوبُ أوعيةٌ، وخيرُها أوعاها، والناسُ ثلاثةٌ: عالمٌ ربانيٌّ، ومتعلِّمٌ علىٰ سبيلِ النجاةِ، وهَمَجٌ رَعاعٌ أتباعُ كلِّ ناعقٍ، يميلونَ معَ كلِّ ريحٍ، لمْ يستضيئوا بنورِ العلمِ، ولمْ يلجؤوا إلىٰ ركنٍ وثيقٍ، العلمُ خيرٌ مِنَ المالِ، العلمُ يحرسُكَ وأنتَ تحرسُ المالَ، والعلمُ يزكو على الإنفاقِ والمالُ تنقصُهُ النفقةُ، محبَّةُ العالمِ دينٌ يدانُ بهِ، تُكتسبُ بهِ الطاعةُ في حياتِهِ، وجميلُ

= وشهد قيام شاهده، وعري عن شهواته ومعهوده؛ لأن الفقه ليس من وصف اللسان. «إتحاف» (١/٤٠٣).

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) المنصفين المحفوظين من علائق الشهوة. «إتحاف» (١/٤٠٤).

الأحدوثةِ بعدَ موتِهِ ، العلمُ حاكمٌ والمالُ محكومٌ عليهِ ، ومنفعةُ المالِ تزولُ بزوالِهِ ، ماتَ خُزَّانُ الأموالِ وهمْ أحياءٌ ، والعلماءُ باقونَ ما بقيَ الدهرُ .

ثمَّ تنفَّسَ الصعداءَ وقالَ : **هاهْ ! إنَّ هٰهنا علْماً جمّاً لوْ وجدتُ لهُ حملةً** ، بلْ أجدُ طالباً غيرَ مأمونٍ يستعملُ آلةَ الدينِ في طلبِ الدنيا ، ويستطيلُ بنِعَمِ اللهِ علىٰ أوليائِهِ ، ويستظهرُ بحُجَجِهِ علىٰ خلقِهِ ، أوْ منقاداً لأهلِ الحقِّ، لكنْ ينزعُ الشكُّ في قلبِهِ بأوَّلِ عارضٍ مِنْ شبهَةٍ، لا بصيرةَ لهُ، **لا ذا ولا ذاكَ**، أوْ منهوماً باللذَّاتِ سلسَ القيادِ في طلبِ الشهواتِ ، أوْ مغرىً بجمْعِ الأموالِ والادخارِ ، منقاداً لهواهُ ، أقربُ شَبَهاً بهما الأنعامُ السائمةُ[1] .

اللهمَّ ؛ هٰكذا يموتُ العلْمُ إذا ماتَ حاملوهُ ، بلْ لا تخلو الأرضُ مِنْ قائمٍ للهِ بحجَّةٍ ، إمَّا ظاهرٌ مكشوفٌ ، وإمَّا خائفٌ مقهورٌ ؛ لئلا تبطُلَ حججُ اللهِ تعالىٰ وبيِّناتُهُ ، وكمْ وأينَ . . أولئكَ همُ الأقلُّونَ عدداً ، الأعظمونَ قدْراً ؟! أعيانُهُمْ مفقودةٌ ، وأمثالُهُمْ في القلوبِ موجودةٌ ، يحفظُ اللهُ تعالىٰ بهِمْ حججَهُ حتَّىٰ يُودِعُوها نظراءَهُمْ ، ويزرعُوها في قلوبِ أشباهِهِمْ ، هجَمَ بهمُ العلْمُ علىٰ حقيقةِ الأمرِ ، فباشروا رُوحَ اليقينِ ، فاستلانوا ما استوعرَ منهُ المترفونَ ، وأَنِسُوا بما استوحشَ منهُ الغافلونَ ، صَحِبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقةٌ بالمحلِّ الأعلىٰ ، أولئكَ أولياءُ اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ خلقِهِ ، وأمناؤُهُ وعمالُهُ في أرضِهِ ، والدعاةُ إلىٰ دينِهِ .

---

(١) قوله : (بهما) المنهوم باللذة ، والمغرىٰ بجمع الأموال .

ثمَّ بكىٰ وقالَ : وا شوقاهُ إلىٰ رؤيتِهِمْ)[1] .

فهـٰذا الذي ذكرَهُ آخراً هوَ وصْفُ علماءِ الآخرةِ ، وهوَ العلمُ الذي يُستفادُ أكثرُهُ مِنَ العملِ والمواظبةِ على المجاهدةِ .

❀ ❀ ❀

ومنها : أنْ يكونَ شديدَ العنايةِ بتقويةِ اليقينِ : فإنَّ اليقينَ هوَ رأسُ مالِ الدينِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اليقينُ الإيمانُ كلُّهُ »[2] .

ولا بدَّ منْ تعلُّمِ علْمِ اليقينِ ، أعني أوائلَهُ ، ثمَّ ينفتحُ للقلبِ طريقُهُ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تعلَّمُوا اليقينَ »[3] ، ومعناهُ : جالسوا الموقنينَ ، واسمعوا منهُمْ علْمَ اليقينِ ، وواظبوا على الاقتداءِ بهِمْ ؛ ليقوىٰ يقينُكُمْ كما قويَ يقينُهُمْ ، وقليلٌ منَ اليقينِ خيرٌ مِنْ كثيرٍ مِنَ العملِ .

قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا قيلَ لهُ : رجلٌ حسنُ اليقينِ كثيرُ الذنوبِ ، ورجلٌ مجتهدٌ في العبادةِ قليلُ اليقينِ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ آدميٍّ إلاَّ ولهُ ذنوبٌ ، ولكنْ مَنْ كانَ غريزتُهُ العقلَ وسجيتُهُ اليقينَ . . لمْ تضرُّهُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٩ ـ ٨٠) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٦/ ٣٧٦) ، وانظر « قوت القلوب » (١/ ١٤٢ـ١٤٣) ، و« إتحاف السادة المتقين » (١/ ٤٠٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٢٦٥) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٩٥) ، وابن أبي الدنيا في « اليقين » (٧) .

الذنوبُ ؛ لأنَّه كلَّما أذنبَ . . تابَ واستغفرَ وندمَ ، فتُكفَّرُ ذنوبُهُ ، ويبقىٰ لهُ فضْلٌ يدخلُ بهِ الجنةَ »[1] .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ أقلِّ ما أُوتيتمُ اليقينُ وعزيمةُ الصبرِ ، ومَنْ أُعْطيَ حَظَّهُ منهما . . لمْ يُبَالِ ما فاتَهُ مِنْ قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ »[2] .

وفي وصيةِ لقمانَ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ لا يُستطاعُ العملُ إلا باليقينِ ، ولا يعمَلُ المرءُ إلا بقدْرِ يقينِهِ ، ولا يقصِّرُ عاملٌ حتَّىٰ ينقصَ يقينُهُ)[3] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (إنَّ للتوحيدِ نوراً ، وللشرْكِ ناراً ، وإنَّ نورَ التوحيدِ أحرقُ لسيئاتِ الموحدينَ منْ نارِ الشرْكِ لحسناتِ المشركينَ)[4] ، وأرادَ بهِ اليقينَ .

---

(١) الحديث عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) ، وهو في « القوت » (١/ ١٣٥) ، وانظر « المطالب العالية » (٧/ ٢٦٦ ، ٢٦٩) ، و« الإتحاف » (١/ ٤٠٩) .

(٢) قال صاحب « القوت » (١/ ١٩٤) : (وأخبر عليه الصلاةُ والسلام أن الصبر كمال العمل والأجر ، فقال في حديث يرويه شهر بن حوشب الأشعري ، عن أبي أمامة الباهلي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . . .) وذكره ، قال ملا علي في « الأسرار المرفوعة » : (قلت : وهو مستفاد من قوله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ، وأما عزيمة الصبر في العمل . . فكذا قليل كما قال الله تعالىٰ : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٣٥) .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٣٦) .

وقدْ أشارَ اللهُ تعالىٰ في القرآنِ إلىٰ ذكرِ الموقنينَ في مواضعَ دلَّ بها علىٰ أنَّ اليقينَ هوَ الرابطةُ للخيراتِ والسعاداتِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فما معنى اليقينِ ، وما معنىٰ قوتِهِ وضعفِهِ ؟ فلا بدَّ مِنْ فهمِهِ أولاً ، ثمَّ الاشتغالِ بطلبِهِ وتعلُّمِهِ ؛ فإنَّ ما لا تُفهَمُ صورتُهُ لا يمكنُ طلبُهُ .

فاعلمْ : أنَّ اليقينَ لفظٌ مشتركٌ يطلقُهُ فريقانِ لمعنيينِ مختلفينِ :

أمَّا النظَّارُ والمتكلمونَ : فيعبِّرونَ بهِ عن عدمَ الشكِّ[1] ؛ إذْ ميلُ النفسِ إلى التصديقِ بالشيءِ لهُ أربعُ مقاماتٍ :

الأولُ : أنْ يعتدلَ التصديقُ والتكذيبُ ، ويُعبَّرُ عنهُ بالشكِّ ، كما إذا سُئِلتَ عنْ شخصٍ معيَّنٍ أنَّ اللهَ تعالىٰ يعاقبُهُ أمْ لا وهوَ مجهولُ الحالِ عندَكَ . . فإنَّ نفسَكَ لا تميلُ إلى الحكْمِ فيهِ بإثباتٍ ولا نفيٍ ، بلْ يستوي عندَكَ إمكانُ الأمرينِ ، فيسمَّىٰ هـٰذا **شكّاً** .

الثاني : أنْ تميلَ نفسُكَ إلىٰ أحدِ الأمرينِ معَ الشعورِ بإمكانِ نقيضِهِ ، ولكنَّهُ إمكانٌ لا يمنعُ ترجيحَ الأوَّلِ ، كما إذا سُئِلتَ عنْ رجلٍ تعرفُهُ بالصلاحِ والتقوىٰ أنَّهُ بعينِهِ لوْ ماتَ علىٰ هـٰذهِ الحالةِ هلْ يُعاقبُ ؟ فإنَّ نفسَكَ تميلُ إلىٰ أنَّهُ لا يُعاقبُ أكثرَ مِنْ ميلِها إلى العقابِ ، وذلكَ لظهورِ علاماتِ الصلاحِ ، ومعَ هـٰذا فأنتَ تجوِّزُ اختفاءَ أمرٍ موجبٍ للعقابِ في باطنِهِ وسريرتِهِ ، فهـٰذا

---

(١) فالشكُّ نقيضه ، وهـٰذا هو مذهب أهل اللغة . « إتحاف » (١/ ٤١٠) .

التجويزُ مساوقٌ لذلكَ الميلِ ، ولكنَّه غيرُ دافعٍ رجحانَهُ ، فهـٰذهِ الحالةُ تُسمَّىٰ **ظناً** .

الثالثُ : أنْ تميلَ النفسُ إلى التصديقِ بشيءٍ بحيثُ يغلبُ عليها ولا يخطرُ بالبالِ غيرُهُ ، ولوْ خطرَ بالبالِ . . لنَبَتِ النفسُ عنْ قبولِهِ ، ولكنْ ليسَ ذلكَ عنْ معرفةٍ محقَّقةٍ ؛ إذْ لوْ أحسنَ صاحبُ هـٰذا المقامِ التأمُّلَ والإصغاءَ إلى التشكيكِ والتجويزِ . . لاتسعتْ نفسُهُ للتجويزِ ، وهـٰذا يسمَّى **اعتقاداً مقارباً لليقينِ** ، وهوَ اعتقادُ العوامِّ في الشرعياتِ كلِّها ؛ إذْ رسخَ في نفوسِهِمْ بمجرَّدِ السماعِ ، حتَّىٰ إنَّ كلَّ فرقةٍ تثقُ بصحَّةِ مذهبِها وإصابةِ إمامِها ومتبوعِها ، ولوْ ذُكِرَ لأحدِهِمْ إمكانُ خطأِ إمامِهِ . . نفرَ عنْ قبولِهِ[1] .

الرابعُ : المعرفةُ الحقيقيةُ الحاصلةُ بطريقِ البرهانِ الذي لا يُشكُّ فيهِ ، ولا يُتصوَّرُ الشكُّ فيهِ ، فإذا امتنعَ وجودُ الشكِّ وإمكانُهُ . . يسمَّىٰ **يقيناً** عندَ هؤلاءِ .

ومثالُهُ : أنَّهُ إذا قيلَ للعاقلِ : هلْ في الوجودِ شيءٌ هوَ قديمٌ ؟ فلا يمكنُهُ التصديقُ بهِ بالبديهةِ ؛ لأنَّ القديمَ غيرُ محسوسٍ ، لا كالشمسِ والقمرِ ؛ فإنَّهُ يصدقُ بوجودِهِما بالحسِّ ، وليسَ العلمُ بوجودِ شيءٍ قديمٍ أزليٍّ ضرورياً مثلَ العلمِ بأنَّ الاثنينِ أكثرُ مِنَ الواحدِ ، بلْ مثلَ العلمِ بأنَّ حدوثَ حادثٍ بلا سببٍ محالٌ ، فإنَّ هـٰذا أيضاً ضروريٌّ ، فحقُّ غريزةِ العقلِ أنْ تتوقَّفَ عنِ

---

(١) انظر « الاقتصاد في الاعتقاد » (ص٢٢٨) ، وفصَّل تفصيلاً حسناً .

التصديقِ بوجودِ القديمِ علىٰ طريقِ الارتجالِ والبديهةِ .

ثمَّ مِنَ الناسِ مَنْ يسمعُ ذلكَ ويصدِّقُ بالسماعِ تصديقاً جزماً ويستمرُّ عليهِ ، وذلكَ هوَ الاعتقادُ ، وهوَ حالُ جميعِ العوامِّ ، ومِنَ الناسِ مَنْ يصدِّقُ بهِ بالبرهانِ وهوَ أنْ يُقالَ لهُ : إنْ لمْ يكنْ في الوجودِ قديمٌ . . فالموجوداتُ كلُّها حادثةٌ ، فإنْ كانتْ كلُّها حادثةً . . فهيَ حادثةٌ بلا سببٍ ، أوْ فيها حادثٌ بلا سببٍ ، وذلكَ محالٌ ؛ فالمؤدِّي إلى المحالِ محالٌ ، فيلزمُ في العقلِ التصديقُ بوجودِ شيءٍ قديمٍ بالضرورةِ ؛ لأنَّ الأقسامَ ثلاثةٌ : وهيَ أنْ تكونَ الموجوداتُ كلُّها قديمةً ، أوْ كلُّها حادثةً ، أوْ بعضُها قديمةً وبعضُها حادثةً .

فإنْ كانتْ كلُّها قديمةً . . فقدْ حصلَ المطلوبُ ؛ إذْ ثبتَ على الجملةِ قديمٌ ، وإنْ كانَ الكلُّ حادثاً . . فهوَ محالٌ ؛ إذْ يؤدِّي إلىٰ حدوثٍ بغيرِ سببٍ ، فثبتَ القسمُ الثالثُ أوِ الأولُ .

وكلُّ عِلْمٍ حصلَ علىٰ هٰذا الوجهِ يسمَّىٰ يقيناً عندَ هؤلاءِ ، سواءً حصلَ بنظرٍ مثلِ ما ذكرناهُ ، أوْ حصلَ بحسٍّ أوْ بغريزةِ العقلِ ؛ كالعلْمِ باستحالةِ حادثٍ بلا سببٍ ، أوْ بتواترٍ ؛ كالعلْمِ بوجودِ مكَّةَ ، أوْ بتجربةٍ ؛ كالعلْمِ بأنَّ المطبوخَ مسهلٌ[1] ، أوْ بدليلٍ كما ذكرْنا .

فشرطُ إطلاقِ هٰذا الاسمِ عندَهُمْ عدمُ الشكِّ ، فكلُّ علْمٍ لا شكَّ فيهِ

(١) **والمطبوخ** هنا : كل دواء طبخ لقصد الإسهال . « إتحاف » (١/ ٤١٣) .

يُسمَّىٰ يقيناً عندَ هؤلاءِ ، وعلىٰ هـٰذا : لا يُوصفُ اليقينُ بالضعْفِ ؛ إذْ لا تفاوتَ في نفيِ الشكِّ .

الاصطلاحُ الثاني اصطلاحُ الفقهاءِ والمتصوِّفَةِ وأكثرِ العلماءِ : وهوَ ألا يلتفتَ فيهِ إلى اعتبارِ التجويزِ والشكِّ ، بلْ إلى استيلائِهِ وغلبتِهِ على القلْبِ ، حتَّىٰ يُقالُ : فلانٌ ضعيفُ اليقينِ بالموتِ معَ أنَّهُ لا يشكُّ فيهِ ، ويُقالُ : فلانٌ قويُّ اليقينِ في إتيانِ الرزْقِ معَ أنَّهُ قدْ يجوزُ أنَّهُ لا يأتيهِ .

فمهما مالتِ النفسُ إلى التصديقِ بشيءٍ ، وغلبَ ذلكَ على القلبِ ، واستولىٰ حتَّىٰ صارَ هوَ المتحكِّمَ والمتصرِّفَ في النفسِ بالتجويزِ والمنعِ . . سُمِّيَ ذلكَ يقيناً .

ولا شكَّ في أنَّ الناسَ مشتركونَ في القطعِ بالموتِ والانفكاكِ عنِ الشكِّ فيهِ ، ولكنْ فيهِمْ مَنْ لا يلتفتُ إليهِ ، ولا إلى الاستعدادِ لهُ ، وكأنَّهُ غيرُ موقنٍ بهِ ، ومنهُمْ مَنِ استولىٰ ذلكَ علىٰ قلبِهِ حتَّى استغرقَ جميعَ همِّهِ بالاستعدادِ لهُ ولمْ يغادرْ فيهِ متَّسعاً لغيرِهِ ، فيعبَّرُ عنْ مثلِ هـٰذهِ الحالةِ بقوَّةِ اليقينِ ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ : (ما رأيتُ يقيناً لا شكَّ فيهِ أشبهَ بشكٍّ لا يقينَ فيهِ مِنَ الموتِ)[1] .

وعلىٰ هـٰذا الاصطلاحِ يُوصفُ اليقينُ بالضعْفِ والقوَّةِ .

ونحْنُ إنَّما أردْنا بقولِنا : (إنَّ مِنْ شأنِ علماءِ الآخرةِ صَرْفَ العنايةِ إلىٰ

---

(١) رواه أبو نعيم عن سلمة بن دينار في « الحلية » (٣/ ٢٣٢) .

تقويةِ اليقينِ) المعنيينِ جميعاً ، وهوَ نفيُ الشكِّ ، ثمَّ تسليطُ اليقينِ على النفسِ حتَّىٰ يكونَ هوَ الغالبَ المتحكِّمَ وهوَ المتصرِّفَ .

فإذا فهمتَ هـٰذا . . علمتَ أنَّ المرادَ مِنْ قولِنا : (إنَّ اليقينَ ينقسمُ ثلاثةَ أقسامٍ) بالقوَّةِ والضعفِ ، والقلَّةِ والكثرةِ ، والخفاءِ والجلاءِ .

فأمَّا بالقوَّةِ والضعفِ : فعلى الاصطلاحِ الثاني ؛ وذلكَ في الغلبةِ والاستيلاءِ على القلبِ ، ودرجاتُ اليقينِ في القوَّةِ والضعفِ لا تتناهىٰ ، وتفاوتُ الخلقِ في استعدادِهِمْ للموتِ بحسَبِ تفاوتِ اليقينِ بهـٰذهِ المعاني .

وأمَّا التفاوتُ بالخفاءِ والجلاءِ : فلا يُنكرُ أيضاً ؛ أمَّا فيما يتطرَّقُ إليهِ التجويزُ . . فلا ينكرُ ؛ أعني الاصطلاحَ الثانيَ ، وفيما انتفى الشكُّ عنهُ أيضاً . . لا سبيلَ إلىٰ إنكارِهِ ؛ فإنَّكَ تدركُ تفرقةً بينَ تصديقِكَ بوجودِ مكَّةَ ووجودِ فَدَكَ مثلاً ، وبينَ تصديقِكَ بوجودِ موسىٰ ووجودِ يوشعَ عليهما السلامُ معَ أنَّكَ لا تشُكُّ في الأمرينِ جميعاً ؛ إذْ مستندُهُما التواترُ جميعاً ، ولكنْ ترىٰ أحدَهُما أجلَىٰ وأوضحَ في قلبِكَ مِنَ الثاني ؛ لأنَّ السببَ في أحدِهما أقوىٰ ، وهوَ كثرةُ المخبرينَ ، وكذلكَ يدركُ الناظرُ هـٰذا في النظرياتِ المعلومةِ بالأدلَّةِ ؛ فإنَّهُ ليسَ وضوحُ ما لاحَ لهُ بدليلٍ واحدٍ كوضوحِ ما لاحَ لهُ بأدلةٍ كثيرةٍ معَ تساويهما في نفيِ الشكِّ ، وهـٰذا قدْ ينكرُهُ المتكلِّمُ الذي يأخذُ العلْمَ مِنَ الكُتبِ والسماعِ ولا يراجعُ نفسَهُ فيما يدركُهُ مِنْ تفاوتِ الأحوالِ .

وأمَّا القلَّةُ والكثرةُ : فذلكَ بكثرةِ متعلقاتِ اليقينِ ؛ كما يُقالُ : فلانٌ أكثرُ علماً ؛ أي : معلوماتُهُ أكثرُ ، ولذلكَ قدْ يكونُ العالِمُ قويَّ اليقينِ في جميعِ ما وردَ الشرعُ بهِ ، وقدْ يكونُ قويَّ اليقينِ في بعضِهِ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فقدْ فهمتُ اليقينَ وقوَّتَهُ وضعفَهُ ، وكثرتَهُ وقلَّتَهُ ، وجلاءَهُ وخفاءَهُ ، بمعنىٰ نفيِ الشكِّ، أو بمعنى الاستيلاءِ على القلبِ ، فما متعلقاتُ اليقينِ ومجاريهِ ، وفي ماذا يُطلبُ اليقينُ ؟ فإنِّي ما لمْ أعرفْ ما يُطلبُ فيهِ اليقينُ . . لمْ أقدرْ علىٰ طلبِهِ .

فاعلمْ : أنَّ جميعَ ما وردَ بهِ الأنبياءُ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِمْ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ هوَ مِنْ مجاري اليقينِ ؛ فإنَّ اليقينَ عبارةٌ عنْ معرفةٍ مخصوصةٍ ، ومتعلقَهُ المعلوماتُ التي وردتْ بها الشرائعُ ، فلا مطمعَ في إحصائِها ، ولكنِّي أشيرُ إلىٰ بعضِها وهيَ أمهاتُها :

فمنْ ذلكَ التوحيدُ : وهوَ أنْ يرى الأشياءَ كلَّها مِنْ مسبِّبِ الأسبابِ ، ولا يلتفتَ إلى الوسائطِ ، بلْ يرى الوسائطَ مسخرةً لا حكمَ لها ، فالمصدِّقُ بهـٰذا مؤمنٌ ، فإنِ انتفىٰ عنْ قلبِهِ معَ الإيمانِ إمكانُ الشكِّ . . فهوَ موقنٌ بأحدِ المعنيينِ ، فإنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ معَ الإيمانِ غلبةً أزالَ عنهُ الغضبَ على الوسائطِ ، والرضا عنهُمْ والشكرَ لهمْ ، ونزَّلَ الوسائطَ في قلبِهِ منزلةَ القلمِ واليدِ في حقِّ المنعمِ بالتوقيعِ ، فإنَّهُ لا يشكرُ القلمَ ولا اليدَ ولا يغضبُ عليهما ، بلْ يراهما آلتينِ مسخَّرتينِ وواسطتينِ . . فقدْ صارَ موقناً بالمعنى

الثاني ، وهوَ الأشرفُ ، وهوَ ثمرةُ اليقينِ الأوَّلِ وروحُهُ وفائدتُهُ .

ومهما تحقَّقَ أنَّ الشمسَ والقمرَ والنجومَ والجمادَ والنباتَ والحيوانَ وكلَّ مخلوقٍ فهيَ مسخراتٌ بأمرِهِ حسَبَ تسخُّرِ القلمِ في يدِ الكاتبِ ، وأنَّ القدرةَ الأزليَّةَ هيَ المصدرُ للكلِّ . . استولىٰ علىٰ قلبِهِ غلبةُ التوكُّلِ والرضا والتسليمُ[1] ، وصارَ موقناً بريئاً مِنَ الغضبِ والحقدِ والحسدِ وسوءِ الخلقِ ، فهـٰذا أحدُ أبوابِ اليقينِ .

ومِنْ ذلكَ الثقةُ بضمانِ اللهِ سبحانَهُ بالرزقِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ، واليقينُ بأنَّ ذلكَ يأتيهِ ، وأنَّ ما قُدِّرَ لهُ سينساقُ إليهِ ، ومهما غلبَ ذلكَ علىٰ قلبِهِ . . كانَ مجمِلاً في الطلبِ ، ولمْ يشتدَّ حرصُهُ وشرهُهُ وتأسُّفُهُ علىٰ ما يفوتُهُ ، وأثمرَ هـٰذا اليقينُ أيضاً جملةً مِنَ الطاعاتِ والأخلاقِ الحميدةِ .

ومِنْ ذلكَ أنْ يغلبَ علىٰ قلبِهِ أنَّ مَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً . . يرَهُ ، ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً . . يرَهُ : وهوَ اليقينُ بالثوابِ والعقابِ ، حتَّىٰ يرىٰ نسبةَ الطاعاتِ إلى الثوابِ كنسبةِ الخبزِ إلى الشبعِ ، ونسبةَ المعاصي إلى العقابِ كنسبةِ السمومِ والأفاعي إلى الهلاكِ ، فكما يحرِصُ على التحصيلِ للخبزِ طلباً للشبعِ فيحفظُ قليلَهُ وكثيرَهُ . . فكذلكَ يحرِصُ على الطاعاتِ كلِّها قليلِها وكثيرِها ، وكما يتجنَّبُ قليلَ السمومِ وكثيرَها . . فكذلكَ يجتنبُ

---

(١) وهـٰذه الثلاثة من مقامات اليقين التسعة علىٰ ما يأتي بيانها في مواضعها .

المعاصيَ ؛ قليلَها وكثيرَها ، وصغيرَها وكبيرَها .

واليقينُ بالمعنى الأوَّلِ قدْ يوجدُ لعمومِ المؤمنينَ ، أمَّا بالمعنى الثاني . . فيختصُّ بهِ المقربونَ .

وثمرةُ هٰذا اليقينِ : صدْقُ المراقبةِ في الحركاتِ والسكناتِ والخطراتِ ، والمبالغةُ في التقوىٰ ، والاحترازُ عنِ كلِّ السيئاتِ ، وكلَّما كانَ اليقينُ أغلبَ . . كانَ الاحترازُ أشدَّ والتشمُّرُ أبلغَ .

ومِنْ ذلكَ اليقينُ بأنَّ اللهَ تعالىٰ مطلعٌ عليكَ في كلِّ حالٍ ، ومشاهدٌ لهواجسِ ضميرِكَ وخفايا خواطرِكَ وفكرِكَ : وهٰذا متيقَّنٌ عندَ كلِّ مؤمنٍ بالمعنى الأولِ ، وهوَ عدمُ الشكِّ ، وأمَّا بالمعنى الثاني ـ وهوَ المقصودُ ـ فهوَ عزيزٌ يختصُّ بهِ الصدِّيقونَ .

وثمرتُهُ : أنْ يكونَ الإنسانُ في خلوتِهِ متأدباً في جميعِ أحوالِهِ وأعمالِهِ ؛ كالجالسِ بمشهَدِ ملكٍ معظَّمٍ ينظرُ إليهِ ، فإنَّه لا يزالُ مطرقاً متأدِّباً في جميعِ أعمالِهِ ، متماسكاً محترزاً عنْ كلِّ حركةٍ تخالفُ هيئةَ الأدبِ ، ويكونُ في فكرتِهِ الباطنةِ كهوَ في أعمالِهِ الظاهرةِ[1] ؛ إذْ يتحقَّقُ أنَّ اللهَ تعالىٰ مطلعٌ علىٰ سريرتِهِ كما يطلعُ الخلقُ علىٰ ظاهرِهِ، فتكونُ مبالغتُهُ في عمارةِ باطنِهِ وتطهيرِهِ وتزيينِهِ لعينِ اللهِ تعالىٰ الكالئَةِ أشدَّ مِنْ مبالغتِهِ في تزيينِ ظاهرِهِ لسائرِ الناسِ .

---

(١) أي : تكون أعماله الظاهرة مساوية لأعماله الباطنة في صدق الإخلاص والخضوع للمولىٰ بحيث لا يميز أحدهما عن الآخر . « إتحاف » (١/ ٤١٨) .

وهـٰذا المقامُ في اليقينِ يورثُ الحياءَ والخوفَ والانكسارَ ، والذلَّ والاستكانةَ والخضوعَ ، وجملةً منَ الأخلاقِ المحمودةِ ، وهـٰذهِ الأخلاقُ تورثُ أنواعاً مِنَ الطاعاتِ رفيعةً .

فاليقينُ في كلِّ بابٍ مِنْ هـٰذهِ الأبوابِ مثلُ الشجرةِ ، وهـٰذهِ الأخلاقُ في القلبِ مثلُ الأغصانِ المتفرِّعةِ منها ، وهـٰذهِ الأعمالُ والطاعاتُ الصادرةُ مِنَ الأخلاقِ كالثمارِ والأنوارِ المتفرِّعةِ مِنَ الأغصانِ ، فاليقينُ هوَ الأصلُ والأساسُ ، ولهُ مجارٍ وأبوابٌ أكثرُ ممَّا عدَّدْناهُ ، وسيأتي ذلكَ في ربعِ المنجياتِ ، وهـٰذا القدرُ كافٍ في تفهيمِ معنى اللفظِ الآنَ .

ومنها : أنْ يكونَ حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً : يظهرُ أثرُ الخشيةِ علىٰ هيئتِهِ وكسوتِهِ[1] ، وسيرتِهِ ، وحركتِهِ وسكونِهِ ، ونطقِهِ وسكوتِهِ ، لا ينظرُ إليهِ ناظرٌ إلا وكانَ نظرُهُ مذكِّراً للهِ تعالىٰ ، وكانتْ صورتُهُ دليلاً علىٰ عملِهِ ، فالجوادُ عينُهُ فِرارُهُ[2] ، فعلماءُ الآخرةِ يُعرفونَ بسيماهُمْ في السكينةِ والذلَّةِ والتواضعِ .

---

(١) بألا تكون من ثياب الشهرة ، ولا رفيعة الأثمان ، ولا من دقِّ الثياب ؛ فإن كل ذلك ليست من ثياب علماء الآخرة . « إتحاف » (١/ ٤١٨) .

(٢) مثلٌ يضرب لمن يدل ظاهره علىٰ باطنه ، **والفرار** ـ بتثليث الفاء ـ : النظر في أسنان الدابة أو في أوصافها لتعرف .

وقدْ قيلَ : ما ألبسَ اللهُ تعالىٰ عبداً لِبْسةً أحسنَ مِنْ خُشوعٍ في سكينةٍ ، فهيَ لِبسةُ الأنبياءِ ، وسِيما الصالحينَ والصدِّيقينَ والعلماءِ .

فأمَّا التهافتُ في الكلامِ والتشدُّقُ ، والاستغراقُ في الضحكِ ، والحدَّةُ في الحركةِ والنطقِ[1] . . فكلُّ ذلكَ مِنَ آثارِ البطرِ ، والأمنِ والغفلةِ عَنْ عظيمِ عقابِ اللهِ تعالىٰ وشديدِ سخطِهِ ، وهوَ دأبُ أبناءِ الدنيا الغافلينَ عَنِ اللهِ دونَ العلماءِ بهِ .

وهٰذا لأنَّ العلماءَ ثلاثةٌ كما قالَ سهلٌ التُّسْتَريُّ رحمهُ اللهُ : (عالمٌ بأمرِ اللهِ لا بأيامِ اللهِ ؛ وهُمُ المُفْتُونَ في الحلالِ والحرامِ ، وهٰذا العلمُ لا يورثُ الخشيةَ ، وعالمٌ باللهِ لا بأمرِ اللهِ ولا بأيامِ اللهِ ؛ وهُمْ عمومُ المؤمنينَ ، وعالمٌ باللهِ وبأيامِ اللهِ وبأمرِ اللهِ ؛ وهُمُ الصدِّيقونَ)[2] ، والخشيةُ والخشوعُ إنَّما تغلبُ عليهِمْ .

وأرادَ بأيامِ اللهِ أنواعَ عقوباتِهِ الغامضةِ ونعمِهِ الباطنةِ التي أفاضَها على القرونِ السالفةِ واللاحقةِ .

فمَنْ أحاطَ علمُهُ بذلكَ . . عَظُمَ خوفُهُ وظَهَرَ خشوعُهُ .

قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (تعلَّموا العلمَ ، وتعلَّموا للعلمِ السكينةَ والوقارَ والحلمَ ، وتواضعُوا لمَنْ تتعلَّمونَ منهُ ، وليتواضعْ لكُمْ مَنْ يتعلَّمُ منكُمْ ،

---

(١) **الحدَّة** : العجلة .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤٠) بنحوه .

ولا تكونوا مِنْ جبابرةِ العلماءِ ، فلا يقومُ علمُكُمْ بجهلِكُمْ)[1] .

ويقالُ : ما آتى اللهُ عبداً علماً إلا آتاهُ معَهُ حلماً وتواضعاً وحسنَ خلقٍ ورفقاً ، فذلكَ هوَ العلمُ النافعُ[2] .

وفي الأثرِ : (مَنْ آتاهُ اللهُ علماً وزهداً وتواضعاً وحسنَ خلقٍ . . فهوَ إمامُ المتقينَ)[3] .

وفي الخبرِ : « إنَّ مِنْ خيارِ أمَّتي قوماً يضحكونَ جهراً مِن سَعَةِ رحمةِ اللهِ ، ويبكون سِرّاً مِنْ خوفِ عذابِهِ ، أبدانُهُمْ في الأرضِ وقلوبُهُمْ في السماءِ ، أرواحُهُمْ في الدنيا وعقولُهُمْ في الآخرةِ ، يتمشَّونَ بالسكينةِ ، ويتقرَّبُونَ بالوسيلةِ »[4] .

وقالَ الحسنُ : (الحلْمُ وزيرُ العلمِ ، والرفْقُ أبوهُ ، والتواضعُ سِرْبالُهُ)[5] .

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (مَنْ طلبَ الرئاسةَ بالعلمِ . . فتقرَّبْ إلى اللهِ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٩٧) ، وكذا في « قوت القلوب » (١/ ١٤٠) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٤٢٠) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤١) وأتبعه بالأثر الآتي ليؤكد معناه .

(٣) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١/ ٤٢٠) : (هكذا أورده صاحب « القوت » ، وتبعه المصنف ، ولم يتعرض له العراقي ، ولا وجدته في غير كتاب « القوت ») .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ١٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٤٩) .

(٥) قوت القلوب (١/ ١٤١) .

تعالىٰ ببغضِهِ ؛ فإنَّهُ مقيتٌ في السماءِ والأرضِ)[1] .

ورُوِيَ في الإسرائيلياتِ : أنَّ حكيماً صنَّفَ ثلاثَ مئةٍ وستينَ مصحفاً في الحكمةِ حتَّىٰ وُصِفَ بالحكيمِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِمْ : قلْ لفلانٍ : ملأتَ الأرضَ نفاقاً ولمْ تردني بشيءٍ مِنْ ذلكَ ، وإنِّي لا أقبلُ مِنْ نفاقِكَ شيئاً ، فندمَ الرجلُ وتركَ ذلكَ ، وخالطَ العامَّةَ ، ومشىٰ في الأسواقِ ، وواكلَ بني إسرائيل ، وتواضعَ في نفسِهِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِمْ : قلْ لهُ : الآنَ وافقتَ رضائي[2] .

وحكَى الأوزاعيُّ رحمهُ اللهُ عنْ بلالِ بنِ سعدٍ أنَّهُ كانَ يقولُ : (ينظرُ أحدُكُمْ إلى الشرطيِّ فيستعيذُ باللهِ منهُ ، وينظرُ إلىٰ علماءِ الدنيا المتصنِّعينَ للخلقِ المتشوِّفينَ إلى الرئاسةِ فلا يمقتُهُمْ، وهُمْ أحقُّ بالمقْتِ مِنْ ذلكَ الشرطيِّ)[3] .

ورُوِيَ أنَّهُ قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ قالَ : « اجتنابُ المحارمِ ، ولا يزالُ فُوكَ رَطباً مِنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ » ، قيلَ : فأيُّ الأصحابِ خيرٌ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صاحبٌ إنْ ذَكرتَ . . أعانَكَ ، وإنْ نسيتَ . . ذَكَّرَكَ » ، قيلَ : فأيُّ الأصحابِ شرٌّ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صاحبٌ إنْ نسيتَ . . لمْ يذكرْكَ ، وإنْ ذكرتَ . . لمْ يُعِنْكَ » ، قيلَ : فأيُّ الناسِ أعلمُ ؟ قالَ : « أشدُّهُم للهِ خشيةً » ، قالوا : فأخبرنا بخيارِنا . .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤١) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٤١) ، وأصله في « الحلية » (٥/ ٢٣٧) .
(٣) قوت القلوب (١/ ١٤١) .

نجالسْهُمْ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الذين إذا رُؤوا . . ذُكِرَ اللهُ تعالىٰ » ، قالوا : فأيُّ الناسِ شرٌّ ؟ قالَ : « اللهُمَّ ؛ غَفْراً » ، قالوا : أخبرْنا يا رسولَ الله ، قالَ : « العلماءُ إذا فسدوا »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أكثرَ الناسِ أماناً يومَ القيامةِ أكثرُهُمْ فِكراً في الدنيا ، وأكثرَ الناسِ ضحكاً في الآخرةِ أكثرُهم بكاءً في الدنيا ، وأشدَّ الناسِ فرحاً في الآخرةِ أطولُهُمْ حزناً في الدنيا »[2] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ في خطبتِهِ : (ذمَّتِي رهينةٌ وأنا بهِ زعيمٌ ، إنَّهُ لا يهيجُ على التقوىٰ زرعُ قومٍ ، ولا يظمَأُ على الهدىٰ سِنْخُ أصلٍ ، وإنَّ أجهلَ الناسِ مَنْ لا يعرفُ قدْرَهُ ، وإنَّ أبغضَ الخلْقِ إلى اللهِ تعالىٰ رجلٌ قَمَشَ علماً أغارَ بهِ في أغباشِ الفتنةِ ، سمَّاه أشباهٌ لهُ مِنَ الناسِ وأرذالُهُمْ عالماً ، ولمْ يُعْنَ في العلْمِ يوماً سالماً ، بكَّرَ فاستكثرَ ، فما قلَّ منهُ خيرٌ ممَّا كَثُرَ ، حتَّىٰ إذا ارتوىٰ مِنْ ماءٍ آجنٍ ، وأكثرَ مِنْ غيرِ طائلٍ . . جلسَ للناسِ مفتياً لتخليصِ ما التبسَ علىٰ غيرِهِ ، فإنْ نزلتْ بهِ إحدى المهمَّاتِ . . هيَّأَ حشْوَ الرأيِ مِنْ رأيِهِ ، فهوَ مِنْ قطْعِ الشبهاتِ في مثلِ غزْلِ العنكبوتِ ، لا يدري أخطأَ أمْ أصابَ ، ركَّابُ جهالاتٍ ، خبَّاطُ عشواتٍ ، لا يعتذرُ ممَّا لا يعلمُ

---

(١) رواه صاحب « القوت » (١/١٤٢) قال : (وقد روينا حديثاً حسناً مقطوعاً ، عن سفيان ، عن مالك بن مغول قال . . .) وذكره . انظر « الإتحاف » (١/٤٢٢) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٩٣) بنحوه ، ولفظ المصنف عند صاحب « القوت » (١/١٥٢) .

فيسلَمُ ، ولا يعضُّ على العلْمِ بضرسٍ قاطعٍ فيغنمُ ، تبكي منهُ الدماءُ ، وتُستحلُّ بقضائِهِ الفروجُ الحرامُ ، لا مَلِيءٌ واللهِ بإصدارِ ما وردَ عليهِ ، ولا هوَ أهلٌ لما فُوِّضَ إليهِ ، أولئكَ الذينَ حلَّتْ عليهمُ المَثُلاتُ ، وحقَّتْ عليهِمُ النياحةُ والبكاءُ أيامَ حياةِ الدنيا)[1] .

وقالَ عليٌّ أيضاً رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا سمعتُمُ العلمَ . . فاكظِمُوا عليهِ ولا تخلِطُوهُ بهزْلٍ فتمجَّهُ القلوبُ)[2] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (العالمُ إذا ضَحِكَ ضَحْكَةً . . مَجَّ مِنَ العلمِ مَجَّةً)[3] .

وقيلَ : (إذا جمعَ المعلِّمُ ثلاثاً . . تمَّتِ النعمةُ بهِ على المتعلِّمِ : الصبرَ ، والتواضعَ ، وحسنَ الخلقِ ، وإذا جمعَ المتعلِّمُ ثلاثاً . . تمتِ النعمةُ بهِ على المعلِّمِ : العقلَ ، والأدبَ ، وحسنَ الفهمِ)[4] .

وعلى الجملةِ : فالأخلاقُ التي وردَ بها القرآنُ لا ينفكُّ عنها علماءُ

---

(١) رواه وكيع في « أخبار القضاة » (١/ ٣٢) ، وابن قتيبة في « عيون الأخبار » (١/ ٦٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٥٠٤) كلهم بنحوه ، وهو في « القوت » (١/ ١٤٢) ، **ويهيج** : يبس ويصفر ، **والسِّنْخ** : الأصل من كل شيء ، **وقمشَ** : جَمَعَ ، **وأغباش** : جمع غَبْش ، وهي الظلمة آخر الليل .

(٢) رواه البيهقي في « المدخل » (٣٨٨) ، **وتمجّه** : تلفظه وتأباه .

(٣) رواه الدارمي في « سننه » (٦٠٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٣٣) عن علي بن حسين رحمه الله ، ونسبه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٩٤٠) لسيدنا علي من تتمة القول السابق .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٤٥) .

الآخرةِ ؛ لأنَّهمْ يتعلمونَ القرآنَ للعملِ لا للرئاسةِ .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : (لقدْ عشْنا برهةً مِنَ الدهرِ وإنَّ أحدَنا يُؤْتى الإيمانَ قبلَ القرآنِ ، وتَنزِلُ السُّورةُ فيتعلَّمُ حلالَها وحرامَها ، وآمرَها وزاجرَها ، وما ينبغي أنْ يقفَ عندَهُ منها ، ولقدْ رأيتُ رجالاً يُؤتىٰ أحدُهُمُ القرآنَ قبلَ الإيمانِ ، فيقرأُ ما بينَ فاتحتِهِ إلىٰ خاتمتِهِ لا يدري ما آمرُهُ وما زاجرُهُ ، وما ينبغي أنْ يقفَ عندَهُ ، يَنثرُهُ نثْرَ الدَّقَلِ)[1] .

وفي خبرٍ آخرَ بمثلِ معناهُ : (كنَّا ـ أصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ أوتينا الإيمانَ قبلَ القرآنِ ، وسيأتي بعدَكُمْ قومٌ يُؤتَونَ القرآنَ قبلَ الإيمانِ ، يُقيمونَ حروفَهُ ويضيِّعُونَ حدودَهُ ، يقولونَ : قرأْنا فَمَنْ أقرأُ مِنَّا ؟ وعَلِمْنا فَمَنْ أعلمُ منَّا ؟ فذلكَ حظُّهُمْ) ، وفي لفظٍ آخرَ : (أولئكَ شرارُ هـٰذهِ الأمَّةِ)[2] .

وقيلَ : خمسٌ مِنَ الأخلاقِ هيَ مِنْ علاماتِ علماءِ الآخرةِ مفهومةٌ مِنْ خمْسِ آياتٍ مِنْ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ : الخشيةُ ، والخشوعُ ، والتواضعُ ، وحسنُ الخلقِ ، وإيثارُ الآخرةِ على الدنيا وهوَ الزهدُ :

أمَّا الخشيةُ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ .

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ١٢٠) ، الدَّقَل : أردأ التمر .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤٥) ، وأصله عند ابن ماجه (٦١) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣/ ١٢٠) .

وأمَّا الخشوعُ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .

وأمَّا التواضعُ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وأمَّا حسنُ الخلقِ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ .

وأمَّا الزهدُ : فمِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾[1] .

ولمَّا تلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ فقيلَ لهُ : ما هٰذا الشَّرْحُ ؟ فقالَ : « إنَّ النورَ إذا قُذِفَ في القلبِ . . انشرحَ لهُ الصدرُ وانفسحَ » ، قيلَ : فهلْ لذلكَ مِنْ علامةٍ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعمِ ؛ التجافي عَنْ دارِ الغرورِ ، والإنابةُ إلىٰ دارِ الخلودِ ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ نزولِهِ »[2] .

❀ ❀ ❀

ومنها : أنْ يكونَ أكثرُ بحثِهِ عَنْ علْمِ الأعمالِ ، وعمَّا يفسدُها ويشوِّشُ القلوبَ ، ويهيِّجُ الوسواسَ ويثيرُ الشرَّ : فإنَّ أصلَ الدينِ التوقِّي مِنَ الشرِّ ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤٦) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٦٨) .

ولذلكَ قيلَ[1] : [من الهزج]

عَـرَفْـتُ ٱلشَّـرَّ لا لِلشَّـرِّ لَكِـنْ لِتَـوَقِّيـهِ
وَمَـنْ لا يَعْـرِفُ ٱلشَّـرَّ مِـنَ ٱلنَّـاسِ يَقَـعْ فِيـهِ

ولأنَّ الأعمالَ الفعليةَ قريبةٌ ، وأقصاها بلْ أعلاها المواظبةُ علىٰ ذكْرِ اللهِ تعالىٰ بالقلبِ واللسانِ ، وإنَّما الشأنُ في معرفةِ ما يفسدُها ويشوِّشُها ، وهٰذا ممَّا تكثرُ شعبُهُ ويطولُ تفريعُهُ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا يغلبُ مسيسُ الحاجةِ إليهِ ، وتعمُّ بهِ البلوىٰ في سلوكِ طريقِ الآخرةِ .

وأمَّا علماءُ الدنيا : فإنَّهمْ يتبعونَ غرائبَ التفريعاتِ في الحكوماتِ والأقضيةِ ، ويَتْعبونَ في وضعِ صورٍ تنقضي الدهورُ ولا تقعُ أبداً ، وإنْ وقعتْ . . فإنَّما تقعُ لغيرِهِمْ لا لهُمْ ، وإذا وقعتْ . . كانَ في القائمينَ بها كثرةٌ ، ويتركونَ ما يلازمُهُمْ ويتكرَّرُ عليهِمْ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ ، في خواطرِهِمْ ووساوسِهِمْ وأعمالِهِمْ .

وما أبعدَ عنِ السعادةِ مَنْ باعَ مهمَّ نفسِهِ اللازمَ بمهمِّ غيرِهِ النادرِ ؛ إيثاراً للقبولِ والتقرُّبِ مِنَ الخلقِ على القرْبِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وشَرَهاً في أنْ يسمِّيَهُ البطَّالونَ مِنْ أبناءِ الدنيا فاضلاً محقِّقاً عالماً بالدقائقِ !

وجزاؤُهُ مِنَ اللهِ ألاّ ينتفعَ في الدنيا بقبولِ الخلْقِ ، بلْ يتكدَّرُ عليهِ صفوُهُ بنوائبِ الزمانِ ، ثمَّ يردُ القيامةَ مفْلساً متحسِّراً علىٰ ما يشاهدُهُ مِنْ ربْحِ

---

(١) البيتان لأبي فراس الحمداني في « ديوانه » (ص٣٥٢) .

العاملينَ وفوزِ المقرَّبينَ ، وذلكَ هوَ الخسرانُ المبينُ .

ولقدْ كانَ الحسنُ البصريُّ رحمَهُ اللهُ أشبهَ الناسِ كلاماً بكلامِ الأنبياءِ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ ، وأقربَهُمْ هَدْياً مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ[1] ، اتفقتِ الكلمةُ في حقِّهِ علىٰ ذلكَ ، وكانَ أكثرُ كلامِهِ في خواطرِ القلوبِ ، وفسادِ الأعمالِ ، ووساوسِ النفوسِ ، والصفاتِ الخفيَّةِ الغامضةِ مِنْ شهواتِ النفسِ .

وقدْ قيلَ لهُ : يا أبا سعيدٍ ؛ إنَّكَ تتكلَّمُ بكلامٍ لا يُسمعُ مِنْ غيرِكَ ، فمِنْ أينَ أخذتَهُ ؟ قالَ : مِنْ حذيفةَ بنِ اليمانِ[2] .

وقيلَ لحذيفةَ : نراكَ تتكلَّمُ بكلامٍ لا يُسمعُ مِنْ غيرِكَ مِنَ الصحابةِ ، فمنْ أينَ أخذتَهُ ؟ قالَ : خصَّني بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، كانَ الناسُ يسْألونَهُ عنِ الخيرِ وكنتُ أسْأَلُهُ عنِ الشرِّ مخافةَ أنْ أقعَ فيهِ ، وعَلِمتُ أنَّ الخيرَ لا يسبقني[3] .

وقالَ مرَّةً : فعلمتُ أنَّ مَنْ لا يعرفُ الشرَّ لا يعرفُ الخيرَ ، وفي لفظٍ آخرَ : كانَ الناسُ يقولونَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما لِمَنْ عملَ كذا وكذا ؟ يسألونَهُ عنْ فضائلِ الأعمالِ ، وكنتُ أقولُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما يفسدُ كذا وكذا ؟ فلما رآني أسألُهُ عنْ آفاتِ الأعمالِ . . خصَّني بهـٰذا العلمِ .

---

(١) هدْياً : سيرةً وطريقاً ؛ يقال : هُدِي هدْيَ فلان ؛ أي : سار سيرته .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٥٠) .

(٣) رواه البخاري (٣٦٠٦) ، ومسلم (١٨٤٧) بأصله ، وألفاظه هنا وردت بسياقها في « القوت » (١/ ١٥٠) .

وكانَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ أيضاً قدْ خُصَّ بعلْمِ المنافقينَ ، وأُفرِدَ بمعرفةِ عِلْمِ النفاقِ وأسبابِهِ ودقائقِ الفتنِ ، فكانَ عمرُ وعثمانُ وأكابرُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ يسألونَهُ عنِ الفتنِ العامَّةِ والخاصَّةِ .

وكانَ يُسألُ عنِ المنافقينَ فيخبرُ بأعدادِ مَنْ بقيَ منهُمْ ، ولا يخبرُ بأساميهِمْ[1] .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ يسألُهُ عنْ نفسِهِ : هلْ يعلمُ بهِ شيئاً مِنَ النفاقِ ؟ فبرَّأَهُ مِنْ ذلكَ[2] .

وكانَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ إذا دُعيَ إلىٰ جنازةٍ ليصلِّيَ عليها . . نظرَ : فإنْ حضرَ حذيفةُ . . صلَّىٰ عليها ، وإلا . . تركَ .

وكانَ يُسمَّىٰ : صاحبَ السِّرِّ[3] .

فالعنايةُ بمقاماتِ القلبِ وأحوالِهِ هوَ دأبُ علماءِ الآخرةِ ؛ لأنَّ القلبَ هوَ الساعي إلىٰ قرْبِ اللهِ تعالىٰ .

وقدْ صارَ هـٰذا الفنُّ غريباً مندرساً ، وإذا تعرَّضَ العالمُ لشيءٍ منهُ . . استُغربَ واستُبعدَ ، وقيلَ : هـٰذا تزويقُ المذكِّرينَ ، فأينَ التحقيقُ ؟ ويرونَ التحقيقَ في دقائقِ المجادلاتِ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٥٠) .

(٢) رواه وكيع في « الزهد » (٤٧٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٢/ ٢٧٦) بنحوه .

(٣) رواه البخاري (٣٧٤٣) .

ولقدْ صدقَ مَنْ قالَ[1] : [من البسيط]

اَلطُّرْقُ شَتَّىٰ وَطُرْقُ ٱلْحَقِّ مُفْرَدَةٌ وَٱلسَّالِكُونَ طَرِيقَ ٱلْحَقِّ أَفْرَادُ
لاَ يُعْرَفُونَ وَلاَ تُدْرَىٰ مَقَاصِدُهُمْ فَهُمْ عَلَىٰ مَهَلٍ يَمْشُونَ قُصَّادُ
وَٱلنَّاسُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ فَجُلُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ ٱلْحَقِّ رُقَّادُ

وعلى الجملةِ : فلا يميلُ أكثرُ الخلْقِ إلا إلى الأسهلِ والأوفقِ لطباعِهِمْ ؛ فإنَّ الحقَّ مرٌّ ، والوقوفَ عليهِ صعبٌ ، وإدراكَهُ شديدٌ ، وطريقَهُ مستوعرٌ ، ولا سيما معرفةُ صفاتِ القلبِ وتطهيرِهِ عنِ الأخلاقِ المذمومةِ ؛ فإنَّ ذلكَ نزْعٌ للروحِ على الدوامِ ، وصاحبُهُ يُنزَّلُ منزلةَ شاربِ الدواءِ يصبرُ علىٰ مرارتِهِ رجاءَ الشفاءِ ، ويُنزَّلُ منزلةَ مَنْ جعلَ مدَّةَ العمرِ صومَهُ ، فهوَ يقاسي الشدائدَ ليكونَ فطرُهُ عندَ الموتِ ، ومتىٰ تكثرُ الرغبةُ في مثلِ هـٰذا الطريقِ ؟!

ولذلكَ قيلَ : إنَّهُ كانَ في البصرةِ مئةٌ وعشرونَ متكلِّماً في الوعظِ والتذكيرِ ، ولمْ يكنْ مَنْ يتكلَّمُ في علمِ اليقينِ وأحوالِ القلوبِ وصفاتِ الباطنِ إلا ثلاثةٌ : سهلٌ التُّسْتَريُّ ، والصُّبيحيُّ ، وعبدُ الرحيمِ[2] ، وكانَ يجلسُ إلىٰ أولئكَ الخلقُ الكثيرُ الذي لا يُحصىٰ ، وإلىٰ هؤلاءِ عددٌ يسيرٌ قلَّما يجاوزُ العشرةَ ؛ لأنَّ النفيسَ العزيزَ لا يصلحُ إلا لأهلِ الخصوصِ ، وما يُبذلُ للعمومِ فأمرُهُ قريبٌ .

(١) هو عبد الواحد بن زيد ، كما في « القوت » (١/ ١٥٣) ، و« تاريخ بغداد » (٥/ ٢٣١) .
(٢) ابن يحيى الأسود ، والنص في « قوت القلوب » (١/ ١٥٦) .

ومنها : أنْ يكونَ اعتمادُهُ في علومِهِ علىٰ بصيرتِهِ وإدراكِهِ بصفاءِ قلبِهِ ، لا على الصحُفِ والكتبِ ، ولا علىٰ تقليدِ ما يسمعُهُ مِنْ غيرِهِ : وإنَّما المقلَّدُ صاحبُ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ فيما أمرَ بهِ وقالَهُ ، وإنَّما يُقلِّدُ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ مِنْ حيثُ إنَّ فعلَهُمْ يدلُّ علىٰ سماعِهِمْ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

ثمَّ إذا قلَّدَ صاحبَ الشرعِ صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ في تلقي أقوالِهِ وأفعالِهِ بالقبولِ . . فينبغي أنْ يكونَ حريصاً علىٰ فهْمِ أسرارِهِ ؛ فإنَّ المقلِّدَ إنَّما يفعلُ الفعلَ لأنَّ صاحبَ الشرعِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فعلَهُ ، وفعلُهُ لا بدَّ وأنْ يكونَ لسرٍّ فيهِ ، فينبغي أنْ يكونَ شديدَ البحثِ عنْ أسرارِ الأعمالِ والأقوالِ ؛ فإنَّهُ إنِ اكتفىٰ بحفظِ ما يُقالُ . . كانَ وعاءً للعلمِ ولمْ يكنْ عالماً ، ولذلكَ كانَ يُقالُ : فلانٌ مِنْ أوعيةِ العلمِ ، وكانَ لا يُسمَّىٰ عالماً إذا كانَ شأنَهُ الحفظُ مِنْ غيرِ اطلاعٍ على الحِكَمِ والأسرارِ .

ومَنْ كُشِفَ عنْ قلبِهِ الغطاءُ واستنارَ بنورِ الهدايةِ . . صارَ في نفسِهِ متبوعاً مقلَّداً ، فلا ينبغي أنْ يقلِّدَ غيرَهُ[1] ، ولذلكَ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (ما مِنْ أحدٍ إلا يُؤخذُ مِنْ علمِهِ ويُتْرَكُ إلا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) لأن الفقيه في العلماء هو الفقيه بفقه علمه وقلبه ، لا بحديث سواه ، ومثل العالم بعلم غيره مثل الواصف لأحوال الصالحين العارف بمقامات الصديقين ولا حال له ولا مقام . . . ، فمثله كما قال تعالىٰ : ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ . « إتحاف » (١/ ٤٣٢) .

وسلَّمَ)[1] وقدْ كانَ تعلَّمَ مِنْ زيدِ بنِ ثابتٍ الفقهَ ، وقرأَ علىٰ أبَيِّ بنِ كعبٍ ، ثمَّ خالفَهُما في الفقهِ والقراءةِ جميعاً .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ما جاءنا عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . قبلناهُ على الرأسِ والعينِ ، وما جاءَنا عنِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ . . فنأخذُ منهُ ونتركُ ، وما جاءَنا عنِ التابعينَ . . فهُمْ رجالٌ ونحنُ رجالٌ)[2] .

وإنَّما فضلَ الصحابةُ لمشاهدتِهِمْ قرائنَ أحوالِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، واعتلاقِ قلوبِهِمْ أموراً أُدركتْ بالقرائنِ ، فسدَّدَهُمْ ذلكَ إلى الصوابِ مِنْ حيثُ لا يدخلُ في الروايةِ والعبارةِ ؛ إذْ فاضَ عليهِمْ مِنْ نورِ النبوَّةِ ما يحرسُهُمْ في الأكثرِ عنِ الخطأِ .

وإذا كانَ الاعتمادُ على المسموعِ مِنَ الغيرِ تقليداً غيرَ مرضيٍّ . . فالاعتمادُ على الكُتبِ والتصانيفِ أبعدُ ، بلِ الكتبُ والتصانيفُ محدَثَةٌ لمْ يكنْ شيءٌ منها في زمنِ الصحابةِ وصدْرِ التابعينَ ، وإنَّما حدثتْ بعدَ سنةِ مئةٍ وعشرينَ مِنَ الهجرةِ وبعدَ وفاةِ جميعِ الصحابةِ وجلَّةِ التابعينَ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، وبعدَ وفاةِ سعيدِ بنِ المسيَّبِ والحسنِ وخيارِ التابعينَ ، بلْ كانَ الأوَّلونَ يكرهونَ كَتْبَ الأحاديثِ وتصنيفَ الكتبِ ؛ لئلا يشتغلَ الناسُ بها عنِ الحفظِ وعنِ القرآنِ وعنِ التدبُّرِ والتفكُّرِ ، وقالوا : احفظوا كما كنَّا نحفظُ[3] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/ ٢٦٩) من حديثه مرفوعاً .

(٢) رواه البيهقي في « المدخل » (٢٢) عن أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ بنحوه .

(٣) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٦٣) عن الزهري قوله : (كنا نكره الكتب =

ولذلكَ كَرِهَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ وجماعةٌ مِنَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ تصحيفَ القرآنِ في مصحفٍ ، وقالوا : كيفَ نفعلُ شيئاً لمْ يفعلْهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! وخافوا اتكالَ الناسِ على المصاحفِ ، وقالوا : نتركُ القرآنَ يتلقَّاهُ بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ بالتلقينِ والإقراءِ ؛ ليكونَ هوَ شغلَهُمْ وهَمَّهُمْ ، حتَّىٰ أشارَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ وبقيةُ الصحابةِ بكَتْبِ القرآنِ ؛ خوفاً مِنْ تخاذلِ الناسِ وتكاسلِهِمْ ، وحذراً مِنْ أنْ يقعَ نزاعٌ فلا يوجدَ أصلٌ يُرجعُ إليهِ في كلمةٍ أوْ قراءةٍ مِنَ المتشابهاتِ ، فانشرحَ صدرُ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لذلكَ ، فجمعَ القرآنَ في مصحفٍ واحدٍ(١) .

وكانَ أحمدُ ابنُ حنبلٍ ينكرُ علىٰ مالكٍ تصنيفَهُ « الموطَّأُ » ، ويقولُ : ابتدعَ ما لمْ تفعلْهُ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُمْ(٢) .

وقيلَ : أوَّلُ كتابٍ صُنِّفَ في الإسلامِ كتابُ ابنِ جريجٍ في الآثارِ ، وحروفُ التفاسيرِ عنْ مجاهدٍ وعطاءٍ وأصحابِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمْ بمكَّةَ ، ثمَّ كتابُ مَعْمَرِ بنِ راشدٍ الصنعانيِّ باليمنِ ، جمعَ فيهِ سُنناً منثورةً مبوَّبةً ، ثمَّ كتابُ « الموطأُ » بالمدينةِ لمالكِ بنِ أنسٍ ، ثمَّ جامعُ سفيانَ الثوريِّ(٣) .

= حتىٰ أكرهنا عليه السلطان، فكرهنا أن نمنعه الناس)، وروي أنه كان أول من دوّن العلم.

(١) قوت القلوب (١/ ١٥٩) .

(٢) ولعل هٰذا الإنكار كان في مبادىء أمره ، وإلا . . فقد جمع حديثه بنفسه على المسانيد ، وذلك لما رأى احتياج الناس لذلك . « إتحاف » (١/ ٤٣٤) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٥٩) ، وانظر « فتح الباري » (المقدمة/ ٦) .

ثمَّ في القرْنِ الرابعِ حدثتْ مصنَّفاتُ الكلامِ ، وكَثُرَ الخوضُ في الجدالِ ، والغوصُ في إبطالِ المقالاتِ ، ثمَّ مالَ الناسُ إليهِ وإلى القصصِ والوعظِ بها ، فأخذَ علمُ اليقينِ في الاندراسِ مِنْ ذلكَ الزمانِ ، فصارَ بعدَ ذلكَ يُستغربُ علمُ القلوبِ ، والتفتيشُ عَنْ صفاتِ النفْسِ ومكايدِ الشيطانِ ، وأعرضَ عَنْ ذلكَ إلا الأقلُّونَ ، فصارَ يُسمَّى المجادلُ المتكلِّمُ عالماً ، والقاصُّ المزخرفُ كلامَهُ بالعباراتِ المسجَّعةِ عالماً ، وهـٰذا لأنَّ العوامَّ هُمُ المستمعونَ إليهِمْ ، فكانَ لا يتميَّزُ لهُمْ حقيقةُ العلْمِ عنْ غيرِهِ ، ولمْ تكنْ سيرةُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ وعلومُهُمْ ظاهرةً عندَهُمْ ، حتَّىٰ كانوا يعرفونَ بها مباينةَ هؤلاءِ لهُمْ ، فاستمرَّ عليهِمُ اسمُ العلماءِ ، وتوارثَ اللقبَ خلفٌ عنْ سلفٍ ، وأصبحَ علمُ الآخرةِ مطويّاً ، وغابَ عنهُمُ الفرقُ بينَ العلمِ والكلامِ إلا عنِ الخواصِّ منهُمْ ؛ كانَ إذا قيلَ لهُمْ : فلانٌ أعلمُ أمْ فلانٌ ؟ . . يُقالُ : فلانٌ أكثرُ علماً ، وفلانٌ أكثرُ كلاماً ، فكانَ الخواصُّ يدركونَ الفرْقَ بينَ العلمِ وبينَ القدرةِ على الكلامِ .

هكذا ضَعُفَ الدينُ في قرونٍ سالفةٍ ، فكيفَ الظنُّ بزمانِكَ هـٰذا وقدِ انتهى الأمرُ إلىٰ أنَّ مُظهرَ الإنكارِ يَسْتَهْدِفُ للنسبةِ إلى الجنونِ ؟!

فالأولىٰ أنْ يشتغلَ الإنسانُ بنفسِهِ ويسكتَ .

❁ ❁ ❁

ومنها : أنْ يكونَ شديدَ التوقي مِنْ محدثاتِ الأمورِ وإنِ اتفقَ عليها

الجمهورُ : فلا يغرَّنَّهُ إطباقُ الخلْقِ علىٰ ما أُحدثَ بعدَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ، وليكنْ حريصاً على التفتيشِ عنْ أحوالِ الصحابةِ وسيرتِهِمْ وأعمالِهِمْ ، وما كانَ فيهِ أكثرُ همِّهِمْ : أكانَ في التدريسِ والتصنيفِ والمناظرةِ والقضاءِ والولايةِ وتولِّي الأوقافِ والوصايا ومالِ الأيتامِ ومخالطةِ السلاطينِ ومجاملتِهِمْ في العِشْرةِ ، أمْ كانَ في الخوفِ والحزنِ والتفكُّرِ والمجاهدةِ ومراقبةِ الباطنِ والظاهرِ واجتنابِ دقيقِ الإثمِ وجليلِهِ والحرصِ علىٰ إدراكِ خفايا شهواتِ النفسِ ومكايدِ الشيطانِ ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنْ علومِ الباطنِ ؟

واعلمْ تحقيقاً : أنَّ أعلمَ أهلِ الزمانِ وأقربَهُمْ إلى الحقِّ أشبهُهُمْ بالصحابةِ وأعرفُهُمْ بطريقِ السلفِ ، فمنهُمْ أُخِذَ الدينُ ، ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (خيرُنا أتبعُنا لهـٰذا الدينِ) لمَّا أنْ قيلَ لهُ : خالفتَ فلاناً[1] .

فلا ينبغي أنْ يكترثَ بمخالفةِ أهلِ العصرِ في موافقةِ أهلِ عصرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّ الناسَ رأوا رأياً فيما هُمْ فيهِ لميلِ طباعِهِمْ إليهِ ، ولمْ تسمحْ نفوسُهُمْ بالاعترافِ بأنَّ ذلكَ سببُ الحرمانِ مِنَ الجنةِ ، فادَّعوا أنَّه لا سبيلَ إلى الجنَّةِ سواهُ .

ولذلكَ قالَ الحسنُ : (محدثانِ أُحدثا في الإسلامِ : رجلٌ ذو رأيٍ سوءٍ زعمَ أنَّ الجنَّةَ لمنْ رأىٰ مثلَ رأيِهِ ، ومُتْرَفٌ يعبدُ الدنيا ، لها يغضبُ ولها

---

(١) رواه البزار كما في « البحر الزخار » (٨٧٧) .

يرضىٰ وإيَّاها يطلبُ ، فارفضوهُما إلى النارِ ، إنَّ رجلاً أصبحَ في هـٰذهِ الدنيا بينَ مترفٍ يدعوهُ إلىٰ دنياهُ ، وصاحبِ هوىً يدعوهُ إلىٰ هواهُ ، قدْ عصمَهُ اللهُ تعالىٰ منهما ، يحنُّ إلى السلفِ الصالحِ ، يسألُ عنْ أفعالِهِمْ ويقتصُّ آثارَهمْ . . متعرِّضٌ لأجرٍ عظيمٍ ، فكذلكَ كونوا)[1] .

وقدْ رُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ موقوفاً ومسنداً أنَّهُ قالَ : « إنَّما هما اثنانِ : الكلامُ والهَدْيُ ، فأحسنُ الكلامِ كلامُ اللهِ تعالىٰ ، وأحسنُ الهدْيِ هديُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ألا وإيَّاكمْ ومحدثاتِ الأمورِ ؛ فإنَّ شرَّ الأمورِ محدثاتُها ، إنَّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ ، وإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ ، ألا لا يطولَنَّ عليكُمُ الأمدُ فتقسوَ قُلوبُكُمْ ، ألا كلُّ ما هوَ آتٍ قريبٌ ، ألا إنَّ البعيدَ ما ليسَ بآتٍ »[2] .

وفي خطبةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طُوبىٰ لمَنْ شغلَهُ عيبُهُ عنْ عيوبِ الناسِ ، وأنفقَ مِنْ مالٍ اكتسَبَهُ مِنْ غيرِ معصيةٍ ، وخالطَ أهلَ الفقهِ والحكمةِ ، وجانبَ أهلَ الزللِ والمعصيةِ ، طُوبَىٰ لمَنْ ذَلَّ في نفسِهِ وحسنتْ خليقتُهُ ، وصلحتْ سريرتُهُ ، وعَزَلَ عنِ الناسِ شرَّهُ ، طُوبىٰ لمَنْ عملَ بعلمِهِ وأنفقَ الفضْلَ مِنْ مالِهِ وأمْسَكَ الفضلَ مِنْ قولِهِ ، ووسعتْهُ السنَّةُ ولمْ يعدُها إلىٰ بدعةٍ »[3] .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٦١) .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٩) .

وكانَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : (حُسنُ الهدْيِ في آخرِ الزمانِ خيرٌ مِنْ كثيرٍ مِنَ العملِ)[1] .

وقالَ : (أنتمْ في زمانٍ خيرُكُمْ فيهِ المسارعُ في الأمورِ ، وسيأتي بعدَكُمْ زمانٌ يكونُ خيرُهُمُ المتثبِّتَ المتوقِّفَ لكثرةِ الشبهاتِ)[2] .

وقدْ صدقَ ؛ فمَنْ لمْ يتثبَّتْ في هٰذا الزمانِ ووافقَ الجماهيرَ فيما همْ عليهِ ، وخاضَ فيما خاضوا . . هلكَ كما هلكوا .

وقالَ حذيفةُ : (أعجبُ مِنْ هٰذا أنَّ معروفَكُمُ اليومَ منكرُ زمانٍ قدْ مضىٰ ، وأنَّ منكرَكُمْ اليومَ معروفُ زمانٍ قدْ أتىٰ ، وإنَّكُمْ لا تزالون بخيرٍ ما عرفتمُ الحقَّ ، وكانَ العالمُ فيكُمْ غيرَ مُستخَفٍّ بهِ)[3] .

ولقدْ صدقَ ؛ فإنَّ أكثرَ معروفاتِ هٰذهِ الأعصارِ منكراتٌ في عصرِ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ؛ إذْ مِنْ غررِ المعروفاتِ في زماننا تزيينُ المساجدِ وتنجيدُها ، وإنفاقُ الأموالِ العظيمةِ في دقائقِ عماراتِها ، وفرشُ البُسُطِ الرفيعةِ فيها .

ولقدْ كانَ يُعدُّ فرشُ البواري[4] في المسجدِ بدعةً ، وقيلَ : إنَّهُ مِنْ

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٨٩) بنحوه .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٦١) .

(٣) قوت القلوب (١/ ١٦١) ، وقد رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٠/ ٩١) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه .

(٤) **البواري** : جمع البُوريِّ أو الباریاء أو الباريَّة ؛ وهي الحصير المنسوج من قصب ، فارسية معرّبة .

محدثاتِ الحَجَّاجِ[1] ، فقدْ كانَ الأوَّلونَ قلَّما يجعلونَ بينَهُمْ وبينَ الترابِ حاجزاً[2] .

وكذلكَ الاشتغالُ بدقائقِ الجدَلِ والمناظرةِ مِنْ أجلِّ علومِ أهلِ الزمانِ ، ويزعمونَ أنَّهُ مِنْ أعظمِ القرباتِ ، وقدْ كانَ ذلكَ مِنَ المنكراتِ .

ومِنْ ذلكَ التلحينُ في القرآنِ والأذانِ[3] .

ومِنْ ذلكَ التعسُّفُ في النظافةِ والوسوسةُ في الطهارةِ ، وتقديرُ الأسبابِ البعيدةِ في نجاسةِ الثيابِ ، معَ التساهلِ في حلِّ الأطعمةِ وتحريمِها ، إلىٰ نظائرِ ذلكَ[4] .

ولقدْ صدقَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قالَ : (أنتمُ اليومَ في زمانٍ الهوىٰ فيهِ تابعٌ للعلمِ ، وسيأتي عليكُمْ زمانٌ يكونُ العلمُ فيهِ تابعاً للهوىٰ)[5] .

وكانَ أحمدُ يقولُ : (تركوا العلمَ وأقبلوا على الغرائبِ ، ما أقلَّ الفقهَ فيهِمْ ، واللهُ المستعانُ)[6] .

---

(١) كما روي أن قتادة سجد ، فدخل في عينه قصبة وكان ضريراً ، فقال : لعن الله الحجاج ، ابتدع هٰذه البواري يؤذي بها المصلين . قوت القلوب (١/ ١٧١) .

(٢) ويستحبون السجود عليه تواضعاً لله تعالىٰ وتخشُّعاً وذلاً . « إتحاف » (١/ ٤٣٩) .

(٣) حتىٰ لا يفهم التلاوة ، وحتىٰ تجاوز إعراب القرآن والكلمة ، بمدِّ المقصور وقصر الممدود ، وإدغام المظهر وإظهار المدغم . « إتحاف » (١/ ٤٤٠) .

(٤) انظر « قوت القلوب » (١/ ١٦٣) ، و« الإتحاف » (١/ ٤٤٠) .

(٥) قوت القلوب (١/ ١٦٧) .

(٦) رواه الخطيب في « الكفاية » (٣٨٨) .

وقالَ مالكُ بنُ أنسٍ : (لمْ يكنِ الناسُ فيما مضىٰ يسألونَ عنْ هـٰذهِ الأمورِ كما يسألُ الناسُ اليومَ ، ولمْ يكنِ العلماءُ يقولونَ : حرامٌ ولا حلالٌ ، أدركتُهُمْ يقولونَ : مكروهٌ ومستحبٌ)[1] .

ومعناه : أنَّهمْ كانوا ينظرونَ في دقائقِ الكراهيةِ والاستحبابِ ، فأمَّا الحرامُ . . فكانَ فحشُهُ ظاهراً .

وكانَ هشامُ بنُ عروةَ يقولُ : (لا تسألوهُمُ اليومَ عمَّا أحدثوا ؛ فإنَّهمْ قدْ أعدُّوا لهُ جواباً ، ولكنْ سلوهُمْ عنِ السنَّةِ ؛ فإنَّهمْ لا يعرفونَها)[2] .

وكانَ أبو سليمانَ الدارانيُّ رحمهُ اللهُ يقولُ : (لا ينبغي لمَنْ ألْهمَ شيئاً مِنَ الخيرِ أنْ يعملَهُ حتَّىٰ يسمعَ بهِ في الأثرِ ، فيحمدُ اللهَ تعالىٰ إذْ وافقَ ما في نفسِهِ)[3] .

وإنَّما قالَ هـٰذا لأنَّ ما أُبدِعَ مِنَ الآراءِ قدْ قَرَعَ الأسماعَ وعلِقَ بالقلوبِ ، فربَّما يشوِّشُ صفاءَ القلبِ ، فيُتخيَّلُ بسببِهِ الباطلُ حقّاً ، فيُحتاطُ فيهِ بالاستظهارِ بشهادةِ الآثارِ .

ولهـٰذا لما أحدثَ مروانُ المنبرَ في صلاةِ العيدِ عندَ المصلَّىٰ . . قامَ إليهِ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : يا مروانُ ؛ ما هـٰذهِ البدعةُ ؟ فقالَ : إنَّها ليستْ بدعةً ، إنَّها خيرٌ ممَّا تعلمُ ، إنَّ الناسَ قدْ كثروا ، فأردتُ أنْ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٦٧) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٦٧) .

(٣) رواه عنه ابنُ أبي حاتم في « تفسيره » (١٧٤٥١) ، وهو في « القوت » (١/ ١٦٧) .

يبلغَهُمُ الصوتُ ، فقالَ أبو سعيدٍ : واللهِ ؛ لا تأتونَ بخيرٍ ممَّا أعلمُ أبداً ، ووالله لا صليتُ وراءَكَ اليومَ[١] .

وإنَّما أنكرَ ذلكَ لأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يتوكَّأُ في خطبةِ العيدِ والاستسقاءِ علىٰ قوسٍ أوْ عصاً ، لا على المنبرِ[٢] .

وفي الحديثِ المشهورِ : « مَنْ أحدثَ في ديننا ما ليسَ منهُ . . فهوَ ردٌّ »[٣] .

وفي خبرٍ آخرَ : « مَنْ غَشَّ أمَّتِي . . فعليهِ لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعينَ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وما غشُّ أمَّتِكَ ؟ قالَ : « أنْ يَبتدعَ بدعةً يحمِلُ الناسَ عليها »[٤] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ ملكاً ينادي كلَّ يومٍ : مَنْ خالفَ سنَّةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . لمْ تنلْهُ شفاعتُهُ »[٥] .

ومثالُ الجاني على الدينِ بإبداعِ ما يخالفُ السنَّةَ بالنسبةِ إلىٰ مَنْ يُذْنِبُ ذنباً . . مثالُ مَنْ عصى الملِكَ في قلْبِ دولتِهِ[٦] بالنسبةِ إلىٰ مَنْ خالفَ أمرَهُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٦٨) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٢/ ٢٤) ، وأصل الاتكاء في الخطب عند أبي داوود (١٠٩٦) ، وابن ماجه (١١٠٧) .

(٣) رواه البخاري (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) .

(٤) قوت القلوب (١/ ١٧٤) ، وأصله عند ابن بطة في « الإبانة » (٥١٩) .

(٥) ذكره صاحب « القوت » (١/ ١٧٤) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٤٤٤) .

(٦) أي : في إزاحة مُلكه وهدم مملكته .

في خدمةٍ معيَّنةٍ ، وذلكَ قدْ يُغفَرُ ؛ فأمَّا قلْبُ الدولةِ . . فلا .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (ما تكلَّمَ فيهِ السلفُ . . فالسكوتُ عنهُ جفاءٌ ، وما سكتَ عنهُ السلفُ . . فالكلامُ فيهِ تكلُّفٌ)[1] .

وقالَ آخرُ : (الحقُّ ثقيلٌ ، مَنْ جاوزَهُ . . ظَلَمَ ، ومَنْ قصرَ عنهُ . . عجَزَ ، ومَنْ وقفَ معهُ . . اكتفىٰ)[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عليكُمْ بالنَّمَطِ الأوسطِ الذي يرجعُ إليهِ العالي ، ويرتفعُ إليهِ التالي »[3] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (إنَّ الضلالةَ لها حلاوةٌ في قلوبِ أهلِها .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا ﴾)[4] .

فكلُّ ما أُحدثَ بعدَ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُمْ ممَّا جاوزَ قدْرَ الضرورةِ والحاجةِ . . فهوَ مِنَ اللعبِ واللهوِ .

وحُكِيَ عنْ إبليسَ لعنَهُ اللهُ أنَّهُ بثَّ جنودَهُ في وقتِ الصحابةِ رضيَ اللهُ

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٧٥) .
(٢) قوت القلوب (١/ ١٧٥) .
(٣) رواه ابن أبي شيبة موقوفاً علىٰ علي رضي الله عنه في « المصنف » (٣٥٦٣٩) ، وبلفظ : (خير الناس هـٰذا النمط الأوسط ، يلحق بهم التالي ، ويرجع إليهم العالي) .
(٤) قوت القلوب (١/ ١٧٥) .

عنهُمْ ، فرجعوا إليهِ محسورينَ ، فقالَ : ما شأنُكُمْ ؟ فقالوا : ما رأينا مثلَ هؤلاءِ ؛ ما نصيبُ منهُمْ شيئاً وقدْ أتعبونا ، فقالَ : إنَّكُمْ لا تقدرونَ عليهِمْ ؛ قدْ صحبوا نبيَّهُمْ ، وشهدوا تنزيلَ ربِّهِمْ ، ولكنْ سيأتي بعدَهُمْ قومٌ تنالونَ منهُمْ حاجتكُمْ .

فلما جاءَ التابعونَ . . بثَّ جنودَهُ ، فرجعوا إليهِ منكوسينَ منكسرينَ ، فقالوا : ما رأينا أعجبَ مِنْ هؤلاءِ ؛ نصيبُ منهُمُ الشيءَ بعدَ الشيءِ مِنَ الذنوبِ ، فإذا كانَ آخرُ النهارِ . . أخذوا في الاستغفارِ ، فيبدِّلُ اللهُ سيئاتِهِمْ حسناتٍ ، فقالَ : إنَّكُمْ لنْ تنالوا مِنْ هؤلاءِ شيئاً لصحَّةِ توحيدِهِمْ ، واتباعِهِمْ لسنَّةِ نَبيِّهِمْ ، ولكنْ سيأتي بعدَ هؤلاءِ قومٌ تَقَرُّ أعينُكُمْ بهِمْ ، تلعبونَ بهِمْ لَعِباً ، وتقودونَهُمْ بأزمَّةِ أهوائِهِمْ كيفَ شئتُمْ ، إنِ استغفروا . . لمْ يغفرْ لهُمْ ، ولا يتوبونَ فيبدِّلُ اللهُ سيئاتِهِمْ حسناتٍ .

قالَ : فجاءَ قومٌ بعدَ القرنِ الأوَّلِ ، فبثَّ فيهِمُ الأهواءَ ، وزيَّنَ لهُمُ البدَعَ ، فاستحلُّوها[1] ، واتخذوها ديناً ، لا يستغفرونَ اللهَ منها ، ولا يتوبونَ عنها ، فسلَّطَ عليهِمُ الأعداءَ ، وقادُوهُمْ أينَ شاؤوا[2] .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : مِنْ أينَ عَرَفَ قائلُ هٰذا ما قالَهُ إبليسُ ولمْ يشاهدْ إبليسَ ولا حدَّثَهُ بذلكَ ؟

---

(١) بتشديد اللام من الحلال ، أو تخفيفها من الحلاوة ، وعندها تفتح اللام .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٧٥) .

فاعلمْ : أنَّ أربابَ القلوبِ يُكاشَفونَ بأسرارِ الملكوتِ ؛ تارةً علىٰ سبيلِ الإلهامِ بأنْ يخطرَ لهُمْ علىٰ سبيلِ الورودِ عليهِمْ مِنْ حيثُ لا يعلمونَ ، وتارةً علىٰ سبيلِ الرؤيا الصادقةِ ، وتارةً في اليقظةِ علىٰ سبيلِ كشْفِ المعاني بمشاهدةِ الأمثلةِ كما يكونُ في المنامِ ، وهـٰذا أعلى الدرجاتِ ، وهيَ مِنْ درجاتِ النبوَّةِ العاليةِ ؛ كما أنَّ الرؤيا الصادقةَ جزءٌ مِنْ ستةٍ وأربعينَ جزءاً مِنَ النبوَّةِ .

فإيَّاكَ أنْ يكونَ حظُّكَ مِنَ العلمِ إنكارَ كلِّ ما جاوزَ حدَّ قصورِكَ ؛ ففيهِ هلكَ المتحذلقونَ مِنَ العلماءِ[1] ، الزاعمونَ أنَّهُمْ أحاطوا بعلومِ المعقولِ .

والجهلُ خيرٌ مِنْ عقلٍ يدعو إلىٰ إنكارِ مثلِ هـٰذهِ الأمورِ لأولياءِ اللهِ تعالىٰ[2] ، ومَنْ أنكرَ ذلكَ للأولياءِ . . لزمَهُ إنكارُهُ للأنبياءِ ، وكانَ خارجاً عَنِ الدينِ بالكليَّةِ[3] .

وقالَ بعضُ العارفينَ : (إنَّما انقطعَ الأبدالُ في أطرافِ الأرضِ واستتروا عنْ أعينِ الجمهورِ . . لأنَّهُمْ لا يطيقونَ النظرَ إلىٰ علماءِ الوقتِ ؛ لأنَّهُمْ

---

(١) **المتحذلقون** : المتكيِّسون الذين يتظرَّفون في الكلام طلباً لزيادة القدْر عند الناس .

(٢) لأن أشرف أقوال الجاهلين التسليم والتفويض لما لا يعلمون ، وهو أقل أحوال العالمين ، فبالنظر إلىٰ ذلك كان بعضُ الجهل خيراً من العلم . « إتحاف » (١/٤٤٦) .

(٣) لأن طريق الفيض واحد ، وإنما يختلف تلقيه بحسب الاستعدادات ، فما كان للأنبياء . . فهو للأولياء مع مباينة الاستعداد ، ما عدا مرتبة النبوة التي لا يلحقها لاحق ، ولا يشق غبارها سابق ، فإنكار ما للأولياء يورثه الإنكار لما للأنبياء . « إتحاف » (١/٤٤٦) .

عندَهمْ جهَّالٌ باللهِ تعالىٰ ، وهُمْ عندَ أنفسِهمْ وعندَ الجاهلينَ علماءُ)[1] .

وقالَ سهلٌ التُّسْتَريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (إنَّ مِنْ أعظمِ المعاصي الجهلَ بالجهلِ ، والنظرَ إلى العامَّةِ ، واستماعَ كلامِ أهلِ الغفلةِ)[1] .

وكلُّ عالمٍ خاضَ في الدنيا فلا ينبغي أنْ يُصغَىٰ إلىٰ قولِهِ ، بلْ ينبغي أنْ يُتَّهمَ في كلِّ ما يقولُ ؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يخوضُ فيما أحبَّ ، ويدفعُ ما لا يوافقُ محبوبَهُ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ .

والعوامُّ العصاةُ أسعدُ حالاً مِنَ الجهَّالِ بطريقِ الدينِ ، المعتقدينَ أنَّهمْ مِنَ العلماءِ ؛ لأنَّ العاميَّ العاصيَ معترفٌ بتقصيرِهِ ، فيستغفرُ ويتوبُ ، وهـٰذا الجاهلُ الظانُّ أنَّهُ عالمٌ ، وأنَّ ما هوَ مشتغلٌ بهِ منَ العلومِ التي هيَ وسائلُهُ إلى الدنيا مِنْ سلوكِ طريقِ الدينِ . . فلا يتوبُ ولا يستغفرُ ، بلْ لا يزالُ مستمرّاً عليهِ إلى الموتِ .

وإذْ غلبَ هـٰذا علىٰ أكثرِ الناسِ إلا مَنْ عصمَهُ اللهُ تعالىٰ ، وانقطعَ الطمعُ مِنْ إصلاحِهِمْ . . فالأسلمُ لدينِ المحتاطِ العزلةُ والانفرادُ عنهُمْ ، كما سيأتي في كتابِ العزلةِ بيانُهُ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ولذلكَ كتبَ يوسفُ بنُ أسباطٍ إلىٰ حذيفةَ المَرْعشيِّ : (ما ظنُّكَ بمنْ بقيَ لا يجدُ أحداً يذكرُ اللهَ تعالىٰ معهُ إلا كانَ آثماً ، وكانتْ مذاكرتُهُ معصيةً ؟)[1] ، وذلكَ أنَّهُ لا يجدُ أهلَهُ .

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٧٦) .

ولقدْ صدقَ ؛ فإنَّ مخالِطَ الناسِ لا ينفكُّ عنْ غِيبةٍ أوْ عنْ سماعِ غيبةٍ ، أوْ عنْ سكوتٍ علىٰ منكرٍ ، وأحسنُ أحوالِهِ أنْ يفيدَ علماً أو يستفيدَهُ .

ولوْ تأمَّلَ هـٰذا المسكينُ وعلمَ أنَّ إفادتَهُ لا تخلُو عنْ شوائبِ الرياءِ وطلبِ الجمعِ والرئاسةِ . . علمَ أنَّ المستفيدَ إنَّما يريدُ أنْ يجعلَ ذلكَ آلةً إلىٰ طلبِ الدنيا ، ووسيلةً إلى الشرِّ ، فيكونَ هوَ مُعيناً لهُ علىٰ ذلكَ ؛ ورِدْءاً وظهيراً ومهيئاً لأسبابِهِ ؛ كالذي يبيعُ السيفَ مِنْ قطَّاعِ الطريقِ ، فالعلمُ كالسيفِ ، وصلاحُهُ للخيرِ كصلاحِ السيفِ للغزوِ ، وذلكَ لا يرخِّصُ في البيعِ ممَّنْ يعلمُ بقرائنِ أحوالِهِ أنَّهُ يريدُ بهِ الاستعانةَ علىٰ قطْعِ الطريقِ .

فهـٰذهِ اثنتا عشرةَ علامةً مِنْ علاماتِ علماءِ الآخرةِ ، تجمعُ كلُّ واحدةٍ منها جُمَلاً مِنْ أخلاقِ علماءِ السلفِ .

فكنْ أحدَ رجلينِ : إمَّا مُتَّصفاً بهـٰذهِ الصفاتِ ، أوْ معترفاً بالتقصيرِ معَ الإقرارِ بهِ ، وإيَّاكَ أنْ تكونَ الثالثَ فتلبِّسَ علىٰ نفسِكَ بأنْ تلقِّبَ آلةَ الدنيا بالدينِ ، وتشبِّهَ سيرةَ البطَّالينَ بسيرةِ العلماءِ الراسخينَ ، وتلتحقَ بجهلِكَ وإنكارِكَ بزمرةِ الهالكينَ الآيسينَ .

نعوذُ باللهِ مِنْ خدعِ الشيطانِ ، فبها هلكَ الجمهورُ ، ونسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يجعلَنا ممَّنْ لا تغرُّهُ الحياةُ الدنيا ، ولا يغرُّهُ باللهِ الغَرورُ .

البَابُ السَّابِعُ
في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

بيان شرف العقل

اعلمْ : أنَّ هـٰذا ممَّا لا يُحتاجُ إلىٰ تكلُّفٍ في إظهارِهِ ، لا سيما وقدْ ظهرَ شرفُ العلمِ مِنْ قبلِ العقلِ ، والعقلُ منبعُ العلْمِ ومَطْلِعُهُ وأساسُهُ ، والعلْمُ يجري منهُ مَجرى الثمرةِ مِنَ الشجرةِ ، والنورِ مِنَ الشمسِ ، والرؤيةِ مِنَ العينِ ، وكيفَ لا يَشْرُفُ ما هوَ وسيلةُ السعادةِ في الدنيا والآخرةِ ؟![1] .

أوْ كيفَ يُستَرابُ فيهِ والبهيمةُ معَ قصورِ تمييزِها تحتشمُ العقْلَ ، حتَّىٰ إنَّ أعظمَ البهائمِ بَدناً وأشدَّها ضراوةً وأقواها سطوةً إذا رأىٰ صورةَ الإنسانِ . . احتشمَهُ وهابَهُ ؛ لشعورِهِ باستيلائِهِ عليهِ ، بما خُصَّ بهِ مِنْ إدراكِ الحيلِ .

ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : «الشيخُ في قومِهِ كالنبيِّ في أُمتِهِ»[2] .

---

(١) أما السعادة الدنيوية : فمن أعظمها أن الإنسان به يصير خليفة الله في أرضه ، وأما الأخروية : فإنه به يحصل حرث الآخرة المذكور في قوله تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ ، وثمرة حرث الآخرة على التفصيل سبعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وقدرة بلا عجز ، وعلم بلا جهل ، وغنىً بلا فقر ، وأمن بلا خوف ، وراحة بلا شغل ، وعزٌّ بلا ذلّ . « إتحاف » (١/ ٤٤٩) .

(٢) رواه الرافعي من طريق الخليل الحافظ في « مشيخته » بسنده مرفوعاً كما في « التدوين في أخبار قزوين » (٣/ ٩٥) ، وانظر « الإتحاف » (١/ ٤٤٩) .

وليسَ ذلكَ لكثرةِ مالِهِ ، ولا لكبرِ شخصِهِ ، ولا لزيادةِ قوَّتِهِ ، بلْ لزيادةِ تجربتِهِ التي هيَ ثمرةُ عقلِهِ .

ولذلكَ ترى الأتراكَ والأكرادَ وأجلافَ العربِ وسائرَ الخلْقِ معَ قربِ رتبتِهِمْ مِنَ البهائمِ يوقِّرونَ المشايخَ بالطبْعِ .

ولذلكَ حينَ قَصَدَ كثيرٌ مِنَ المعاندينَ قَتْلَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فلمَّا وقعتْ أعينُهُمْ عليهِ واكتحلُوا بغرَّتِهِ الكريمةِ . . هابوهُ ، وتراءىٰ لهُمْ ما كانَ يتلألأُ علىٰ ديباجةِ وجهِهِ مِنْ نورِ النبوَّةِ، وإنْ كانَ ذلكَ باطناً في نفسِهِ بطونَ العقلِ .

وشرفُ العقلِ مدركٌ بالضرورةِ ، وإنما القصْدُ أنْ نوردَ ما وردتْ بهِ الأخبارُ والآياتُ في ذكرِ شرفِهِ .

وقدْ سماهُ اللهُ تعالىٰ نوراً في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ الآيةَ .

وسمَّى العلمَ المستفادَ منهُ روحاً وحياةً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ .

وحيثُ ذَكَرَ النورَ والظلمةَ أرادَ بهِ العلمَ والجهلَ ، كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ .

وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا أيُّها الناسُ ؛ اعقلوا عنْ ربِّكُمْ وتواصوا بالعقلِ . . تعرفوا بهِ ما أُمرتُمْ بهِ وما نُهيتُمْ عنهُ ، واعلموا أنَّهُ مجدُكُمْ

عندَ ربِّكُمْ ، واعلموا أنَّ العاقِلَ مَنْ أطاعَ اللهَ وإنْ كانَ دميمَ المنظرِ حقيرَ الخطرِ دنيءَ المنزلةِ رثَّ الهيئةِ ، وإنَّ الجاهِلَ مَنْ عصى اللهَ تعالىٰ وإنْ كانَ جميلَ المنظرِ عظيمَ الخطرِ شريفَ المنزلةِ حسنَ الهيئةِ فصيحاً نطوقاً ، فالقردةُ والخنازيرُ أعقلُ عندَ اللهِ تعالىٰ ممَّنْ عصاهُ ، ولا تغتروا بتعظيمِ أهلِ الدنيا إيَّاكمْ ، فإنَّهُمْ مِنَ الخاسرينَ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أوَّلُ ما خلقَ اللهُ العقلُ ، فقالَ لهُ : أقبلْ ، فأقبلَ ، ثمَّ قالَ لهُ : أدبرْ ، فأدبرَ ، ثمَّ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : وعزَّتي وجلالي ؛ ما خلقتُ خَلقاً أكرمَ عَلَيَّ منكَ ، بكَ آخذُ ، وبكَ أعطي ، وبكَ أثيبُ ، وبكَ أعاقبُ »[2] .

فإنْ قلتَ : فهـٰذا العقلُ إنْ كانَ عَرَضاً . . فكيفَ خُلِقَ قبلَ الأجسامِ ؟ وإنْ كانَ جوهراً . . فكيفَ يكونُ جوهرٌ قائمٌ بنفسِهِ لا يتحيَّزُ ؟[3] .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا مِنْ علْمِ المكاشفةِ ، ولا يليقُ ذكرُهُ بعلْمِ المعاملةِ ، وغرضُنا الآنَ ذكرُ علومِ المعاملةِ .

---

(١) هو من أحاديث داوود بن المحبر في كتابه « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٥٢) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣١٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣١٢) ، وانظر المراد بلفظ (العقل) في ما نقله الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (١/ ٤٥٣) .

(٣) قوله : (جوهر قائم) اسم (يكون) ، وخبرها جملة : (لا يتحيز) .

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : أثنىٰ قومٌ علىٰ رجلٍ عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّىٰ بالغوا ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كيف عَقْلُ الرجلِ ؟ » فقالوا : نخبرُكَ عنِ اجتهادِهِ في العبادةِ وأصنافِ الخيرِ وتسألُنا عنْ عقلِهِ ؟! فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الأحمقَ يصيبُ بحمقِهِ أعظمَ مِنْ فجورِ الفاجرِ ، وإنَّما يرتفعُ العبادُ غداً في الدرجاتِ الزُّلفىٰ مِنْ ربِّهِمْ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ »[1] .

وعنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « ما اكتسبَ رجلٌ مثلَ فضلِ عقْلٍ يهدي صاحبَهُ إلىٰ هُدىً ويردُّهُ عنْ ردىً ، وما تَمَّ إيمانُ عبْدٍ ولا استقامَ دينُهُ حتَّىٰ يكملَ عقلُهُ »[2] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ ليدركُ بحسْنِ خلقِهِ درجةَ الصائمِ القائمِ ، ولا يتمُّ لرجلٍ حسنُ خلقِهِ حتَّىٰ يتمَّ عقلُهُ ، فعندَ ذلكَ تمَّ إيمانُهُ وأطاعَ ربَّهُ وعَصَىٰ عدوَّهُ إبليسَ »[3] .

ورُويَ عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لكلِّ شيءٍ دعامةٌ ، ودعامةُ المؤمنِ عقلُهُ ، فبقدْرِ عقلِهِ تكونُ

---

(١) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) .

(٢) روىٰ بنحوه الطبراني في « الصغير » (١/ ٢٤١) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣٣٨) .

(٣) الجملة الأولىٰ منه رواها أبو داوود (٤٧٩٨) ، وتمامه من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٥٦) .

عبادتُهُ ، أما سمعتُمْ قولَ الفُجَّارِ : ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ »[1] .

وعنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ لتميمٍ الداريِّ : ما السُّؤْدَدُ فيكمْ ؟ قالَ : العقلُ ، قالَ : صدقتَ ؛ سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كما سألتُكَ فقالَ كما قلْتَ ، ثمَّ قالَ : « سألتُ جبريلَ عليهِ السلامُ : ما السُّؤْدُدُ ؟ قالَ : العقلُ »[1] .

وعنِ البراءِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : كثرتِ المسائلُ يوماً علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ : « يا أيُّها الناسُ ؛ إنَّ لكلِّ شيءٍ مطيةً ، ومطيَّةُ المرءِ العقلُ ، وأحسنُكُمْ دلالةً ومعرفةً بالمحجَّةِ أفضلُكُمْ عقلاً »[1] .

وعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : لمَّا رجعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ غزوةِ أُحُدٍ . . سَمِعَ الناسَ يقولونَ : كانَ فلانٌ أشجَعَ مِنْ فلانٍ ، وفلانٌ أبلىٰ ما لمْ يُبْلِ غيرُهُ ، ونحوَ هٰذا ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أمَّا هٰذا . . فلا علْمَ لكمْ بهِ » ، قالوا : وكيفَ ذلكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّهمْ قاتلوا علىٰ قدْرِ ما قسمَ اللهُ لهُمْ مِنَ العقلِ ، وكانَ نُصرتُهُمْ ونيَّتُهُمْ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ ، فأُصيبَ مِنهُ مَنْ أُصيبَ علىٰ منازلَ شتَّىٰ ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ . . اقتسموا المنازِلَ علىٰ قدْرِ نيَّاتِهِمْ وقدْرِ عقولِهِمْ »[2] .

---

(١) من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٥٦) .

(٢) من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٥٧) .

وعنِ البراءِ بنِ عازبٍ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « جَدَّ الملائكةُ واجتهدوا في طاعةِ اللهِ سبحانَهُ بالعَقْلِ ، وجَدَّ المؤمنونَ مِنْ بني آدمَ علىٰ قدْرِ عقولِهِمْ ، فأعملُهُمْ بطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ أوفرُهُمْ عقلاً »(١) .

وعنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالتْ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ بِمَ يتفاضلُ الناسُ في الدنيا ؟ قال : « بالعقلِ » ، قلتُ : وفي الآخرةِ ؟ قال : « بالعقلِ » ، قلتُ : أليسَ إنَّما يُجزونَ بأعمالِهِمْ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عائشَةُ ؛ وهلْ عَملُوا إلا بقدْرِ ما أعطاهُمُ اللهُ مِنَ العقلِ ؟! فبقدْرِ ما أُعْطُوا مِنَ العقْلِ كانتْ أعمالُهُمْ ، وبقدْرِ ما عملُوا يُجزونَ »(١) .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لكُلِّ شيءٍ آلةٌ وعُدَّةٌ ، وإنَّ آلةَ المؤمنِ العقلُ ، ولكلِّ شيءٍ مطيَّةٌ ، ومطيَّةُ المرءِ العقلُ ، ولكلِّ شيءٍ دِعامةٌ ، ودِعامَةُ الدينِ العقلُ ، ولكُلِّ قومٍ غايةٌ ، وغايةُ العبادِ العقلُ ، ولكُلِّ قومٍ داعٍ ، وداعي العابدينَ العقلُ ، ولكلِّ تاجرٍ بضاعةٌ ، وبضاعةُ المجتهدينَ العقلُ ، ولكلِّ أهلِ بيتٍ قَيِّمٌ ، وقيِّمُ بيوتِ الصدِّيقينَ العقلُ ، ولكلِّ خرابٍ عمارةٌ ، وعمارةُ الآخرةِ العقلُ ، ولكُلِّ امرىءٍ عَقِبٌ يُنسبُ إليهِ ويُذكرُ بهِ ، وعَقِبُ الصدِّيقينَ الذي يُنسبونَ إليهِ ويُذكرونَ بهِ العقلُ ، ولكلِّ سَفْرٍ فُسْطَاطٌ(٢) ، وفُسطَاطُ المؤمنينَ العقلُ »(١) .

---

(١) من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٥٧) .

(٢) **السَّفْر** : القوم المسافرون ، **والفسطاط** : الخيمة .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أحبَّ المؤمنينَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مَنْ نصبَ في طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ونَصَحَ لِعبادِهِ ، وكمُلَ عقلُهُ ، ونصحَ نفسَهُ فأبصرَ ، وعملَ بهِ أيامَ حياتِهِ فأفلحَ وأَنْجَحَ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتمُّكُمْ عقلاً أشدُّكُمْ للهِ خوفاً ، وأحسنُكُمْ فيما أمَرَ بهِ ونَهَىٰ عنهُ نظراً ، وإنْ كانَ أقلَّكُمْ تطوُّعاً »[2] .

❋ ❋ ❋

(١) من أحاديث داوود بن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/٤٥٨) .

(٢) من أحاديث ابن المحبر في « العقل » ، انظر « الإتحاف » (١/٤٥٨) . وقد روىٰ هٰذه الأحاديث عنه الحارث بن أبي أسامة في « مسنده » ، وأوردها ابن حجر في « المطالب العالية » ، وأورد بعضها ابن الجوزي في « الموضوعات » ، والسيوطي في « اللآلىء المصنوعة » .

بيان حقيقيّة العقل وأقسامه

اعلمْ : أنَّ الناسَ اختلفوا في حدِّ العقلِ وحقيقتِهِ ، وذَهَلَ الأكثرونَ عنْ كونِ هٰذا الاسمِ مطلقاً علىٰ معانٍ مختلفةٍ ، فصارَ ذلكَ سببَ اختلافِهِمْ .

والحقُّ الكاشفُ للغطاءِ فيهِ : أنَّ العقلَ اسمٌ يُطلقُ بالاشتراكِ علىٰ أربعةِ معانٍ ، كما يُطلقُ اسمُ العينِ مثلاً علىٰ معانٍ عدَّةٍ ، وما يجري هٰذا المَجرىٰ ، فلا ينبغي أنْ يُطلبَ لجميعِ أقسامِهِ حدٌّ واحدٌ ، بلْ يُفرَدُ كلُّ قسمٍ بالكشْفِ عنهُ .

❁ ❁ ❁

فالأوَّلُ : الوصفُ الذي يفارقُ الإنسانُ بهِ سائرَ البهائمِ : وهوَ الذي بهِ استعدَّ لقبولِ العلومِ النظريةِ ، وتدبيرِ الصناعاتِ الخفيَّةِ الفكريةِ ، وهوَ الذي أرادَهُ الحارثُ بنُ أسدٍ المحاسبيُّ حيثُ قالَ في حدِّ العقلِ : (إنَّهُ غريزةٌ يتهيَّأُ بها إدراكُ العلومِ النظريةِ ، وكأنَّهُ نورٌ يُقذفُ في القلبِ بهِ يستعدُّ لإدراكِ الأشياءِ) .

ولمْ ينصفْ مَنْ أنكرَ هٰذا ، وردَّ العقلَ إلىٰ مجرَّدِ العلومِ الضروريةِ ؛ فإنَّ الغافلَ عنِ العلومِ والنائمَ يُسمَّيانِ عاقلينِ باعتبارِ وجودِ هٰذهِ الغريزةِ فيهما معَ فقْدِ العلومِ ، وكما أنَّ الحياةَ غريزةٌ بها يتهيَّأُ الجسمُ للحركاتِ الاختياريةِ

والادراكاتِ الحسيَّةِ . . فكذلكَ العقلُ غريزةٌ بها تتهيَّأُ بعضُ الحيواناتِ للعلومِ النظريةِ .

ولوْ جازَ أنْ يُسوَّىٰ بينَ الإنسانِ والحمارِ في الغريزةِ والإدراكاتِ الحسيَّةِ فيُقالَ : لا فرقَ بينهُمَا إلا أنَّ اللهَ تعالىٰ بحكْمِ إجراءِ العادةِ يخلُقُ في الإنسانِ علوماً وليسَ يخلقُها في الحمارِ والبهائمِ . . لجازَ أنْ يُسوَّىٰ بينَ الجمادِ والحمارِ في الحياةِ ويُقالَ : لا فرقَ إلا أنَّ اللهَ تعالىٰ يخلقُ في الحمارِ حركاتٍ مخصوصةً بحكمِ إجراءِ العادةِ ؛ فإنَّهُ لوْ قُدِّرَ الحمارُ جماداً ميِّتاً . . لوجبَ القولُ بأنَّ كلَّ حركةٍ تُشاهَدُ منهُ فاللهُ سبحانَهُ قادرٌ علىٰ خلقِها فيهِ على الترتيبِ المشاهدِ ، وكما وجبَ أنْ يُقالَ : لمْ يكنْ مفارقتُهُ للجمادِ في الحركةِ إلا بغريزةٍ اختصَّتْ بهِ عُبِّرَ عنها بالحياةِ . . فكذا مفارقةُ الإنسانِ للبهيمةِ في إدراكِ العلومِ النظريةِ بغريزةٍ يُعبَّرُ عنها بالعقلِ[1] .

وهوَ كالمرآةِ التي تفارقُ غيرَها مِنَ الأجسامِ في حكايةِ الصورِ والألوانِ بصفةٍ اختصَّتْ بها وهيَ الصقالةُ ، وكذلكَ العينُ تفارقُ الجبهةَ في هيئاتٍ وصفاتٍ بها استعدَّتْ للرؤيةِ ، فنسبةُ هٰذهِ الغريزةِ إلى العلومِ كنسبةِ العينِ إلى الرؤيةِ ، ونسبةُ القرآنِ والشرعِ إلىٰ هٰذه الغريزةِ في سياقِها إلى انكشافِ العلومِ لها كنسبةِ نورِ الشمسِ إلى البصرِ ، فهكذا ينبغي أنْ تُفهمَ هٰذهِ الغريزةُ .

❀ ❀ ❀

(١) فثبت بما ذكر تصحيح قول المحاسبي . « إتحاف » (١/ ٤٦٠) .

الثاني : هيَ العلومُ التي تخرجُ إلى الوجودِ في ذاتِ الطفلِ المميِّزِ بجوازِ الجائزاتِ واستحالةِ المستحيلاتِ : كالعلمِ بأنَّ الاثنينِ أكثرُ مِنَ الواحدِ ، وأنَّ الشخصَ الواحدَ لا يكونُ في مكانينِ في وقتٍ واحدٍ ، وهوَ الذي عناهُ بعضُ المتكلمينَ حيثُ قالَ في حدِّ العقلِ : (إنَّهُ بعضُ العلومِ الضروريةِ ؛ كالعلمِ بجوازِ الجائزاتِ واستحالةِ المستحيلاتِ) .

وهوَ أيضاً صحيحٌ في نفسِهِ ؛ لأنَّ هـٰذهِ العلومَ موجودةٌ ، وتسميتُها عقلاً ظاهرٌ ، وإنَّما الفاسدُ أنْ تُنكرَ تلكَ الغريزةُ ويقالَ : لا موجودَ إلا هـٰذهِ العلومُ .

الثالثُ : علومٌ تُستفادُ مِنَ التجاربِ بمجاري الأحوالِ : فإنَّ مَنْ حنَّكتْهُ التجاربُ وهذَّبتْهُ المذاهبُ يُقالُ : إنَّهُ عاقلٌ في العادةِ ، ومَنْ لا يتصفُ بهـٰذهِ الصفةِ . . فيُقالُ : إنَّهُ غبيٌّ غُمْرٌ جاهلٌ ، فهـٰذا نوعٌ آخرُ مِنَ العلومِ سُمِّيَ عقلاً .

والرابعُ : أنْ تنتهيَ قوَّةُ تلكَ الغريزةِ إلىٰ أنْ يعرفَ عواقبَ الأمورِ ، ويقمعَ الشهوةَ الداعيةَ إلى اللذَّةِ العاجلةِ ويقهرَها : فإذا حصلتْ هـٰذهِ القوَّةُ سُمِّيَ صاحبُها عاقلاً ، مِنْ حيثُ إنَّ إقدامَهُ وإحجامَهُ بحسَبِ ما يقتضيهِ النظرُ في العواقبِ ، لا بحكمِ الشهوةِ العاجلةِ ، وهـٰذهِ أيضاً مِنْ خواصِّ الإنسانِ التي بها يتميَّزُ عنْ سائرِ الحيوانِ .

فالأولُ : هوَ الأسُّ والسِنْخُ والمنبعُ .

والثاني : هوَ الفرْعُ الأقربُ إليهِ .

والثالثُ : فرعُ الأوَّلِ والثاني ؛ إذْ بقوَّةِ الغريزةِ والعلومِ الضروريةِ تستفادُ علومُ التجاربِ .

والرابعُ : هوَ الثمرةُ الأخيرةُ ، وهيَ الغايةُ القصوىٰ .

فالأوَّلانِ بالطبْعِ ، والأخيرانِ بالاكتسابِ ، ولذلكَ قالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ[1] : [من الهزج]

رَأَيْتُ ٱلْعَقْلَ عَقْلَيْنِ ... فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعُ
وَلاَ يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ ... إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعُ
كَمَا لاَ تَنْفَعُ ٱلشَّمْسُ ... وَضَوْءُ ٱلْعَيْنِ مَمْنُوعُ

والأوَّلُ هوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما خلقَ اللهُ خلقاً أكرمَ عليهِ مِنَ العقلِ »[2] ، والأخيرُ هوَ المرادُ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا تقرَّبَ الناسُ بأبوابِ البرِّ والأعمالِ الصالحةِ . . فتقرَّبْ أنتَ بعقلِكَ »[3] ، وهوَ المرادُ بقولِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأبي الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : « ازددْ عقلاً . . تزددْ مِنْ ربِّكَ قُرْباً » ، فقالَ : بأبي أنتَ وأمِّي ؛ وكيفَ لي بذلكَ ؟

---

(١) ديوان سيدنا علي الموسوم بـ: « أنوار العقول لوصي الرسول » (ص١٦١) .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣١٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٣١٢) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٨) .

فقالَ : « اجتنبْ محارمَ اللهِ تعالىٰ ، وأدِّ فرائضَ اللهِ سبحانَهُ . . تكنْ عاقلاً ، واعملْ بالصالحاتِ مِنَ الأعمالِ . . تزددْ في عاجلِ الدنيا رفعةً وكرامةً ، وتنلْ في آجلِ العُقْبَىٰ بها مِنْ ربِّكَ عزَّ وجلَّ القربَ والعِزَّ »[1] .

وعنْ سعيدِ بنِ المسيَّبِ : أنَّ عمرَ وأُبَيَّ بنَ كعبٍ وأبا هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُمْ دخلوا علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالوا : يا رسُولَ اللهِ ؛ مَنْ أعلمُ الناسِ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « العاقلُ » ، قَالُوا : فَمَنْ أعبدُ الناسِ ؟ قالَ : « العاقلُ » ، قالوا : فَمَنْ أفضلُ الناسِ ؟ قالَ : « العاقلُ » ، قالوا : أليسَ العاقلُ مَنْ تَمَّتْ مروءَتُهُ ، وظهرتْ فصاحتُهُ ، وجادتْ كفُّهُ ، وعظُمتْ منزلتُهُ ؟ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، إنَّ العاقلَ هوَ المتقي وإنْ كانَ في الدنيا خسيساً ذليلاً »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثٍ آخرَ : « إنَّما العاقلُ مَنْ آمنَ باللهِ وصدَّقَ رسلَهُ وعملَ بطاعتِهِ »[3] .

ويشبهُ أنْ يكونَ الاسمُ في أصلِ اللغةِ لتلكَ الغريزةِ ، وكذا في الاستعمالِ ، وإنَّما أُطلقَ على العلومِ مِنْ حيثُ إنَّها ثمرتُها كما يُعرفُ الشيءُ بثمرتِهِ ، فيُقالُ : (العلمُ هوَ الخشيةُ ، والعالمُ مَنْ يخشى اللهَ تعالىٰ) ؛ فإنَّ

---

(١) هو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) .
(٢) من أحاديث ابن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٦٢) .
(٣) من أحاديث ابن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٦٢) .

الخشيةَ ثمرةُ العلمِ ، فيكونُ كالمجازِ لغيرِ تلكَ الغريزةِ ، ولكنْ ليسَ الغرضُ البحثَ عنِ اللغةِ[1] .

والمقصودُ أنَّ هـٰذهِ الأقسامَ الأربعةَ موجودةٌ ، والاسمُ يُطلقُ علىٰ جميعِها ، ولا خلافَ في وجودِ جميعِها إلا في القسمِ الأولِ ، والصحيحُ وجودُها ، بلْ هيَ الأصلُ ، وهـٰذهِ العلومُ كأنَّها مضمَّنَةٌ في تلكَ الغريزةِ بالفطرةِ ، ولكنْ تظهرُ إلى الوجودِ إذا جَرىٰ سببٌ يُخرجُها إلى الوجودِ ، حتَّىٰ كأنَّ هـٰذهِ العلومَ ليستْ بشيءٍ واردٍ عليها مِنْ خارجٍ ، وكأنَّها كانتْ مستكنَّةً فيها فظهرتْ .

ومثالُهُ : الماءُ في الأرضِ ؛ فإنَّهُ يظهرُ بحَفْرِ القُنِيِّ[2] ، ويجتمعُ ويتميَّزُ بالحسِّ ، لا بأنْ يُساقَ إليها شيءٌ جديدٌ ، وكذلكَ الدُّهْنُ في اللوزِ ، وماءُ الورْدِ في الورْدِ .

ولذلـكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ ، فالمرادُ بهِ : إقرارُ نفوسِهِمْ لا إقرارُ الألسنةِ ؛ فإنَّهُمُ انقسموا في إقرارِ الألسنةِ حيثُ وجدتِ الألسنةُ والأشخاصُ إلىٰ مقرٍّ وجاحدٍ[3] .

---

(١) أشار بذلك إلىٰ أنه خالفهم ـ أهل اللغة ـ فيما أطبقوا عليه . « إتحاف » (١/ ٤٦٣) .

(٢) **القُنِيُّ** : جمع قناة ؛ وهي الجدول الصغير .

(٣) فمنهم من بقي علىٰ إقراره الأصلي من أول وهلة ، ومنهم من راجع إقراره فيما بعد بتوفيق من الله تعالىٰ ، ومنهم من لم يقرَّ مطلقاً ، فالإقرار ثابت بنص الآية ولكن =

ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ ، معناهُ : إنِ اعتبرتَ أحوالَهُمْ . . شهدتْ بذلكَ نفوسُهُمْ وبواطنُهُمْ ، ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ أيْ : كلُّ آدميٍّ فُطِرَ على الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ ، بلْ علىٰ معرفةِ الأشياءِ علىٰ ما هيَ عليهِ[1] ؛ أعني : أنَّها كالمضمَّنَةِ فيها لقربِ استعدادِها للإدراكِ .

ثمَّ لمَّا كانَ الإيمانُ مركوزاً في النفوسِ بالفطرةِ . . انقسمَ الناسُ إلىٰ قسمينِ : إلىٰ مَنْ أعرضَ فنسيَ وهُمُ الكفَّارُ ، وإلىٰ مَنْ أجالَ خاطرَهُ فتذكَّرَ ، فكانَ كمَنْ حملَ شهادةً فنسيَها بغفلةٍ ثمَّ تذكَّرَها ؛ ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

وتسميةُ هٰذا النمطِ تذكُّراً ليسَ ببعيدٍ ، وكأنَّ التذكُّرَ ضربانِ :

أحدُهما : أنْ يذكُرَ صورةً كانتْ حاضرةَ الوجودِ في قلبِهِ لكنْ غابتْ بعدَ الوجودِ .

= لا بالألسنة، وهٰذا الذي أورده المصنف أشار به إلىٰ ثمرة العقل من معرفة الله الضرورية وغاية ما يبلغ إليه الإنسان من ذلك ؛ فأشرف ثمرة العقل معرفة الله سبحانه وتعالىٰ وحسن طاعته والكف عن معصيته . « إتحاف » (١/ ٤٦٣) .

(١) ولم يقل : (بل علىٰ معرفة الله تعالىٰ) ، فإنه إنما عنىٰ بالإيمان معرفة الله الضرورية ؛ وهي معرفة كل أحد أنه مفعول ، وأن له فاعلاً فعله ونقله من الأحوال المختلفة ، لا المعرفة المكتسبة . « إتحاف » (١/ ٤٦٣) .

والآخرُ : أنْ يكونَ عنْ صورةٍ كانتْ مضمَّنَةً فيهِ بالفطرةِ .

وهـٰذهِ حقائقُ ظاهرةٌ للناظرِ بنورِ البصيرةِ ، ثقيلةٌ علىٰ مَنْ مستروَحُهُ السماعُ والتقليدُ دونَ الكشْفِ والعَيانِ ، ولذلكَ تراهُ يتخبَّطُ في مثلِ هـٰذهِ الآياتِ ، ويتعسَّفُ في تأويلِ التذكُّرِ وإقرارِ النفوسِ أنواعاً مِنَ التعسفاتِ ، ويتخايلُ إليهِ في الأخبارِ والآياتِ ضروبٌ مِنَ المناقضاتِ ، وربَّما يغلبُ ذلكَ عليهِ حتَّىٰ ينظرَ إليها بعينِ الاستحقارِ ، ويعتقدَ فيها التهافتَ .

ومثالُهُ : مثالُ الأعمى الذي يدخلُ داراً فيعثُرُ فيها بالأواني المصفوفةِ في الدارِ فيقولُ : ما لهـٰذهِ الأواني لا تُرفعُ مِنَ الطريقِ وتُردُّ إلىٰ مواضعِها ؟ فيُقالُ لهُ : إنَّها في مواضعِها ، وإنَّما الخلَلُ في بصرِكَ .

فكذلكَ خلَلُ البصيرةِ يجري مَجراهُ وأطمُّ منهُ وأعظمُ ؛ إذِ النفسُ كالفارسِ ، والبدنُ كالفرسِ ، وعَمَى الفارسِ أضرُّ مِنْ عَمَى الفرسِ .

ولمشابهةِ بصيرةِ الباطنِ لبصرِ الظاهرِ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ .

وسمَّىٰ ضدَّهُ عمىً ، فقالَ تعالىٰ : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ .

وهـٰذهِ الأمورُ التي كُشفتْ للأنبياءِ بعضُها كانَ بالبصرِ ، وبعضُها كانَ بالبصيرةِ ، وسمَّى الكلَّ رؤيةً .

وبالجملةِ : مَنْ لمْ تكنْ بصيرتُهُ الباطنةُ ثاقبةً . . لمْ يعلقْ بهِ مِنَ الدينِ إلا قُشُورُهُ وأمثلتُهُ دونَ لبابِهِ وحقائقِهِ .

فهـٰذهِ أقسامُ ما ينطلقُ اسمُ العقلِ عليها .

❋ ❋ ❋

بيان تفاوت الناس في العقل

قدِ اختلفَ الناسُ في تفاوتِ العقلِ ، ولا معنىٰ للاشتغالِ بنقلِ كلامِ مَنْ قلَّ تحصيلُهُ ، بلِ الأولى والأهمُّ المبادرةُ إلى التصريحِ بالحقِّ .

والحقُّ الصريحُ فيهِ أنْ يقالَ : إنَّ التفاوتَ يتطرَّقُ إلى الأقسامِ الأربعةِ سوى القسمِ الثاني ؛ وهوَ العلمُ الضروريُّ بجوازِ الجائزاتِ واستحالةِ المستحيلاتِ ؛ فإنَّ مَنْ عرفَ أنَّ الاثنينِ أكثرُ مِنَ الواحدِ . . عرفَ أيضاً استحالةَ كونِ الجسْمِ في مكانينِ ، وكونِ الشيءِ الواحدِ قديماً حادثاً ، وكذا سائرُ النظائرِ ، وكلُّ مَنْ يدركُهُ يدركُهُ إدراكاً محقَّقاً مِنْ غيرِ شكٍّ[1] ، فأمَّا الأقسامُ الثلاثةُ . . فالتفاوتُ يتطرقُ إليها .

أمَّا القسمُ الرابعُ ـ وهوَ استيلاءُ القوَّةِ علىٰ قمْعِ الشهواتِ ـ فلا يخفىٰ تفاوتُ الناسِ فيهِ ، بلْ لا يخفىٰ تفاوتُ أحوالِ الشخصِ الواحدِ فيهِ .

وهـٰذا التفاوتُ يكونُ تارةً لتفاوتِ الشهوةِ ؛ إذْ قدْ يقدرُ العاقلُ علىٰ ترْكِ بعضِ الشهواتِ دونَ بعضٍ ، ولكنْ غيرُ مقصورٍ عليهِ ؛ فإنَّ الشابَّ قدْ يعجَزُ عنْ تركِ الزنا ، وإذا كَبِرَ وتمَّ عقلُهُ . . قدرَ عليهِ ، وشهوةُ الرياءِ والرياسةِ تزدادُ قوَّةً بالكِبَرِ لا ضعفاً .

وقدْ يكونُ سببُهُ التفاوتَ في العلْمِ المعرِّفِ لغائلةِ تلكَ الشهوةِ ، ولهـٰذا

---

(١) في (ج) : (وكل ما يدركه العاقل إدراكاً . . .) ، وكذا في « الإتحاف » (١/ ٤٦٥) .

يقدرُ الطبيبُ على الاحتماءِ عنْ بعضِ الأطعمةِ المضرَّةِ ، وقدْ لا يقدرُ مَنْ يساويهِ في العقلِ علىٰ ذلكَ إذا لمْ يكنْ طبيباً وإنْ كانَ يعتقدُ على الجملةِ فيهِ مضرَّةً ، ولكنْ إذا كانَ علْمُ الطبيبِ أتمَّ . . كانَ خوفُهُ أشدَّ ، فيكونُ الخوفُ جنداً للعقلِ ، وعُدَّةً في قمعِ الشهواتِ وكسرِها ، وكذلكَ يكونُ العالمُ أقدرَ علىٰ تركِ المعاصي مِنَ الجاهلِ ؛ لقوَّةِ علمِهِ بضررِ المعاصي ، وأعني بهِ : العالمَ الحقيقيَّ دونَ أربابِ الطيالسةِ وأصحابِ الهذيانِ .

فإنْ كانَ التفاوتُ مِنْ جهةِ الشهوةِ . . لمْ يرجعْ إلىٰ تفاوتِ العقلِ ، وإنْ كانَ مِنْ جهةِ العلمِ . . فقدْ سمَّينا هٰذا الضربَ مِنَ العلمِ عقلاً ، فإنَّهُ يقوِّي غريزةَ العقلِ ، فيكونُ التفاوتُ فيما رجعتِ التسميةُ إليهِ .

وقدْ يكونُ بمجرَّدِ التفاوتِ في غريزةِ العقلِ ؛ فإنَّها إذا قويتْ . . كانَ قمعُها للشهوةِ ـ لا محالةَ ـ أشدَّ .

وأمَّا القسمُ الثالثُ ـ وهوَ علومُ التجاربِ ـ فتفاوتُ الناسِ فيها لا يُنكرُ ؛ فإنَّهمْ يتفاوتونَ بكثرةِ الإصابةِ وسرعةِ الإدراكِ ، ويكونُ سببُهُ إمَّا تفاوتاً في الغريزةِ ، وإمَّا تفاوتاً في الممارسةِ .

فأما الأوَّلُ ـ وهوَ الأصلُ ، أعني : الغريزةَ ـ فالتفاوتُ فيهِ لا سبيلَ إلىٰ جحدِهِ ؛ فإنَّهُ مثلُ نورٍ يشرقُ على النفسِ ويطلعُ صبحُهُ ، ومبادىءُ إشراقِهِ عندَ سنِّ التمييزِ ، ثمَّ لا يزالُ ينمو ويزدادُ نموّاً خفيّاً على التدريجِ إلىٰ أنْ يتكاملَ بقرْبِ الأربعينَ سنةً .

ومثالُهُ : نورُ الصبْحِ ؛ فإنَّ أوائلَهُ تخفىٰ خفاءً يشقُّ إدراكُهُ ، ثمَّ يتدرَّجُ إلى الزيادةِ ، إلىٰ أنْ يكملَ بطلوعِ قرْصِ الشمسِ .

وتفاوتُ نورِ البصيرةِ كتفاوتِ نورِ البصرِ ، فالفرقُ مدركٌ بينَ الأعمشِ وبينَ حادِّ البصرِ ، بلْ سنَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ جاريةٌ في جميعِ خلقِهِ بالتدريجِ في الإيجادِ ، حتَّىٰ إنَّ غريزةَ الشهوةِ لا تظهرُ في الصبيِّ عندَ البلوغِ دفعةً وبغتةً ، بلْ تظهرُ شيئاً شيئاً على التدريجِ ، وكذا جميعُ القوىٰ والصفاتِ .

ومَنْ أنكرَ تفاوتَ الناسِ في هٰذه الغريزةِ . . فكأنَّهُ منخلعٌ عنْ ربقةِ العقلِ .

ومَنْ ظنَّ أنَّ عقلَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مثلُ عقلِ آحادِ السَّوَادِيةِ وأجلافِ البوادي . . فهوَ أخسُّ في نفسِهِ مِنْ آحادِ السوادية[1] ، وكيفَ يُنكرُ تفاوتُ الغريزةِ ولولاهُ . . لما اختلفَ تفاوتُ الناسِ في فهْمِ العلومِ ، ولما انقسموا إلىٰ بليدٍ لا يفهَمُ بالتفهيمِ إلا بعدَ تعبٍ طويلٍ مِنَ المعلِّمِ ، وإلىٰ ذَكِيٍّ يفهَمُ بأدنىٰ رمْزٍ وإشارةٍ ، وإلىٰ كاملٍ تنبعثُ مِنْ نفسِهِ حقائقُ الأمورِ بدونِ التعليمِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ ؟!

---

(١) وأخرج أبو نعيم في « الحلية » (٤/٢٦) عن وهب بن منبه قال : (قرأت إحدىٰ وسبعين كتاباً ، فوجدت في جميعها أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقل محمد صلى الله عليه وسلم إلا كحبة رمل من جميع رمال الدنيا ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً) . « إتحاف » (١/٤٦٧) . **والسوادية** : أهل الأرياف .

وذلكَ مثلُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ ؛ إذْ يتَّضحُ لهُمْ في بواطنِهِمْ أمورٌ غامضةٌ مِنْ غيرِ تعلُّمٍ وسماعٍ ، ويُعبَّرُ عنْ ذلكَ بالإلهامِ ، وعنْ مثلِهِ عبَّرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « إنَّ روحَ القُدُسِ نفثَ في رُوْعِي : أحببْ منْ أحببتَ فإنَّكَ مُفارقُهُ ، وعِشْ ما شئتَ فإنَّكَ ميِّتٌ ، واعملْ ما شئتَ فإنَّكَ مَجْزِيٌّ بهِ »[1] .

وهـٰذا النمطُ مِنْ تعريفِ الملائكةِ للأَنبياءِ يخالفُ الوحيَ الصريحَ الذي هوَ سماعُ الصوتِ بحاسَّةِ الأُذُنِ ، ومشاهدةُ المَلَكِ بحاسةِ البصرِ ، ولذلكَ أخبرَ عنْ هـٰذا بالنفثِ في الرُّوعِ .

ودرجاتُ الوحيِ كثيرةٌ ، والخوضُ فيها لا يليقُ بعلْمِ المعاملةِ ، بلْ هوَ منْ علمِ المكاشفةِ .

ولا تظُنَّنَّ أنَّ معرفةَ درجاتِ الوحيِ تستدعي منصبَ الوحيِ ؛ إذْ لا يبعدُ أنْ يعرِّفَ الطبيبُ المريضَ درجاتِ الصحَّةِ ، ويَعلَمَ الفاسقُ درجاتِ العدالةِ وإنْ كانَ خالياً عنها ، فالعلمُ شيءٌ ووجودُ المعلومِ شيءٌ آخرُ ، فلا كلُّ مَنْ عرفَ النبوَّةَ والولايةَ كانَ نبياً ووليّاً ، ولا كلُّ مَنْ عرفَ التقوىٰ والورعَ ودقائقَهُ كانَ تقيّاً .

---

(١) أما لفظ : « إن روح القدس نفث في روعي » والذي هو محل الشاهد . . فرواه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ١٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٦) ، وتتمة الحديث هو عند أبي نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) .

وانقسامُ الناسِ إلىٰ مَنْ يتنبَّهُ مِنْ نفسِهِ ويفهمُ ، وإلىٰ مَنْ لا يفهَمُ إلا بتنبيهٍ وتعليمٍ ، وإلىٰ مَنْ لا ينفعُهُ التعليمُ أيضاً ولا التنبيهُ . . كانقسامِ الأرضِ إلىٰ ما يجتمعُ فيهِ الماءُ ويقوىٰ فيتفجَّرُ بنفسِهِ عيوناً ، وإلىٰ ما يحتاجُ إلى الحَفْرِ ليخرجَ في القنواتِ ، وإلىٰ ما لا ينفعُ فيهِ الحفْرُ وهوَ اليابسُ ، وذلكَ لاختلافِ جواهرِ الأرضِ في صفاتِها ؛ فكذلكَ هـٰذا الاختلافُ في النفوسِ وغريزةِ العقلِ .

ويدلُّ **علىٰ تفاوتِ العقْلِ مِنْ جهةِ النقْلِ** : ما رُوِيَ أنَّ عبدَ اللهِ بنَ سلامٍ رضيَ اللهُ عنهُ سألَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في حديثٍ طويلٍ في آخرِهِ وَصْفُ عِظَمِ العرْشِ ، وأنَّ الملائكةَ قالَتْ : يا ربَّنا ؛ هلْ خلقتَ شيئاً أعظمَ مِنَ العرشِ ؟ قالَ : نعمْ ، العقلُ ، قالوا : وما بلغَ مِنْ قدْرِهِ ؟ قالَ : هيهاتَ ؛ لا يحاطُ بعلمِهِ ، هلْ لكمْ علمٌ بعدَدِ الرملِ ؟ قالوا : لا ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : فإنِّي خلقتُ العقلَ أصنافاً شتَّىٰ كعَدَدِ الرَّملِ ، فمِنَ النَّاسِ مَنْ أُعطِيَ حبَّةً ، ومنهمْ منْ أُعطِيَ حبَّتينِ ، ومنهمُ منْ أُعطِيَ الثلاثَ والأربعَ ، ومنهمْ مَنْ أُعطِيَ فَرَقاً ، ومنهمْ منْ أُعطِيَ وَسْقاً ، ومنهمْ منْ أُعطِيَ أكثرَ مِنْ ذلكَ[1] .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فما بالُ أقوامٍ مِنَ المتصوِّفَةِ يذمُّونَ العقلَ والمعقولَ ؟

---

(١) مختصراً عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص ٢٤٢) ، وبتمامه من أحاديث ابن المحبر في « العقل » . انظر « الإتحاف » (١/ ٤٦٩) .

فاعلمْ : أنَّ السببَ فيهِ أنَّ الناسَ نقلوا اسمَ العقْلِ والمعقولِ إلى المجادلةِ والمناظرةِ بالمناقضاتِ والإلزاماتِ ، وهوَ صنعةُ الكلامِ ، فلمْ يقدروا علىٰ أنْ يقرِّرُوا عندَهُمْ : أنَّكُمْ أخطأتُمْ في التسميةِ ؛ إذْ كانَ ذلكَ لا ينمحي عَنْ قلوبِهِمْ بعدَ تداولِ الألسنةِ بهِ ، ورسوخِهِ في القلوبِ فذمُّوا العقلَ والمعقولَ ، وهوَ المسمَّىٰ بهِ عندَهُمْ .

فأمَّا نورُ البصيرةِ الباطنةِ التي بها يُعرفُ اللهُ تعالىٰ ويُعرفُ صدْقُ رسلِهِ . . فكيفَ يُتصوَّرُ ذمُّهُ وقدْ أثنى اللهُ تعالىٰ عليهِ ؟!

وإنْ ذُمَّ . . فما الذي بعدَهُ يُحمدُ ؟!

فإنْ كانَ المحمودُ هوَ الشرعَ . . فبِمَ عُلِمَ صِحَّةُ الشرعِ ؟!

فإنْ عُلِمَ بالعقلِ المذمومِ الذي لا يُوثَقُ بهِ فيكونُ الشرعُ أيضاً مذموماً !(١) .

ولا يُلتفتُ إلىٰ مَنْ يقولُ : إنَّهُ يُدرَكُ بعينِ اليقينِ ونورِ الإيمانِ لا بالعقلِ ، فإنَّا نريدُ بالعقلِ ما يريدُهُ بعينِ اليقينِ ونورِ الإيمانِ ، وهيَ الصفةُ الباطنةُ التي تميَّزَ بها الآدميُّ عنِ البهائمِ حتَّىٰ أدركَ بها حقائقَ الأمورِ(٢) .

---

(١) فإن ما يتوقف عليه صحة شيء إذا كان واهياً . . فالمتوقف عليه نفسه واهٍ . « إتحاف » (١/ ٤٦٩) .

(٢) فقولهم : (إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان) صحيح ، وقوله : (لا بالعقل) غير صحيح ، وهٰذا الذي أنكر عليهم الشيخ . « إتحاف » (١/ ٤٧٠) .

وأكثرُ هـٰذهِ التخبيطاتِ إنَّما ثارتْ مِنْ جهْلِ أقوامٍ طلبوا الحقائقَ مِنَ الألفاظِ ، فتخبَّطوا لتخبُّطِ اصطلاحاتِ الناسِ في الألفاظِ .

وهـٰذا القدْرُ كافٍ في بيانِ العقلِ ، واللهُ أعلمُ بالصوابِ .

تمّ كتاب العلم

وهو الكتاب الأوّل من ربع العبادات من كتاب إحياء علوم الدّين

والحمد لله ربّ العالمين ، والصّلاة على خير خلقه سيّدنا محمّدٍ وآله أجمعين والسّلام

يتلوه كتاب قواعد العقائد